الفيصل

مجلة ثقافية شهرية ـ العدد ٢٧٥ ـ جمادى الأولى ١٤٢٠ هـ ـ أغسطس/سبتمبر ١٩٩٩ م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 275 - AUG./ SEP. 1999



أحاجي العالم العشر

طويلع ذو النبك الأحمر — الإسلام والطريق الثالث

باسكوا: جزيرة الأحلام والتماثيل — طاب نومكم.. طاب يومكم

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - السنة ٢٣ - العدد ٢٧٥ - جمادى الأولى ١٤٢٠هـ - أغسطس/ سبتمبر ١٩٩٩م

ALFAISAL MAGAZINE - No275- AUG./SEP. 1999

المحتويات



طويلع ذو النبك الأحمر

ورد ذكر «طويلع» في معاجم البلدان، وردّد الشعراء اسمه، ومع كثرة هذه النصوص ظلّ مكانه غير معروف.

وقد سبق أن حدّد الشيخان محمد بن بليهد وحمد الجاسر مكانه، إلا أن الباحث عبدالله بن محمد الشايع خالفهما فيما ذهبا إليه، فقام برحلات ميدانية متتبّعًا مسارات الطرق القديمة، حتى تمكن - كما يقول - من تحديد مكان هذا الماء والوقوف عليه.



خطاط المسجد النبوي الشريف

عبدالله زهدي أفندي

الخط العربي فن تطور على مر التاريخ الإسلامي، وبرز فيه أعلام حملوا لواءه، وحافظوا على أصوله، كما حفظت الأجيال أعمالهم، ومن بين هؤلاء عبدالله زهدي أفندي الذي أطلق عليه لقب كاتب الحرم النبوي الشريف. فمن هذا الخطاط البارع؟ ولِمَ اكتسب هذا اللقب؟



باسكوا: جزيرة الأحلام والتماثيل

لا تشتهر جزيرة باسكوا بروعة مناظرها الطبيعية، وجمال شواطئها فحسب، وإنما يتميز سكانها بتمسكهم بعادات الأجداد وتراثهم، ولا أدل على ذلك من تلك التماثيل الضخمة التي ينثرونها بالقرب من الشواطئ.

وهذه الجزيرة على قدم تاريخها لم تكتشف إلا في عام ١٧٢٢م، حين قدم إليها البحار الهولندي ياكوب روغيغين الذي أعطى الجزيرة اسمها «باسكوا»، الذي يعني الفصح.



التعليم الحاسوبي: غاية ووسيلة

من سمات التعليم التجدد والتطور في وسائله وأساليبه ومناهجه، وفي طرائق التدريس، وفي أدوار كل من المعلم والطالب والبيت. ولقد أصبحت التقنية جزءًا مهمًا في العملية التعليمية، مما يقتضي إعداد ميزانيات تساعد على مواكبة ما يستجد من تطور، وقد أثبتت الدراسات أن الحاسوب أصبح وسيلة فاعلة في التعليم وضرورة من ضرورياته، بل أصبح تفعيل الإنترنيت في التعليم ونقل المعلومة أمرين مألوفين في مدارس الغرب.

أحاجي العالم العشر

هل يتكون العالم جميعه من ذرات مماثلة مطابقة لتلك التي نستطيع رؤيتها بوساطة الأجهزة؟ ماعمر العالم؟ وهل هناك عوالم أخرى؟ وكيف تشكلت المجرات؟ هذه الأسئلة وغيرها لا تزال تحير العلماء، وقد وجدوا بعض الإجابات عنها؟ ولكن ما مدى صحتها؟ ألا تصلح هذه الحيرة أن تسمى أحاجي؟!



البطريق: الحياة في ثلاجة!!

عثر العلماء على هيكل عظمي لطائر البطريق، ورجحوا أن يكون تاريخه راجعاً إلى أكثر من ٦٠ مليون عام.

ولم يكن الاختلاف بين طائر البطريق اليوم ومثيله في ذلك التاريخ البعيد إلا في الحجم، إذ تبلغ قامة بطريق الإمبراطور الذي عاش قبل التاريخ نحو مترين، بينما النوع الموجود حالياً لا يزيد طول قامته على ١.٣ متر، أما أنواعه الموجودة حالياً فتبلغ نحو ١٧ نوعاً، وهي تألف العيش في المناطق الباردة جداً.



الأدب: هوية العرب

كان لدى العرب إحساس قوي بأن من يملك اللغة خليق بأن يسود مجتمعه، وقد كان احتفال القبائل عظيماً بمولد شاعر فيها، وكانت الأسجاع أقدم مظهر من مظاهر الأدب وألوانه عند العرب، وأضفى الإسلام على الأدب قيماً أخلاقية، وتأرجح الأدب في عصور الإسلام المختلفة بين الازدهار والتردي، مع ذلك ظل الأدب هوية العرب.



الإسلام والطريق الثالث

كان سقوط الاتحاد السوفييتي السابق دليلاً على إفلاس الاشتراكية، بينما أفرزت الرأسمالية واقعاً متردياً يتمثل في تسلط رأس المال وانتشار أسلحة الدمار، وفساد الأخلاق، وانهيار القيم، وهذا الإخفاق الذي منيت به الاشتراكية والرأسمالية اقتضى البحث عن طريق ثالث، فكيف يمكن تقديم الإسلام لهذا العالم الحائر في صورته الحقيقية، المتمثلة في وسطيته البعيدة عن الغلو، ليكون ذلك الطريق الثالث؟



صناعة السياحة: مقومات ومعوقات

تحتاج صناعة السياحة إلى مقومات أهمها توافر البنية التحتية، وحرية الحركة بين الدول، كما إنها في الوقت نفسه تتأثر بالظروف السياسية والاقتصادية السائدة.

وقد جاء ازدهار السياحة مرتبطاً بتطور وسائل النقل الجوي، التي قربت المسافات بين الدول، كما تزداد هذه الصناعة ازدهاراً بتزايد

تطور تقنيات الاتصال على اختلافها.
ومع أن الجمال الطبيعي يضفي على بعض الأماكن سحرًا جذابًا، إلا أن الإنسان يظل قادراً على صنع أشياء تجذب الناس، وتزيد صناعة السياحة رواجًا.



الزلازل والأعاصير: أسباب في الفضاء وأخرى في الأرض!!

الزلازل والأعاصير والفيضانات كوارث طبيعية تسبب أضراراً بالغة للإنسان وإنجازاته، وتؤكد الدراسات العلمية أن هناك أسبابًا كامنة في باطن الأرض وأخرى على سطحها، كما أن في الفضاء أسبابًا وأسبابًا. فكيف يمكن تحديد كل هذه الأسباب؟ وهل يأتي يوم يستطيع فيه الإنسان التنبؤ بهذه الكوارث قبل حدوثها؟!



وجبة من الفيوجو.. مع دعاء بالسلامة!!

الفيوجو الاسم الياباني لسمكة بحرية غريبة المظهر، تعرف في أماكن أخرى بالفقهة أو السمكة القنفذ، أو السمكة النفاخة، أو السمكة المتورمة.
وهذه السمكة التي يولع بها اليابانيون هي في حقيقتها سمكة سيئة السمعة، لأنها سمكة سامة، لا يأمن آكلها شرورها، لأن أي خطأ في عملية الطبخ، يعني أن هناك من سيدفع الثمن غاليًا، وهذا ما حدث لممثل ياباني كان يعد رمزًا وطنيًا، إذ جاءت نهايته بعد أكل أربعة أطباق من هذه السمكة الجذابة والقاتلة!!



طاب نومكم.. طاب يومكم!!

الأرامل والمطلقون والعاطلون والذين يعانون الوحدة هم أكثر الناس تعرضًا للأرق والاضطراب، هذه ما تقوله الإحصاءات، أما الدراسات فتوضح أن نقص النوم له نتائج مؤذية، وأن الذين يعملون فترات طويلة من غير راحة يبيعون صحتهم لسوق العمل، وسيدفعون الثمن غاليًا عندما يتقدم بهم العمر.
وتدل حالة الإنسان ونشاطه في نهاره على طبيعة النوم الذي ناله ليلاً، ومن ثم، لا عجب أن يقال: طاب نومكم.. طاب يومكم.



التجار في شعر الحرب العالمية الثانية

تحرك الحروب لويلاتها وفظائعها أحاسيس الشعراء، وتدفعهم إلى التعبير عنها، ومن أكثر المظاهر ارتباطًا بالحروب غلاء الأسعار وانعدام السلع، ويزيد جشع بعض التجار الأوضاع سوءًا، حين يعمدون إلى توظيف هذه الظروف لتحقيق الثراء السريع، وقد كانت الحرب العالمية الثانية من أكثر الحروب التي شهدت هذه الظاهرة، التي وجدت اهتمام الشعراء الذين صبوا جام غضبهم على التجار الجشعين بكلام مؤثر ومجسد للواقع بكل دقائقه وآلامه.

الفيصل

الناشر: دار الفيصل الثقافية

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

السعر الإفرادي:

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ١٥٠ جنيه ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ٠١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

مطابع نجد

هاتف: ٤٤٨٨٠٢٤

استطلاع وموضوعية

بداية أعبر لكم بكل المحبة الصادقة عن خالص مودتي وشكري وتقديري على الجهود الجبارة التي تبذلونها في سبيل إخراج هذه المجلة الغراء بالمظهر الذي يليق بها بوصفها واحدة من المجلات الثقافية العربية التي تتميز بما تقدمه من فكر نير وثقافة بناءة واعية، في وقت انتشرت فيه بعض المجلات الرخيصة التي لا تقدم للقارئ إلا ثقافة رديئة لا تسمن ولا تغني من جوع.

في هذا الوقت تقف مجلة الفيصل وبعض المجلات الصادقة سداً منيعاً وحصناً قوياً للتصدي لتلك الثقافات الملوثة والأفكار المسمومة، فتقدم الفيصل للقارئ في بداية كل شهر هذه الوجبة الثقافية الدسمة المنوعة بما تحويه من آداب وعلوم ومعارف واستطلاعات وثقافات أخرى ينهل منها القارئ ليزداد بذلك مخزونه العلمي والثقافي والمعرفي.

لقد اطلعت خلال الأعداد السابقة على آراء العديد من قراء الفيصل، الذين أبدوا كثيراً من الملاحظات حول التغيير والتجديد والتطوير الذي قامت به هيئة التحرير الجديدة وإنني إذ أنتهز هذه الفرصة لأسجل لهيئة التحرير الجديدة شفافيتها وحيادها في طرح جميع الآراء بموضوعية ومصداقية قلما نجدها في المجلات الأخرى من دون خوف أو وجل أو حساسية، ولأنني على يقين بأن رئاسة التحرير الجديدة حريصة كل الحرص على رضا القارئ الذي يمثل الركن الأساسي في استمرار العطاء المتميز لهذه المجلة، لأدعو جميع القراء إلى منح الفرصة للرئاسة الجديدة لتحقيق طموحاتها وأفكارها التي لا تظهر على المدى القريب وإنما على المدى البعيد، وعدم الحكم على هذا التغيير من خلال عدد أو عددين أو ثلاثة.

كما أوجه دعوتي للسيد رئيس التحرير المحترم بإجراء استطلاع للقراء حول النهج الجديد، توضع فقراته بأسلوب علمي دقيق، وبعناية ودقة متناهية. ويشرف على وضعه مختصون وخبراء لهم علم ودراية في هذا الميدان. كما أطلب من القراء الإجابة عنه بموضوعية ومصداقية تامة - إن تحققت هذه الرغبة -.

مع تمنياتي للفريق الجديد بالتوفيق والتقدم نحو الأفضل.

قارئ المجلة الدائم:

عبدالله يوسف إبراهيم
الأردن - عمان - م.حطين
ص.ب: ٢٩٣ الرمز البريدي ١٣٧٨١

التحرير:
نشكر لك موضوعيتك في طرح رأيك حول ما تسعى إليه إدارة التحرير من تطوير، أما اقتراحك بخصوص إجراء استطلاع لرأي الإخوة القراء، فإننا نشكرك عليه، ولكننا نجد أن رسائل أمثالكم من القراء وما يطرحون فيها من آراء وانتقادات تُعد استفتاءً، وهي محل تقديرنا مهما كان فيها من نقد، وقد أحيلت ملاحظتك الخاصة إلى القسم المختص لاتخاذ اللازم.

متى تعود المسابقة ؟

أرجو إعطاء معلومات توضيحية لقراء الفيصل الكرام عموماً، ولي بصفة شخصية حيث إنني قارئ نهم لعزيزتي «الفيصل» منذ صدور العدد الأول حتى الآن، وقد منّ الله علي بالفوز مرات ومرات بجائزة من المجلة عن «المسابقة» التي كانت تنظمها شهرياً. والمعلومات التوضيحية الخاصة والمطلوبة هي تساؤلات عن الأبواب الثابتة مثل «المسابقة الشهرية»، وكلمة رئيس التحرير.

ولقد سررت غاية السرور عندما تصفحت العدد (٢٧١) ووجدتكم تفضلتم بإعادة تبويب المجلة.

والمسابقة الثقافية ليست للفوز فحسب، بل لاقتناء بعض الكتب والمجلات الإسلامية والاطلاع على شتى فروع المعارف العلمية التي فرضت علينا، لكي نقتبس منها المعلومات الكافية، التي تساعد على المواظبة في القراءة والكتابة والحفظ والتدوين، لذا أرجو التكرم والتفضل منكم بإعادة المسابقة الثقافية لأنني من الباحثين عن الثقافة الرصينة.

وتحية عطرة إلى أعضاء فريق مجلة «الفيصل» الذين يسهرون على إخراجها والحفاظ على استمرارها في التألق وتقديم الثقافة الجادة للمحتاجين إلى العلم والمعرفة واسمحوا لي أن أبدي إعجابي الشديد بالموضوعات الثقافية والقضايا الحيوية التي تطرح على صفحات الفيصل حتى أصبحت مجلتنا من أقوى المطبوعات الثقافية في الساحة.. وهذه الحقيقة يلمسها الباحثون عن الثقافة العلمية.. فأرجو أن تحافظوا على هذا المستوى المرموق.

وفقكم الله إلى مافيه الخير والسداد.

فتحي يوسف محمد حسن
الأقصر - الكرنك القديمة - الحساسنة - مصر

التحرير:
كما سبق التنويه في أعداد سابقة، فإن المسابقة سوف تعود في ثوب جديد، وسترصد لها جوائز قيمة.

دهشة وحيرة

إنني من قراء المجلة منذ فترة لا يستهان بها، ومن قرائها الذين يعتزون بالانتماء إليها. وكان أملنا خلال الفترة السابقة في عودتها بمستوى جيد.

وقد حصلت على العدد رقم ٢٧٢ من المجلة من إحدى المكتبات وعدت إلى المنزل وفي نفسي شعور غامر بالفرحة والسعادة، وعندما طالعتها لاحظت اختفاء بعض الأبواب، ومن بينها المسابقة الشهرية التي لها فضل كبير في تنميتي ثقافياً.

ومن خلال باب «رسائلكم» عرفت مدى التغيير الجذري الذي حصل للمجلة فأنا أضم صوتي إلى صوت القارئ عبده بن علي حسن الفيفي من فيفا بجازان، ومع كل ما حملته رسالته من معنى وهدف.

وبصراحة الإلغاء التام لجميع أبواب المجلة السابقة أصابنا بالدهشة والحيرة.

فنحن كما قال الزميل أي نعم مع كل جديد ولكن ليس مع كل تغيير ولكن كما يقول المثل «أهل مكة أدرى بشعابها».

وإنني على علم مسبق بتفهمكم لآراء القراء بصدور واسعة ورحبة.

وتفضلوا بقبول تحياتي.

عصام حميد شمسان
الجمهورية اليمنية - الحديدة ص.ب: ٣٧٠٩

ليست مئذنة جامع عقبة



صورة من أرشيف المجلة لمئذنة جامع عقبة بن نافع بالقيروان

في المقالة المنشورة بمجلة الفيصل الغراء في عدد رمضان ١٤١٩هـ/يناير ١٩٩٩م والمعنونة بـ «إفريقية المسلمة الهوية الضائعة» للدكتور خليل النحوي ومراجعة مجدي محمد عيسى الذي تناول فيه صاحبه حديثاً منوعاً حول بعض الجوانب من الحياة الثقافية والسياسية بقارة إفريقية، دعمت المقالة بعدة صور لبعض المساجد كصحن جامع القرويين بفاس، ومئذنة وساحة جامع الزيتونة بتونس، ومئذنة على أنها مئذنة جامع عقبة بالقيروان، ولكنها ليست المئذنة المشار إليها.

والملاحظ أن عقبة بن نافع حين دخل إفريقية بادر ببناء القيروان والجامع بها، وجعلها وسط البلاد

حتى يتيسر له مراقبة كامل البلاد وذلك عام ٥٠ للهجرة.
وفي الختام أشكر لمجلة الفيصل وأرجو أن تعيد المجلة الأبواب التي حذفتموها، وخصوصاً المسابقة واستراحة العدد وردود خاصة، كما أرجو أن يذكر الشخص الذي أسلم والمتحدث عنه في ركن «الطريق إلى الله» تعريفاً كاملاً بالشخص كاسم والديه ولقب عائلته وسنة ميلاده، والسنة التي أسلم فيها، والبلد الذي ينتمي إليه.

البشري بن عبدالرحمن عبيد - معلم -
٣٦ نهج بوغرطة - صفاقس ٣٠٠١ تليفون ٤٢٢٣٥٣٠ - الجمهورية التونسية

التحرير:
نشكر لك ملاحظتك، ومتابعتك الدقيقة لما ينشر في المجلة.
أما الأبواب التي ذكرتها فقد ألغيت في إطار تجديد أبواب المجلة.

ثوب غاية في الروعة

لايستطيع قلمي أن يصوغ المعاني المعبرة عن إعجابي العميق بمجلتكم الغراء الأنيقة شكلاً ومضموناً، فإن لها عندي نكهة خاصة ومميزة لا تتوافر في غيرها من المجلات العربية ... فكم يثلج صدري أن أتنسم عبير زهرها، وأرتشف من رحيقها.
أعجبني هذا التنسيق والتنظيم، فهي مجلة متميزة تواكب التطورات على جميع الأصعدة مع دخول القرن الحادي والعشرين. لقد كان هذا التطور أمراً طبيعياً، فهو ليس جديداً عليكم، فأنتم تبحثون عن الجديد. جاء التطوير مدروساً بعناية فائقة، فظهرت المجلة في ثوب غاية في الروعة فدانت لها السيادة والتفوق بين مثيلاتها، وإن دل هذا على شيء إنما يدل على احترامكم للقارئ.
أهنئ نفسي وإياكم على هذا التطور الرائع، فجزى الله خيراً كل من ساهم في إصدارها، كما أسجل تقديري للقائمين عليها بما يليق بهم.
أشكر لكم هذه الهدية الثمينة.
ويسعدني أن أتعاون معكم في مجال الكتابة والتغطية الصحفية من داخل مصر لكثير من القضايا المطروحة على الساحة.

عبدالسلام سيد محمد
ساقية مكي - الجيزة - جمهورية مصر العربية

ماذا تريدون ؟!

نرجو منكم أن تخبرونا عن ماهية المواضيع الصالحة للنشر في مجلتكم، فأنا من قراء مجلتكم وإنني لا أرى ما تنشرونه في المجلة أجود مما أكتب لكم فقد أرسلت لكم ولأول مرة قصيدة شعرية غزلية بعنوان «عزف منفرد»، فاعتذرتم عن النشر، كما أرسلت لكم مادة علمية لها قيمة كبرى بعنوان «ماهي حقيقة القمر» فاعتذرتم عن النشر أيضاً، وأرسلت لكم قصيدة من شعر التفعيلة بعنوان «حلم وحزن» وقد أثنى عليها بعض الشعراء لدينا في سورية، وأعجبوا بها أما أنتم فاعتذرتم للمرة الثالثة.
إذاً ماذا تريدون منا أن نكتب لكم حتى توافقوا على النشر في المجلة؟ بصراحة أنا قد أخذت على خاطري من هذه الاعتذارات المتكررة التي تحمل الكلمات نفسها التي تختتمون بها اعتذاراتكم هذه والتي تقولون فيها حرفياً « ولا يعني ذلك بالطبع عدم صلاحيتها للنشر في أي مطبوعة أخرى»، فهل عالجتم هذه المواضيع المرسلة إليكم حتى عرفتم بأنها صالحة للنشر في مطبوعات أخرى؟ أم أنها عبارة للترضية وجبران الخاطر؟ أريد أن أعرف الحقيقة وأرجو أن تخبرونا عن ما هية مجلتكم مع فائق شكري وتقديري لكم.

حسين محمد علي المحمد
جريجس - حماة - سورية

التحرير:
لا يغيب عن فطنة الأخ كاتب الرسالة أن لكل مجلة سياستها التحريرية وضوابطها في النشر، ولا نهتم في «الفيصل» باسم الكاتب بقدر اهتمامنا بالمادة المرسلة للنشر، وهي تخضع لحكم علمي من متخصصين في الموضوع الذي تتناوله، أما العبارة المشار إليها، فهي لتأكيد أن ضوابط مجلات أخرى قد تختلف عن الضوابط التي تحتكم إليها «الفيصل»، فما قد ينشر فيها قد لا يقبل في مجلات أخرى والعكس صحيح، وفي كل الأحوال، تقديرنا عظيم لكل من يهتم بالنشر في المجلة، وليتنا نستطيع نشر كل ما يرد إلينا.

ردود سريعة

الأخ د. مصطفى مهدي - معهد تحفيظ القرآن الكريم - ثياكروم - غانا:
نحييكم على هذه الروح الإسلامية السمحة التي تعبر عنها رسالتكم، وسوف يتم النظر فيما جاء فيها، ونأمل أن نلبي طلباتكم، مع أمنياتنا لكم بالتوفيق في سعيكم إلى إعلاء كلمة الدين من خلال هذا المعهد الذي يؤدي رسالته على أكمل وجه.

الأخ بلخير هنلانجاف - ولاية تلمسان - الجزائر:
يصعب كثيراً أن نعطيك عناوين بعض الشركات في دول الخليج لتحقيق رغبتك في الالتحاق بإحداها، لأنها أكثر من أن تحصى أو تعد، ويمكن الاتصال بسفارات هذه الدول لعلها تستطيع أن تقدم لك المعلومات التي تحتاج إليها والوسيلة التي تستطيع بها عرض إمكاناتك على الشركات العاملة في مجال تخصصك، مع التمنيات بالتوفيق.

الأخوان طايل محمد موسى العماري - دير يوسف - إربد - الأردن. إشقيرين عبدالدائم - ولاية المسيلة الجزائر:
نشكر لكما إطراءكما على المجلة، واهتمامكما بالموضوعات التي تنشر فيها، والمجلة ترحب بمقالاتكما ومقالات الإخوة الكتاب من كل أنحاء العالم، علماً بأن هناك تقويماً موضوعياً لهذه المقالات حتى تجاز للنشر، يبلغ الكاتب في حالة الإجازة وعدمها.

الأخ عماد الدين محمود جميل سرور - درعا سورية:
نعتذر عن عدم استطاعتنا إعطاءك عنوان الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية بلندن، لأن الباب المعني بالعناوين قد ألغي، كما لا يتوافر لدينا حالياً هذا العنوان، نشكر لك ثقتك بمجلتك.

خطاط المسجد النبوي الشريف عبد الله زهدي أفندي

إبراهيم باجس عبد المجيد

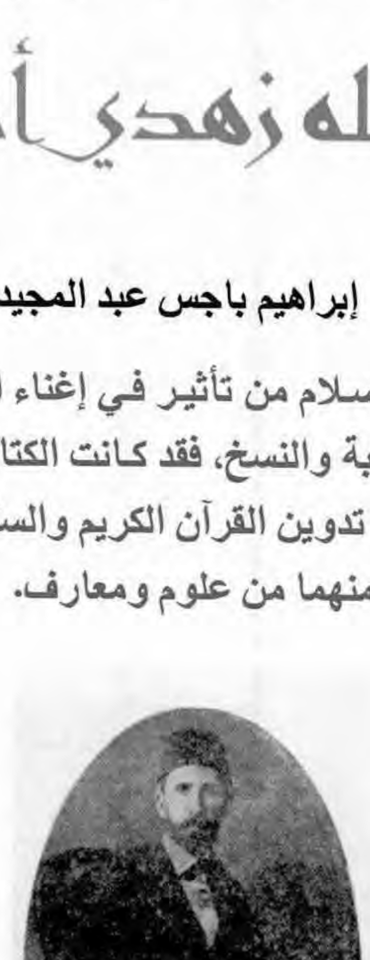
أصبح من نافلة القول ما للإسلام من تأثير في إغناء اللغة العربية وتطويرها في المجالات كافة، ومن ذلك الكتابة والنسخ، فقد كانت الكتابة إحدى الوسائل المهمة في نشر العلوم الإسلامية، فبها تم تدوين القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وما نتج منهما من علوم ومعارف.

وقد تطورت حرفة الكتابة والخط على مر التاريخ الإسلامي، حتى برز أعلام نجباء في هذا المجال، من أمثال ابن البواب (ت:٤٢٣هـ) وابن مقلة (ت: ٣٢٨هـ). وكان منهم أحد الأعلام المتأخرين في الخط، والذي أطلق عليه لقب كاتب الحرم النبوي الشريف، ولقب خطاط مصر، ألا وهو الخطاط زهدي أفندي.

من هو هذا الخطاط البارع؟

هو عبد الله زهدي أفندي ابن عبد القادر أفندي النابلسي، ويتصل نسبه بالصحابي الجليل تميم بن أوس الداري (ت:٤٠ هـ)، ولذلك نجده يكتب أحياناً: «من سلالة تميم الداري».

ويرجع أصل عبد الله زهدي أفندي إلى مدينة نابلس بفلسطين، وقد هاجر منها أجداده إلى الشام، ومن المرجح أن يكون قد ولد فيها، وبعد ذلك هاجر مع والده سنة (١٢٥١هـ/١٨٣٥م) إلى مدينة كُوتاهية التركية، وهي من المدن

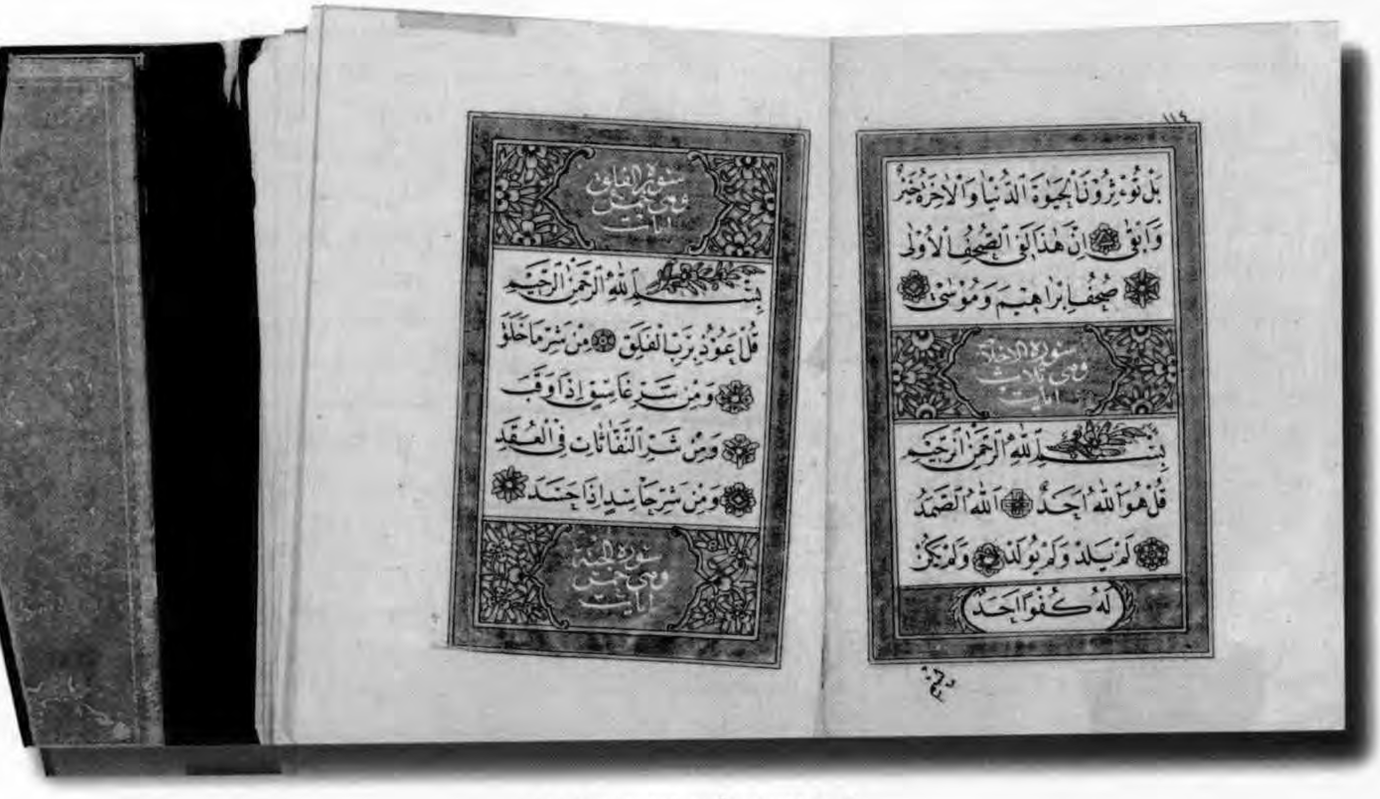


عبدالله زهدي

القديمة التي استوطنها العثمانيون في بداية تأسيس دولتهم. وفي العام نفسه رحل إلى مدينة إستانبول عاصمة دولة الخلافة العثمانية.

وقد أغرب الأستاذ الخطاط محمد طاهر الكردي القولَ حين ذكر في كتابه «تاريخ الخط العربي وآدابه» (ص ٣٨٤) أن عبد الله زهدي ولد بالأستانة ونشأ فيها، ولم يأت بدليل على ذلك. وهذا القول يخالف كل ما ذكره المترجمون عن عبدالله زهدي أنه هاجر من الشام إلى تركيا مع أبيه، لا أنه ولد بها، ونشير في هذا المقام إلى أن عائلة التميمي هي من أكبر العوائل في مدينة نابلس الفلسطينية، ويشاركها في الاسم نفسه عائلة التميمي في مدينة الخليل في فلسطين أيضاً، وأصل هاتين العائلتين واحد، حيث يتصل نسبهما بالصحابي تميم الداري رضي الله عنه، الذي أقطعه الرسول صلى الله عليه وسلم مدينة الخليل.

لا تسعفنا المصادر التي كتبت عنه - وهي قليلة - بتحديد سنة مولده، وإن كان يمكننا أن نستخلص أن مولده كان قبل سنة ١٢٥١هـ، وهي تلك السنة التي هاجر فيها مع والده من الشام إلى تركيا.



كتب زهدي نسخة من المصحف الشريف

مشواره مع الخط

أمـا بدايتـه مـع فن الخط، فكانت بتشجيع من والده عبد القادر أفندي، ثم تلمذ لكبار الخطاطين في عصره، من أمـثال راشـد أفندي حارس ضـريح الصحابي أبي أيوب الأنصاري، الذي استـشـهد عند أسوار القسطنطينية. وكـذلك قـاضي العـسكر، الخطاط مصطفى عزت أفندي، حيث تعلم منه خطي الثلث والنسخ.

ولما حـذق هذا الفن عين مدرسًـا للرسم والخط في مدرسة جـامع نور عثمانيـة والمهندسخانة البرية الملكيـة (مهندسخانه برئ همايون).

وكانت بداية شهـرته عندما أراد السلطان العثـماني عبد المجيد (ت: ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م) إعـادة تعـمـيـر المسجد النبوي الشريف وتوسعته بعد انهـيار إحـدى القبـاب فيـه، فطلب السلطان من الخطاطين الموجودين في تركيا تقديم نماذج من أفضل ما لديهم من خطوط، ليتم اختيار الأفضل منهم وإسناد شـرف الكتـابة على جـدران المسجد النبوي إليه. وشارك في هذه (المسابقة) كبار الخطاطين الأتراك، وكـان من بينهم ذلك الشـاب زهدي أفندي، الذي لم يكن مشهوراً قبل ذلك. وقد أشرف على عملية اختيار الخطوط المناسبة السلطان عبد المجيد نفسه، إذ كان خطاطًا ماهراً، درس فن الخط على كبار خطاطي عصره، من أمثال طاهر أفندي، وكان يجيد الكتابة بخط الثلث ، ويعـمـل على تـشـجـيع الخطـاطين ورعـايتهم؛ وكذلك كـان والده السلطان محمود ابن السلطان عبد الحميد (ت: ١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م) خطاطًا مـاهراً. وعند قيام السلطان بإلقاء نظرة فاحصة على اللوحـات الخطيـة المعـروضـة، استوقفه ما كتبه الخطاط عبد الله زهدي أفندي، وكـان حـاضـراً، فـقـال له: أنت الذي كتـبت هذا يا بني؟ قال: نعم. فدعا له السلطان بالتوفيق والنجـاح، وأمر بتخصيص معاش له مدى حياته قدره ٧٥٠٠ قـرش، ثم أمره بالتوجـه إلى المدينة المنورة لكتـابة خطوط المسـجد النبوي الشريف.

اعتراضات كبار الخطاطين

لكن اختيار السلطان عبد المجيد لهذا الشاب للقيام بهذه المهمة الجليلة لم يرق لغـيـره من كـبار الخـطاطين في عـصره، ومنهم الخطاط الشيخ عبد الفتـاح أفندي، الذي كـان يكبر زهدي أفندي بعشرات السنوات، فأبدى تذمره واعتراضه قائلاً: كيف يعين ولد صغير مثل هذا للقيام بهذا العمل الجليل وأنا لا أزال على قيد الحياة؟! إلا أن السلطان عبد المجيد لم يأبه لهذه الاعتراضات، وفعـلاً توجه زهدي أفندي إلى المدينة المنورة، للعمل في المسـجد النبـوي الشريف، ومعه قرار التعيين من قبل السلطـان، والمتضـمن الصلاحـيـات الممنوحة له في هذا الشأن.

وبدأ العمل في إعادة ترميم المسجد

النبوي الشريف وتوسعته، وكانت الخطة الحكيمة أن يكون الترميم والبناء بالتدريج، حيث يكون العمل في واحدة من جهات الحرم حتى لا يتعطل الناس عن أداء الصلاة في هذا المسجد المبارك ، وكلما انتهى البناء في جهة، انتقل العمل إلى جهة أخرى، وهكذا حتى تم الترميم واكتملت التوسعة، وكانت تلك التوسعة هي الأكبر من نوعها منذ إنشاء المسجد النبوي الشريف حتى ذلك التاريخ، حيث بلغت مساحتها (أي توسعة السلطان عبد المجيد) ٩١٣٢ متراً مربعًا، كما ذكر في كتاب «المسجد النبوي عبر التاريخ» للدكتور محمد سيد الوكيل ص (١٧٤).

وبعد إتمام عملية البناء، انتقل العمل إلى الخطاطين والمزينين - وعلى رأسهم عبد الله زهدي أفندي - لكتابة الخطوط على جدران المسجد، بناءً على التكليف الذي كُلفَ به من قِبَل السلطان عبد المجيد كما أسلفنا.

وظل عبد الله زهدي أفندي يمارس عمله في المدينة المنورة عدة سنوات حتى أنجز العمل على أحسن وجه وأكمله، فكتب مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والأشعار التي قيلت في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

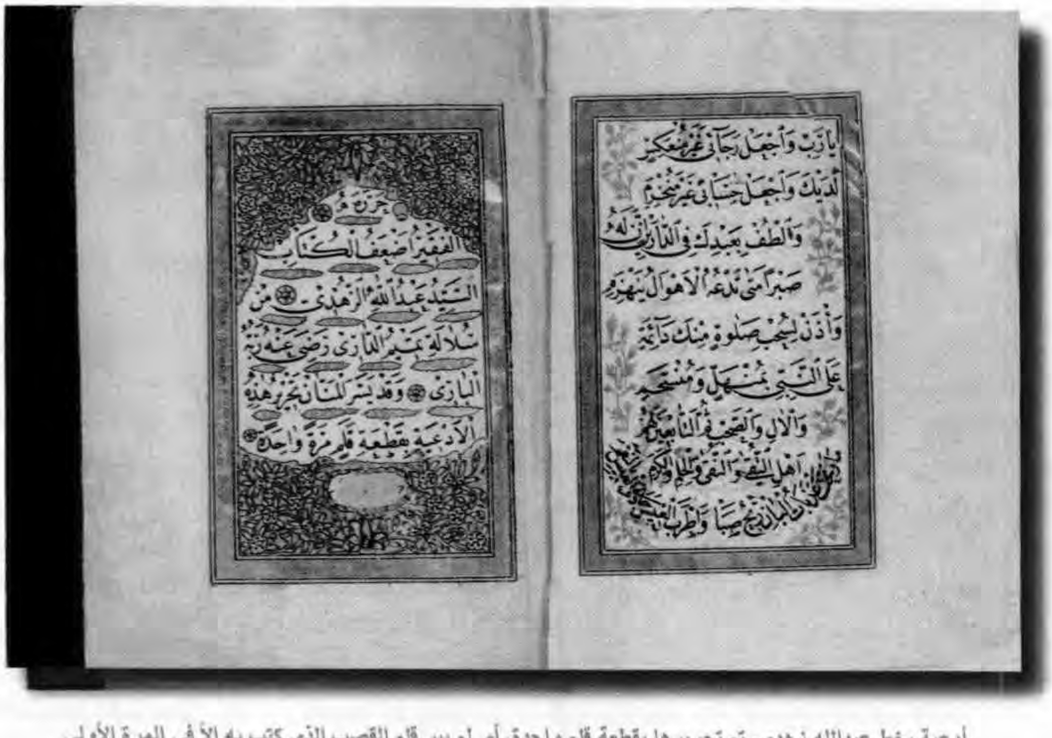
وقد ساعده في ذلك مجموعة من المهندسين والفنانين؛ مثل الخطاط جُومَر زاده محسن أفندي (ت١٣٠٤ هـ)، والمذهِّب الحاج حسين أفندي وتلميذه الحاج أحمد أفندي. بل يقال: إن السلطان عبدالمجيد أرسل فرقة أناشيد إلى المدينة المنورة لإنشاد التواشيح الدينية والمدائح النبوية، وذلك من أجل الترويح عن عبد الله زهدي ومن معه، ولشحذ هممهم وتشجيعهم على إتقان العمل وإتمامه على أكمل وجه وأفضل صورة.

وخلال عمل عبد الله زهدي أفندي وصله نبأ وفاة السلطان عبد المجيد، وجاءه الأمر بعد ذلك من إستانبول بالتوقف هو ومن معه عن العمل في ترميم المسجد النبوي وتزيينه بالخطوط.

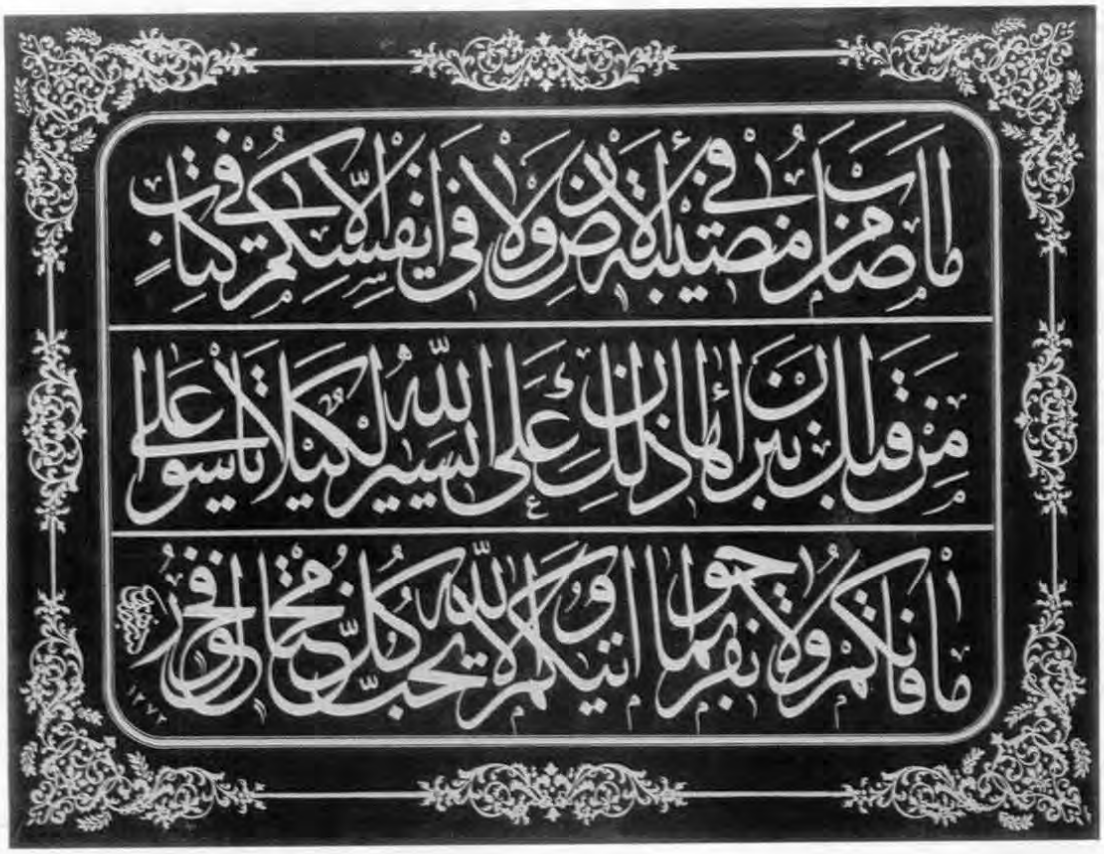
إخفاق

وقد ساء هذا القرار المفاجئ عبد الله زهدي أفندي والمسؤولين عن تعمير المسجد النبوي الشريف ، فطلب المشرف العام على عملية التوسعة والتعمير عرياني زاده أسد أفندي من زهدي أفندي التوجه إلى استانبول لإقناع المسؤولين هناك بالعدول عن قرارهم، والاستمرار في عملية التعمير، وفعلاً سافر زهدي أفندي إلى هناك، ولكن مهمته باءت بالإخفاق، بل إن الأمر تعدى ذلك ، حيث أبلغ بانقطاع معاشه الذي كان قد قرره له السلطان عبد المجيد طوال حياته.

وبعد إخفاق عبد الله زهدي أفندي في مهمته، عاد إلى المدينة المنورة لجمع المال من أهل الخير لاستكمال ما تبقى من عملية التعمير، حيث أكمل هذا الأمر على أحسن وجه، وذلك سنة ١٢٧٧ هـ، فتكون إعادة تعمير المسجد



أدعية بخط عبدالله زهدي، تم تحريرها بقطعة قلم واحدة، أي لم يبر قلم القصب الذي كتب به إلا في المرة الأولى



من خط زهدي أفندي

النبوي قد استغرقت اثني عشر عامًا، وقد بلغت نفقات هذه العمارة ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات المجيدية.

وإن الخطوط التي كتبها عبد الله زهدي أفندي، والتي ما زال أكثرها باقيًا إلى الآن في المسجد النبوي الشريف، لتشهد بروعة هذا الفنان الملهم وعبقريته، وقد ورد في كتاب فن الخط أنها «من حيث طولها تبرز لنا أن عبد الله زهدي هو صاحب أكبر قدر من كتابات [خط] الثلث الجلي، بحيث لا يتعداه خطاط آخر في الدنيا؛ إذ يزيد طول الشريط الكتابي الذي كتبه بالثلث الجلي عن ٢٠٠٠ متر، منها ٢٤٠ مترًا على شكل ثلاثة أسطر فوق جدار القبلة، و١٤٠ مترًا على رقبة القبة».

قمة في الفن والإبداع

ويصف الخطاط محمد طاهر الكردي خطوط عبد الله زهدي التي كتبها داخل المسجد النبوي الشريف بقوله: «وقد وقفنا بأنفسنا على ما كتبه في الحرم المدني حينما زرنا المدينة سنة ١٣٥٧هـ، فقد كتب - رحمه الله تعالى - على الجدار القبلي من أوله إلى آخره على يمين الداخل من باب السلام أربعة أسطر، كلها آيات قرآنية ما عدا السطر الأخير، فهو أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، والكتابة بالبوية [الدهان] وغير بارزة، أي غير محفورة. أما الأسطر الثلاثة الفوقانية، فكتابتها بارزة، فالسطران الأول والثالث كتابتهما محفورة على المرمر ومضروبة باللون الأخضر، وعرض قلمهما نحو سنتمتر واحد، والسطر الثاني بارز محفور على الخشب بمهارة فائقة وصنع دقيق، كما تحققنا ذلك بأنفسنا، ومضروب باللون الأحمر، وعرض قلمه نحو سنتمتر واحد، وقد كتب المذكور اسمه في آخر ما تنتهي الكتابة في الجدار القبلي، وقد كتب المذكور على باب السلام من الخارج أربعة أسطر أيضًا، ففي السطر الأول والثاني آيات قرآنية، وفي السطر الثالث أبيات شعرية، وفي الرابع أسماء سلاطين آل عثمان. والحقيقة أن خط المذكور آية في الجمال وحسن الذوق، رحمه الله وحسَّن مثواه».

وقد لخص هذا القول بلال عبد الوهاب الرفاعي؛ حيث قال في كتابه الخط العربي تاريخه وحاضره ص ١٣٣: «عبد الله زهدي أفندي كاتب الحرم النبوي الشريف، والذي يعدّ بحق قمة في الفن والإبداع كما تشهد آثاره».

وبعد أن أتم عبد الله زهدي أفندي عمله في المسجد النبوي الشريف عاد مرة ثانية إلى إستانبول لاسترداد معاشه الذي قُرِّر له، ولكنه أخفق في مهمته تلك، وبعد ذلك توجه إلى مصر، وكان صيته قد سبقه إلى تلك الديار، فاستقبله حاكم مصر الخديوي

إسماعيل، وأطلق عليه لقب خطاط مصر، وذلك سنة ١٢٨٣هـ، وأوكل إليه مهمة كتابة خطوط المساجد والمدارس ودوائر الدولة، وكذلك خطوط الأوراق النقدية المصرية (البنكنوت)، ثم كلفته الحكومة المصرية كتابةَ الآيات القرآنية وغير ذلك على كسوة الكعبة المشرفة، فأبدع فيها أيما إبداع. ونشير هنا إلى أن كسوة الكعبة كانت تصنع في مصر في ذلك الوقت. ومما أوكل إليه أيضًا : كتابة الخط على سبيل أم عباس بالصليبية بالقاهرة، وكذلك جامع الرفاعي. كما كان يدرس فن الخط العربي في المدرسة الخديوية والمدارس في تلك الديار عامة، وقد تخرج على يديه الكثير من كبار الخطاطين في مصر.

وانفرد أحد المصادر التي ترجمت له - وهو كتاب قاموس الأعلام ٣١٠٨/٤ - بخبر عنه، حيث ذكر أنه كتب بعض الخطوط في الحرم المكي الشريف، ولا ندري صحة ذلك، وإن ثبت، فهل كان ذلك قبل عمله في كتابة المسجد النبوي الشريف، أو بعد الفراغ من ذلك، أو أثناء العمل في إحدى زياراته لمكة المكرمة لأداء الحج أو العمرة، أو أنها ما قام به من كتابة الآيات القرآنية على كسوة الكعبة وهو في مصر بناءً على تكليف الحكومة المصرية كما ذكرنا قريبًا؟ كلها احتمالات واردة، لا تسعفنا المصادر بترجيح واحد منها.

أضف إلى ذلك أن عبد الله زهدي أفندي كان يتكسب بمهنة الخط ، حيث كتب نسخة من المصحف الشريف لأحد الوجهاء واسمه حسين باشا، وذلك مقابل ثلاثين ألف قرش تركي. ويقال: إنه لم يكتب مصحفًا غيره. إلا أنه كتب أكثر من نسخة من سورة الأنعام ومعها بعض سور القرآن والأدعية الشريفة، وقصيدة البردة للبوصيري، وقد طبعت إحدى هذه النسخ في المطابع العثمانية. وبعد حياة حافلة بالعطاء توفي خطاط المسجد النبوي الشريف سنة ١٢٩٦هـ (١٨٧٨م)، ودفن بالقرب من ضريح الإمام الشافعي رحمه الله.



من خط عبدالله زهدي

مات زهدي

وقد رثاه أحد الشعراء مؤرخاً لوفاته على طريقة حساب الجُمَّل(*) بقوله:

مات رب الخطّ والأقلامُ قد
نكست أعلامها حزنًا عليه
وانثنت من حسرة قاماتها
بعد أن كانت تَبَاهَى في يديه
ولهذا قلت في تأريخه
مات زهدي رحمة الله عليه

وعبارة «مات زهدي» تعني الرقم ١٢٩٦ على طريقة حساب الجُمَّل*.

وهذا هو التاريخ المذكور في الكتب التي ترجمت لعبد الله زهدي، ومنها كتاب تراجم الخطاطين الأتراك، إلا أنه ذكر في هذا الكتاب أنه وُجد في السجلات العثمانية ٤٣٠/٢ أن زهدي أفندي توفي في ١٥صفر سنة ١٢٦٨هـ، كما ورد في كتاب قاموس الأعلام من تأليف ش. سامي ٣١٠٨/٤ أن وفاته كانت سنة ١٢٩٣هـ، ولا ريب أن هذين التاريخين فيهما مجانبة للصواب ، بناء على المعطيات التي تقدم ذكرها في هذه المقالة ، والله تعالى أعلم.

الهوامش والمراجع

١- مرآة الحرمين الشريفين، للواء إبراهيم رفعت باشا، ٤٦٥/١ - ٤٦٨ .
٢- قاموس الأعلام، تأليف ش. سامي.
٣- الخط العربي تاريخه وحاضره، لبلال عبد الوهاب الرفاعي، ص١٣٣.
٤ - تاريخ الخط العربي وآدابه، لمحمد طاهر الكردي ، ص٣٨٤-٣٨٥.
٥ - فن الخط، لمصطفى أوغور درمان.
٦ - المسجد النبوي عبر التاريخ ، للدكتور محمد السيد الوكيل، ص ١٥٨-١٦٢.
٧ - المجلة العربية، عدد شعبان ١٤١١هـ.
٨ - مجلة الوعي الإسلامي، العدد ١٨٢، صفر ١٤٠٠ هـ ص٧٦-٧٩.

9 - Istanbul, 1955, maarif Basimevi.
Son Hattatlar Mahmud Kamal Inal
10 - Trkyiye DIYANET Vakfi Islam Insiklopdisi

وقد قام بنقل الترجمة من الكتابين الأخيرين من التركية إلى العربية صديقنا الأستاذ ويسل كمال جلنك، فله الشكر الجزيل على ذلك.

* حساب الجمّل هو طريقة معرفة التاريخ عن طريق الحروف الأبجدية، حيث إن كل حرف من حروف الهجاء يدل على رقم معيّن من الأرقام.

استطلاع

باسكوا
جزيرة الأحلام والتماثيل

غازي حاتم



تعدّ جزيرة باسكوا أو جزيرة رابا نوي الواقعة في قلب المحيط الهادي، والتابعة لتشيلي (أحد بلدان أمريكا الجنوبية)، من الجزر العالمية المشهورة لا بسبب كونها جزيرة جذابة بمناظرها الطبيعية، وشواطئها الجميلة، وجزرها الصغيرة المتناثرة حولها، أو لكونها نتجت من بركان تحت الماء...إلخ، بل بسبب اللغز الذي يجمع سلالاتها، والإصرار الذي يتميز به سكانها من حيث التمسك بتاريخ أجدادهم الذين يجسمونهم بتماثيل ضخمة يضعونها بالقرب من شواطئ الجزيرة.

من يزر تلك الأرض البعيدة يجد كثيراً من المحرضات لكي يصورها، ويناقش أهلها، ويغوص في تاريخهم وعاداتهم ومعتقداتهم، ومن ثم ينقل ما جمعه من معلومات لقرائه في المجلات، أو الصحف، أو الكتب، إن كان صحفياً أو كاتبًا. وهذا ما حدث مع الكاتب جورج مونرو الذي صورً ما رأته عيناه، ونقل ما حصل عليه عن تاريخ شعب هذه الجزيرة الرائعة وعاداتهم، وعن رحلات البحارين العالميين الذين اكتشفوها.

جغرافية الجزيرة

تقع جزيرة باسكوا (رابا نوي) على بعد ٣٧٦٠ كيلو متراً من غرب



جرت العادة أن يقيموا تماثيلهم في مجموعات بالقرب من الشواطئ مع وضوح النظرة الجامدة لكهوف عيونهم

الأراضي التشيلية، وعلى خط الطول ٢٦ َ ١٠٩ ْ وخط عرض ٩ ٢٧ ْ. لها شكل مثلث، وأكبر طول فيها يبلغ ٢٤ كم، وأعلى ارتفاع فيها عن سطح البحر هو ٥٦٠م في منطقة (ماونغا تيريغاكا). تبلغ مساحتها ١٦٠ كيلو متراً مربعاً، ويزيد عدد سكانها على ألفي نسمة، حيث يشكل سكانها الأصليّون المعروفون باسم الماوريس نحو ٦٥٪ من سكان الجزيرة الكلي، ويتكلمون اللغة الأصلية المعروفة لدى الرابانوي، إضافة إلى اللغة الإسبانية لكونهم ينتمون إلى أمريكا اللاتينية التي يتكلم جميع سكانها - عدا البرازيل - اللغة القشتالية (الإسبانية)، ويعرفون بتعاملهم الجيد ومودتهم الصادقة.

وتمتاز الجزيرة من غيرها من البلدان أو الجزر بأن لديها فصلين فقط، فصل الصيف وفصل الشتاء. تسقط فيها الأمطار بنسبة تصل إلى ١٠٠٠مم في القطاعات المنخفضة، وإلى ٢٠٠٠مم في القطاعات المرتفعة، ولا توجد فيها أنهار أو سواقٍ بسبب ضيق مساحتها، والطقس فيها هو المعروف بطقس ما تحت المداري.

التاريخ والتطور

تشير المعلومات المتوافرة عن الجزيرة إلى أن سكانها مهاجرون بولينيزيون أتوا إليها من المحيط الهادي نتيجة حوادث جرت فيه، وكما كان الأمر دارجاً قديماً في الجزر البولينيزية كان السكان يهاجرون في البحر رجالاً ونساءً عند حدوث زيادة في سكان الجزيرة، أو تخسر مجموعة سكانية مع أعدائها، وكانوا يأخذون معهم حيواناتهم ونباتاتهم لكيلا يغيروا نظام حياتهم وثقافتهم عندما يكتشفون أرضاً أخرى يعيشون عليها في زمن لاحق. ولكن جزيرة باسكوا كانت بالنسبة إلى هؤلاء المهاجرين مختلفة كثيراً عما حكاه لهم أجدادهم عن أراضٍ قد استقروا فيها، ولهذا فقد سخّروا عدة أجيال من أبنائهم للتكيف مع الجو العام بشكل كامل. ومع أن القرن الرابع الميلادي هو التاريخ المعترف به عن بداية الحياة في هذه الجزيرة، فإن حضور السكان إليها كان قبل قرن أو أكثر من ذلك. وعلى الرغم من الظروف الصعبة التي مرّوا بها فقد ازداد عددهم، وغطوا أراضي الجزيرة كلها، واضطروا إلى إضافة مبانٍ جديدة على طرف الجزيرة لكي يسكنها المهاجرون الذين يأتون إليها من مناطق أخرى.

أما فيما يتعلق بالمعتقدات فيتميز سكان الجزيرة بعبادة الآلهة الخالقة للكون. وكل شخص منهم يتبع إلهاً له تاريخ في السلالة، وله - كما يعتقدون - قدرة خارقة (فوق العادة)، أو كما يسمونها (مانا) حيث تورّث هذه القوة لغيره، وتتلاشى مع

الأجيال المقبلة، وقد كانت عندما يتوفى تنقل لتمثال يصور هذه القوة الخارقة التي كانت تستقر في الراحل (المتوفَّى) ويُقدَّم يوميًا لعناصر سلالته من خلال إلقاء نظرته عليهم. وحسب ما يشير الكاتب جورج مونرو، فإن هذا، يفسر السبب في أن التماثيل تنظر نحو المنطقة الآهلة بالسكان دون أي تغيير. ومع مرور الزمن تغيرت الثقافة المحلية في الجزيرة، وتميزت بصفات أكثر استقراراً، كسيطرة الكهان، وتقسيم العمل، والحضور الثابت للمانا في كل الاحتفالات والنشاطات التي يقيمونها.

وقد أثبت النموذج الذي ينظم سكان الجزيرة بأنه نموذج ذو فعالية كبيرة خلال عدة قرون، وحققت الثقافة المحلية تطوراً ملحوظًا. وحسب ما يرى عالم الآثار الأمريكي ويليام مولري، المعروف بكونه الباحث الأول في آثار الجزيرة القديمة، فإن السر الذي يلف الجزيرة يوجد في أصل القوة الداخلية التي أنبتت ثقافة غير مُوقفة لسريان الدم الجديد، كما تميزت، علَى الرغم من كونها ثقافة منعزلة، بمحاولتها التأثير والتأثر بالثقافات الأخرى التي تُقدم أفكاراً جديدة ومتطورة ومناسبة لها، ولهذا فقد استفادوا من ثقافات الشعوب التي حضروا إليها، وأخذوا منها.

ومع نجاح نموذجهم في نواحٍ معينة، إلا أنهم أخفقوا في أمور أخرى من دون أن يشعروا، حيث كانوا يعملون على تهديم أنفسهم بأنفسهم من خلال سعيهم لزيادة عدد السكان من غير أن ينتبهوا كثيراً لزيادة الموارد، كما أدى التنافس غير المنظم بين السلالات إلى فقدان التوازن بين السكان والموارد الطبيعية من عدة نواحٍ، وأصبح الغذاء الناتج من الجزيرة غير كافٍ لإعالة جميع سكانها، وتحطم النظام الاجتماعي، وتصارعت السلالات بعضها مع بعض. وفي هذا الظرف المعقد، ابتعد المدافعون عن المانا وعن جاهه وبدؤوا بتحطيم التماثيل التي كانت تحمي أعداءهم، وتطورت فكرة العبادة بعبادة التانغاتا مانو أو الرجل الطير، أي الرجل بجسمه والطائر برأسه، ولم تظهر هذه القوة إلا بعد تحطيم تماثيلهم.



أحد أنواع الطيور التي تقطن جزيرة باسكوا

اكتشاف الجزيرة

وفي هذا الظرف غير القابل للانعكاس، برزت حوادث متعددة أدت إلى اكتشاف الجزيرة من قبل العالم الغربي، ففي عام ١٧٢٢م اكتشفها البحار الهولندي الكبير ياكوب روغيغين وأعطى هذا التاريخ للعالم المسيحي مع تسميتها بجزيرة باسكوا (الفصح) أو أوستير إيلاند، وسجّل عدة ملاحظات منها: أن الأشخاص الذين مثلوا بتماثيل (المواي) كانوا طبيعيين في حياتهم، وكان الناس رشيقين على الرغم من أنهم ذوو بشرة سمراء، فقد كانت لهم ملامح أوربية، وبعد عدة مناوشات وحوادث جرت مع الهولنديين، خرجوا من الجزيرة دون رجعة، ودون مطالبة



صخور شاطئية وجزر صغيرة جداً


صورة عن أحد احتفالاتهم السنوية



موقع جزيرة باسكوا على الخريطة مقابل شواطئ تشيلي


تعدد الأعراق بين سكان الجزيرة

بالسيادة عليها. وبعد ستة وعشرين عاماً، تم اكتشاف الجزيرة من جديد من قبل الكابتن المشهور جيمس كوك. وتؤكد المعلومات الباقية عن تلك الفترة أن بعض الأصنام (المواي) قد هُدمت، وأن الزراعة كانت منظمة ومركزة، وأن عدداً كبيراً من بقايا الناس وُجدت في العراء بلا دفن، وأن أحد قدمائهم المعروف باسم الأريكي كان مُحافظاً عليه تحت حماية دائمة. وبعد مضي اثنين وعشرين عاماً على ذلك قام فيريٍ من البيرو باكتشاف الجزيرة بعد حملة بحرية قام بها، وأطلق عليها القائد (فيلبي غونثالث وأيدوا) اسم جزيرة سان كارلوس ملك إسبانيا تشريفاً لها، بعد أن سيطر عليها سيطرة تامة.

وبعد جملة زيارات قام بها البحار الفرنسي لابيروس كان أولها عام ١٧٩٢م، رأى نتيجتها أن تغيراً كبيراً طرأ على القيم، وأن تطوراً كبيراً أصاب الثقافة المحلية، وقد دامت هذه العملية حتى حلول الكارثة على الجزيرة التي بدأت في ١٨٦١م عندما حضر كثير من البيرويين، وأخذوا معهم كثيرا من سكان الجزيرة لكي يسخروهم بأعمال صعبة ورخيصة، ومن بين الذين تم أخذهم كرهائن الأركي هينوا وخليفته وبعض القسيسين الذين كانوا يحاولون بأعمالهم متابعة نشاطات الثقافة المحلية. وقد أدى هذا الوضع إلى دخول الجزيرة في فوضى عميقة ووضع يرثى له. وبعد مضي وقت طويل، تمت إعادة بعض سكان الجزيرة الذين بقوا على قيد الحياة، وجلبوا معهم مرض الجدري الذي أنهى حياة الكثيرين من سكان الجزيرة، ونتيجة مباشرة لمعرفة العالم بهذه الفضيحة، بدأت مرحلة المبشرين الكاثوليك الذين بدؤوا بالتبشير بالإنجيل، وقدموا المساعدات المادية، والتعازي للذين بقوا على قيد الحياة من ذوي الحظ التعس.

وبعد رحلات متتالية قام بها الكابتن بوليكابيو تورو من البحرية التشيلية، سيطر في واحدة منها على الجزيرة باسم الحكومة التشيلية، وبعد مضي أربعة أعوام على ذلك، حدثت فجأة ثورة عام



بيوت تقليدية

١٨٩٢م، وبقيت الجزيرة مهجورة حتى العقد الأول من هذا القرن، ولم يطرأ عليها تغيرات تُذكر سوى تزايد الإهمال البيئي، وتحوّل الجزيرة من سيئ إلى أسوأ، حتى أصبحت من جديد جزيرة صغيرة مهملة من العالم، لا يصل إليها أحد إلا نادراً.

بداية السياحة

ومنذ بداية الستينيات من القرن الحالي، بدأ عصر السياحة في هذه الجزيرة، وأخذت تتبوأ مرحلة بارزة من تاريخها، حيث قام سكانها، إضافة إلى دعم الحكومة المركزية في التشيلي بحماية الناس وتأمين مستوى معيشة جيد، وأخذوا على عاتقهم حماية الجزيرة التي آوت ثقافة عجيبة. ولوحظ اهتمام الناس وموازنتهم لأنفسهم مع قدمائهم الذين رأوا أنهم بحاجة لهوية خاصة بهم تجعل من جزيرتهم جزيرة مستقلة، وربما ساعدهم هذا على إعادة الالتقاء مع جذورهم القديمة وإعادة الثقة بأنفسهم لكونهم أحفاداً لرجال استطاعوا أن يعيشوا حضارة عريقة بإمكانات متواضعة جداً، مستغلين علاقتهم القوية مع البحر الذي يحيط بهم، والذي يعد بالنسبة إلى سكان الجزيرة الأصليين كتاباً مفتوحاً لمن يريد السباحة والتمتع بمياهه، وبأشعة الشمس بجواره، أو لمن يريد البحث في أسراره واستخراج بعض غذائه منه كالأسماك وبعض الأصناف البحرية الأخرى، بله ما يحضره لهم من مواد أخرى عبر أمواجه العالية والهادرة من حولهم.

ويوماً بعد آخر، تزداد معرفة العالم، وخصوصاً المهتمين بالتراث والحضارة والسياحة بهذه الجزيرة، وتزداد نسبة السياح الراغبين في الأجواء الطبيعية والأثرية، وتكثر اهتمامات دور النشر والمجلات والعاملين في المجال السينمائي بها، حيث تُصورّ الأفلام السينمائية وتُعدُّ الاستطلاعات المصورة وتصدر الكتب والروايات لكي يعرف العالم ما في هذه الجزيرة وإصرار شعبها على إعادة تشييد تماثيلهم التي كانوا قد نحتوها بين القرنين العاشر والسادس عشر، والتي هُدمت من قبل السلالات المتناحرة أو بسب عوامل البيئة، يساعدهم في ذلك بعض الجمعيات التشيلية أو العالمية المهتمة بالحضارات القديمة وذات التقنيات العالية في مجال تصنيع الرافعات الكبيرة. ومن يتابع أخبار هذه الجزيرة يُلاحظ تركيز الدراسات على رغبة سكان الجزيرة في تحويل جزيرتهم من مركز اللاشيء كما يسميها بعضهم، إلى مركز ذي شهرة عالمية كبيرة يشعر فيه السائح بأن العودة ليست سراً، معتمدين في ذلك على تقديم موروثهم التاريخي والحياتي المشجع للسياحة والبحث.

التجّار في شعر الحرب العالمية الثانية

أحمد عبدالرؤوف جبر

حظيت الحرب العالمية الثانية باهتمام عدد من الشعراء العرب الذين كسوا أحداثها ومجرياتها حللاً أدبية مختلفة الأشكال والألوان، في الوقت الذي لم تعد فيه تلك الحرب عليهم بشقٍ تمرة، فقد سارع بعضهم إلى الإنذار بوقوع الحرب قبل اشتعال نيرانها، ووصف الحربَ وأحداثها وكأنه الجوال الذي صال وجال في جنباتها براً وبحراً وجواً، واصفاً الحرب والغارات، وحاكياً بلسان الناس آلام المجاعة والمرض والتشرد الذي عانته البشرية آنذاك.

ولما كانت الحروب تلف في ثناياها أعاصير من الفقر والعوز، فقد عمد الشعراء إلى الحديث عن ويلاتها وفظائعها، وأعلنوا مواقفهم تجاهها، وتجاه أطرافها المتصارعة، بل تعدوا ذلك إلى تلك الفئة التي تعيش بين ظهرانيهم من أبناء جلدتهم الذين راحوا يغالون في الأثمان، ويحتكرون السلع، والناس في أمس الحاجة إليها، مما أدى إلى تسابق الشعراء في وصف التجار الذين يحلّلون الحرام، وينتهزون الفرص، حتى وصل الحال ببعضهم إلى نعت التجار بالخيانة، والحث على محاربتهم وقتالهم قبل الأعداء، وفي هذه الدراسة ألقينا الضوء على هذا الجانب، واستجلبنا مواقف الشعراء تجاه التجار، ورغيف الخبز، وضعف القيمة الشرائية لأوراق النقد آنذاك.

موقف متجدد

لم يكن موقف الشعراء من تجار الحروب إبان الحرب العالمية الثانية بالموقف الجديد في الأدب العربي، فقد كان للشعراء العرب في الحرب العالمية الأولى الموقف نفسه من التجار الذين ينتهزون الحروب خدمةً لمصالحهم، بل نجد في أدبنا القديم موقفاً مماثلاً من تجار الحروب إبان الحروب الصليبية، ذكره عبداللطيف البغدادي خلال رحلته إلى مصر بقوله: «ومما يقضي به العجب أن جماعة من الذين ما زالوا مجدودين، سعدوا في دنياهم هذه السنة، فمنهم



عبد الحميد الديب

من أثرى بسبب متجره في القمح، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل إليه بالإرث، ومنهم من حسنت حاله لا

بسبب معروف، فانغمس هؤلاء الأغنياء في الشهوات، وعكفوا على اللذات، وكان المستخدمون يكلفون بجمع الغلال والمواشي للجيش، فيسرقون من ذلك شيئًا كثيرًا»(١)، قال البوصيري(٢):

فكم سرقوا الغلال وما عرفنا
بهم فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا
ولا شربوا خمور الأندرينا
ولا ربوا من المردان مردا
كأغصان يملن وينثنينا



نقولا فياض

وقد طلعت لبعضهم ذقونٌ
ولكن بعد ما حلقوا ذقونا
تنسّك معشر منهم وعدوا
من الزهّاد والمتورعينا
وقيل لهم دعاءٌ مستجاب
وقد ملؤوا من السُحْت البطونا

أنياب ومخالب

لقد كان للضائقة الاقتصادية التي صاحبت الحربين العالميتين، وما ذاقه العرب من ألوان العذاب، والفقر، والمرض، والجوع، أثره القوي في نفوس الشعراء، دفعهم إلى اتخاذ مواقف من تلك الحرب، ومن أولئك التجار الذين احتكروا السلع، وغالوا في الأسعار من أجل الربح، مهما كانت الوسائل المتبعة، لذلك فقد صب الشعراء العرب جام غضبهم وهجائهم على أثرياء الحرب فوصفوهم بالوحوش المفترسة ذات الأنياب والمخالب، ووضع بعضهم شخصية التاجر والثري موضع الدعابة والتندّر، فهذا الشاعر محمد مصطفى الماحي يقول في أبيات له بعنوان «ثري الحرب»:

يا ثريّ الحرب البغيضة مهلاً
بعض هذا فما وُلدت أميرا!!
لو تحسست ما يصيبُك من غم
زِ تمنيت أن تعود فقيرا
أنت أشقيتنا بما بتّ تقنى
وأحلت الحياة فينا سعيرا
فتمتع ما شئتَ وارتع فإنا
سنرى فيك عبرةً ونذيرا

رسالة من شاعر

والتاجر عند الشاعر محمد الأسمر يجب أن يكون قنوعًا، يقنع بالربح القليل، ويخشى الله وعقابه، مطبقًا القانون، أمينًا في سجلات حساباته، لا يتمنى الحرب، ولا ينتهز الفرص والشدائد، ولا يحتكر السلع فيهربها ويخفيها عن الناس، فعندما اشتد الغلاء إبان الحرب العالمية الثانية، واشتد جشع التجار نظم محمد الأسمر قصيدة أهداها إلى صديقه التاجر السيد بك جلال يقول فيها:(٤)

بني وطني دعوتكمُ فكونوا
إذا الداعي أهابَ بكم رجالا
عليكم بالقناعة فهي كنزٌ
ولا تتجاوزوا الربحَ الحلالا
فليس بتاجرٍ من ليس يخشى
من الله العقابَ أو النكالا
وليس بتاجرٍ نهم تراه
يود لو انه التهمَ الجبالا
وليس بتاجرٍ لصٍ جريءٍ
على القانون يحتالُ احتيالا
دفاتره بها الأرقام زورًا
فلست ترى بها إلا الضلالا
وليس بتاجرٍ باغٍ تمنى
بقاءَ الحربِ أعوامًا طوالا
إذا ما شدةٌ حلّت رآها
له فرجًا وصال بها وجالا
يهرّبُ أو يخبّئُ مالديه
وإن تسألهُ أنكر أو تغالى
فيظمئُ أمةً لم تجن ذنبًا
ليشربَ وحدَه الماءَ الزّلالا

ثم يوجه الشاعر خطابه إلى أولئك الذين يبيعون ضمائرهم رجاء الكسب والربح الكثير قائلاً: إنهم لن يلاقوا جزاء ما عملوا إلا النكال والعذاب، وإن المال يذهب ويأتي، فكم من مال خلف لصاحبه الداء العضال فلم يشفه من مرضه، يقول:

ومن يبع الضمير رجاءَ كَسبٍ
عداه الكسبُ، واكتسب النكالا
وكم من ثروة جاءتْ وراحتْ
ومالٍ أورثَ الداءَ العضالا
أرتنا هذه الأعوامُ قومًا
همُ نصبوا متاجرهم حِبالا
وهمْ ركبوا الغلاءَ وجرّ منهُ
جميعُ الناس أعباءً ثقالا!!
فلا ربحتْ تجارتُهم، وزالوا
عن المال الذي جمعوا وزالا

أمثال قارون

لقد أماطت الحرب اللثام عن وجوه الكثير من التجار، وأذابت بنارها الثلوج، ليظهر ما كانت تخفيه تحتها من جشع وعبودية للمال، وتفاخر به، وتنافس في جمعه واكتنازه، كما فعل قارون صاحب القصة المعروفة في القرآن الكريم، وفي ذلك يقول محمد الأسمر:(٥)

دراهمُ الحرب أبدتْ عن خلائقنا
فلاحَ ما كان يخفي كلّ مكتسبِ
سما إليّ وقوس المال في يده
مَنْ يرمْ مثلي يتعبْ أيّما تعبِ
فقلْ لطالب ضيمي لا ترم شططًا
هيهات هيهات قد أبعدت في الطلب
لو كنت «قارون» لم تسطع لنا عنتًا
الجاهُ للعلم، ليسَ الجاه للنشبِ
منْ يملك المالَ فليجعله سلمَه
إلى الوئام، ولا يجعله للشّغب

وثري الحرب عند الشاعر محمود

عماد شعار للحرب، تمضي هي ويبقى هو حتى وإن صمتت مدافعها، ورفرفت رايات السلام، فهو يعمل على إطلاق الأعيرة النارية في كل آونة حتى يفجر بركان الحرب، ويبعثه من جديد مهيئًا الظروف لنصب شباكه وشراكه، ليعود بالصيد الوافر.

يقول في قصيدته «غني الحرب»:(٦)

غنّي الحرب تمضي الحرب يومًا
وأنت بنا تظل لها شعارا
وإن صمتتْ مدافعها جميعًا
ضربت بكل آونة عيارا
وزدت قضية السفهاء دعمًا
بكسبٍ كلّف الدنيا خسارا
يرى الدينار في كف نضارًا
وفي كف يرى الدينار نارا

تساوي الغلاء والوغى

ويذهب الشاعر عبدالحميد الديب الذي عاش حياة فقيرة بائسة أبعد من ذلك، فقد جعل من التجار أعداءً تجب محاربتهم قبل العدو الأجنبي، بل إنه لا يفرق بين طعم الغلاء وقسوته، والاصطلاء بالنار في ساحات الوغى، ولا يفرق بين الموت بسبب قسوة التجار، وشدة الغلاء، أو بسبب القتل، اللهم إن القاتل في ساحات الحروب يتسلل ليلاً للوصول إلى هدفه، بينما يقتل التاجر الجشع الناس جهارًا ونهارًا، لهذا فهو عدو وجبت محاربته، وهو خائن وصم نفسه بالعار يقول:(٧)

قبْل الأعادي حاربوا التّجارا
لا تتركونا للغلاء أسارى
سيان: مَنْ طعم الغلاء بعيشه
ومن اصطلى بين القتال النارا
والقاتلان اثنان: عادٍ في الدُّجى
أو تاجرٌ قتل النفوس نهارا
ومن اغتنى من جوع تَعِبٍ جاهدٍ
وَصَمَ الخيانة نفسه والعارا
من ذا نحارب إنها لمصيبة
أخصومنا الحمقى؟ أم التجارا؟!

شبعوا وجعنا!

أما الشاعر علي الجندي فقد عبر عن موقفه تجاه التجار والتجارة في زمن الحرب في قصيدته التي نظمها بعنوان «مصاصو الدماء»(٨).

وقدم لها بالكلمات الآتية: «أرى بعيني كل يوم قوت أبنائي يسرق سرقة قانونية، ولا أستطيع أن أحرك ساكنًا!... ليس لهؤلاء المولين علينا من فضل إلا أنهم جمعوا الملايين من عرق المساكين وعلى حساب بطونهم الخاوية!»، يقول:

قسا تجارنا حتى حسبنا
قلوبهمُ حديدًا، أو حجارهْ
إذا قلنا لهم: عطفًا علينا
فإنا إخوةَ لعنوا التجارهْ
وصاحوا: الحرب! ويح الحرب إنا
جنينا دونكم منها الخسارهْ
وما صدقوا! فإن الحرب فاءت
عليهم بالنضار، وبالنضارهْ
عذيري منهمُ! شبعوا وجعنا
وبعض الحلو يدرك بالمرارهْ
إذا نزل الوباء بأرض قوم
فزف إلى «الحنوطي» البشارهْ
عباد الله خافوا الله فينا
أنشكو الجوع؟ أم نشكو القذارهْ

ولم تقتصر قصائد الشعراء على ذكر تجار الحرب، والأثرياء الذين يستفيدون منها، ويوظفون أحداثها، وما يصاحبها من أزمات لتحقيق أهدافهم، فقد تحدثوا عن الغلاء وارتفاع الأسعار بسبب قلة السلع، وضعف القيمة الشرائية لأوراق النقد، كما تناولوا ظاهرة الغش في سياق قصائدهم التي شكوا فيها سوء الحال، وذكر كثير من أصناف الطعام بشكل من الدعابة يقول محمد الأسمر مداعبًا صديقه عزة أبا عاصي»:(٩)

ضاقت الناس بالمعيشة ذرعًا
فإلامَ الغلاء في الأثمان؟
كلّ شيء غلا فليس رخيصًا
في الورى كلّه سوى الإنسان
قيل شهرُ الصيام آتٍ فقلنا
نحنُ شعبٌ يصومُ في كل آن!!
عزت اليوم أقة العجّالي
«والبتلو» وعزّ رطلُ الضاني
يا «أبا العاص» ياصديقي، قلْ لي
أين ما كانَ أينَ أين (الصواني)
لهف نفسي يا ألف لهفٍ عليها
وهي محمولة من الأفران
حدثونا عنها فإنّا نسينا
ونسينا الديوكَ كالخرفان
حاورتني الأطفال يومًا فقالت
أين منا (كنافة الكنفاني)


شبلي الملاط

قلت كتبي لديكمُ فارهنوها
وارهنوا جُبتي مع القفطان
كلّ شيء غلا وعزّ على شا
ريه حتى (قلقاسنا الشنواني)

فساد وغلاء

أما الشاعر نقولا فياض، فيتحدث عن الفساد والغلاء الذي ساد لبنان في فترة الحرب، وعن الطمع والمحاباة، وما يلاقيه الفقراء من تشهير وذل، بينما يبقى الذين يسرقون الألوف أعزاء مكرمين وهذا يذكرنا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أراد أسامة بن زيد التشفع للمرأة المخزومية التي سرقت، وأراد صلوات

الله وسلامه عليه أن يقيم عليها الحد يقول:(١٠)

ودهانا على الفساد غلاءٌ
ملأ الخافقين منه العويلُ
قد شقينا به وذبنا وحرنا
وصبرنا، ما كلّ صبر جميلُ
عجبًا أن نكون في بلد الخيـ
ر وهذا الغلاء فيه نزيلُ
نكبة الشرق أن فينا خنوعًا
فنحابي من أجله ونميلُ
يسرقُ الجائعُ الرغيف فيُمنى
بضروب التشهير وهو ذليلُ
والذي يسرق الألوف عزيزٌ
وله دون غيره التبجيلُ

وفي قصيدته «كان الأرز في نسب



علي الجندي

أباها»(١١) يتحدث شبلي الملاط عن العوز والبخل، وعن الأثرياء الأنانيين الذين يشيدون القصور على حساب الفقراء وشقائهم، والمحتاجين وحرمانهم بقوله:

سألت شتورة عمّا شجاها
وأية وحشة غمرت حماها
وذو عوز يغالبُه طواه
وعائزة يُغالبها طواها
أعانهما على حرب ضروس
تدور على بني الدنيا رحاها
وعلمَ كلّ دار ذات وقر
بأن البخل عارٌ في غناها
ورقّ لأمة بُليت بخلق
يشيدون القصورَ على شقاها
أنانيون ما اصطحبوا ضميرًا
ولا شمم النفوس ولا سخاها
ومن حجبوا رغيفًا عن فقيرٍ
تبرأ منهم عيسى وطه

مغرم لا مغنم

ويصور لنا الشاعر فؤاد الخطيب أولئك الذين يلهثون وراء جمع الأموال بالسكارى الذين تمثل الثروة والنعم لهم خمرة يسكرون بها، فهي حلمهم وهاجسهم الذي لا يفارقهم ليلاً أو نهارًا يقول:(١٢)

لك الله من ربح عددناه مغنمًا
فكان لنا عند الحقيقة مغرما
لهونا به فاستدرج الناسُ أمرنا
إليه وظنّوا المالَ دام وديّما
ننام وأحلامٌ لنا ذهبيّة
ونصحو وآمالٌ لنا تبلغ السما
كذلك تيار الزمان جرى بنا
ونحن سكارى ثروة وتنعما
إلى أن طوتنا لجة فوق لجةٍ
فأبدتْ لنا في غورها ما تكتما
وخلنا بأيدينا من الربح «أسهما»
فكانت نصالاً في القلوب وأسهما
وكان رنين المال يثلجُ صدرنا
ولكنه أمسى أنينا مذمما

ويعرض لنا عبدالحميد الديب فضائح التموين على عهد إحدى الوزارات، ويندد بذلك الأسلوب الرخيص المتمثل في الاتجار بأقوات الشعب المكدود مقتنيًا أسلوب ابن المقفع في كليلة ودمنة، يقول:(١٣)

في غابة الوحش ثارت
عواصفٌ من جهنم
الأرض منها استجارتْ
والصخر منها تكلم
وما شدا الطير فيها
إلا النعيب المنغّم
قال الوحوش «لذئب»
مُرَ العُواء تقدمْ
فالحاكم اليوم ليث
وصاحب الليث مكرم
كم قبل حكمك شمنا
فيك المسيح بن مريم
يا مستغاث جياع
أكلتَ شعبك فارحم

الفقر القاتل

وقد ميّز بعض الشعراء بين شكوى الغني وشكوى الفقير، وكأن الشكوى والألم والمعاناة تختلف في وقعها من حال إلى حال، فهذا الشاعر محمود عماد يقول في أبيات له بعنوان «الفقر القاتل»:(١٤)

شكا الغني فقالوا لا دواء له
إلا بقطر بعيد، من ييممه؟
والوقت حرب وموج البحر مشتعل
والبر رخصة من يمشي به دمه
فقام بالأمر طيار على عجل
وجاء بالبرء ملفوفًا يقدمه
فقلت هل لو تشكاها الفقير أما
كانوا يقولون عنه: الله يرحمه

أما عن ضعف القيمة الشرائية للجنيه، فيقول علي الجندي:(١٥)

أضحى الجنيه على جلالة قدره
في سوقنا «قرشا» لدى النقاد

ويقول محمد الأسمر في أبيات له بعنوان «الجنيه الورق»:(١٦)

أمسى كعشرين قرشًا
إن لا يكنها تكنه
فلا غنىً لك فيه
ولا غنىً لك عنه
يا ربنا فأعنّا
على الغلا وأعنه

وقد نظم الشاعر أبياتًا أخرى بعنوان «الرغيف الخيف»(١٧)، حيث تعودت الجماهير المصرية أن تتناوله من دقيق القمح، ولكنهم في أيام الحرب خلطوا دقيق القمح بغيره من الحبوب، وكثيرًا ما كان ذلك الخلط مشوبًا بالطين والرمل، فضلاً عن صغر حجم الرغيف، وقلة وزنه، يقول:

لا رعى الله وجهه من رغيفٍ
هو بين الوجوه وجهُ الكفيف
لا لِفَتَ يُرجى ولا لسواهُ
مِنْ شهي الشواء والروزبيف
حار فيه العلاج بالبارد الرّطـ
ـب إدامًا والساخن الحرّيف
مَنْ معيني من أكل (آكليه)
ومُجبري من الرّغيف المخيف؟
وهم أم خيال ؟

وتثير اللهفة المرسومة على وجوه الفقراء المحتاجين إلى الرغيف ثائرة عبدالحميد الديب فينتفض انتفاضة شاعرية تجعل من لهفتهم وجزعهم صورة حية بقوله:(١٨)

صَغُر الرغيف كأنما هو قطعة
من قلب تاجره وجلد البائع
هل صارَ وهمًا.. أم خيالاً؟ إنه
قد عادَ غيرَ مؤمَّل أو نافع
لو كان سمًا ما تحَرَّم آكلاً
أو كان ذا أثر بوجع البائع!!
يا للرغيف، ويا لهول ضموره
قد صارَ أمنية لبطن الشابع!
«جوعوا تصحوا» واذكروها حكمة
فالمجد لم يُكتب لغير الجائع!

لقد صور الشاعر الرغيف وكأنه قطعة من قلب التاجر الذي يتبع كل الوسائل لتحقيق الربح، وإن كان ذلك على حساب الآخرين ومعاناتهم، لقد كان الرغيف كالوهم والخيال الذي لا يسمن ولا يسد جوعًا لصغر حجمه، وكأن التاجر يقطعه من جلده، ولا يوفيه حقه في الميزان والنضج، وذلك ما يجعله كوليد في الشهر السابع غير مكتمل النمو.

أما الشاعر علي الجندي فله أبيات بعنوان «الرغيف الحبيب»(١٩) يقول فيها:

يا حبيبي ولست أنطقُ زوراً
حين أدعوك في الورى بحبيبي
أنت أحلى في العين من صفحة البد
ر ومن طلعة الغزال الرّبيب
كيفَ فارقتني؟ وليس ودادي
- إن تأملت - بالوداد المُريب
ما ذنوبي إليك؟ قل ليَ حتى
تمحوَ التوبةُ النصوحُ ذنوبي

وكان الشاعر قد نظم هذه الأبيات حين فقد الرغيف في القاهرة، عاصمة الوادي الخصيب في بعض أيام الحرب العالمية الثانية، فكان الأغنياء يأكلون الحلوى والفطائر، وأما الفقراء فقد طووا بطونهم على الجوع حتى أذن الله لهم بالفرج.

وهكذا فقد سلك الشعراء أساليب متعددة في التعبير عن مواقفهم تجاه تجار الحروب، وتجاه الأساليب التي يتبعونها في سبيل حصولهم على الأموال، عن طريق الدعوة إلى الحرب أو بإثارتها، وعن طريق الغش، وإخفاء السلع وتهريبها، لقد أصبحت متاجرهم شبيهة بالشّباك والشّراك التي يعدها الصيادون للحصول على صيد وافر بغض النظر عن الفريسة وحالها.

وقد تناول الشعراء هذه المواضيع في أبيات مستقلة أفردت لها، أو من خلال قصائدهم التي عالجت موضوع الحرب ومركبها الذي يدخل في ذكر ويلاتها، وأحداثها، وما يواكبها من ضوائق اقتصادية بشكل عام، حيث توظف الأموال والإمكانات من قبل الأطراف المتصارعة لمصلحة الحرب وتحقيق الفوز، وإن كان ذلك على حساب الشعوب.

لقد كانت مواقف الشعراء العرب - إبان الحرب العالمية الثانية - تجاه التجار متناغمة ومتناسقة مع سوء الأحوال التي عاناها الناس، ومتناسبة مع درجة الحرمان التي عانوها، فشتان بين معاناة الشاعر الفقير البائس ومعاناة الشاعر المرفه المتنعم الذي يجوب في تلك الفترة شواطئ أوروبا وعواصمها، وبين من يصف الفقر والحرمان ويده تمتد إلى ما لذ وطاب من الأطعمة والحلوى وآخر يتلوى جوعاً وفقراً ومرضاً.

المراجع:

١- محمد سيد كيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر وبلاد الشام، (دارف) المحدودة، لندن، ١٩٨٥م، ص٥٣.
٢- المصدر السابق.
٣- محمد مصطفى الماحي، الديوان، دار الفكر العربي، مطبعة الكيلاني، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٣٢٠.
٤- محمد الأسمر، الديوان، دار إحياء الكتاب العربي، شركة فن الطباعة، مصر، د.ب ص ١٦٣
٥- المصدر السابق ص ١٥٩.
٦- محمود عماد، الديوان، مطبعة شبر الفنية، مصر، ١٩٤٩م، ص٣٤٤.
٧- عبدالرحمن عثمان، عبدالحميد الديب حياته وفنه، دار المعارف، مصر ١٩٦٧م، ص ٢٧٣.
٨- علي الجندي، أغاريد السحر، دار الفكر العربي، مطبعة النهضة، الفجالة، مصر د.ب، ص ٢٦٧.
٩- محمد الأسمر، الديوان، ص١٦٤.
١٠- نقولا فياض، رفيف الأقحوان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٠م، ص١٤٣.
١١- شبلي الملاط، الديوان، دار الطباعة والنشر اللبنانية، بيروت، ١٩٥٢م، ج٢، ص٤٢٧.
١٢- فؤاد الخطيب، الديوان، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩م، ص٧٧.
١٣- عبدالرحمن عثمان، مرجع سبق ذكره، ص١٠٠
١٤- محمود عماد، الديوان، ص٣٣٣.
١٥- علي الجندي، الديوان، ص٢٦٣.
١٦- محمد الأسمر، الديوان، ص ١٦٥.
١٧- المصدر السابق، ص١٦٦.
١٨- عبدالرحمن عثمان، مرجع سبق ذكره، ص٢٨.
١٩- علي الجندي، أغاريد السحر، ص٢٧٠.

التعليم الحاسوبي غاية ووسيلة

عبدالرحمن بن عبدالله الجمهور

يمر المجتمع العربي في الفترة الأخيرة، كغيره من المجتمعات العالمية، بمرحلةٍ من التغير الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والتقاني (التكنولوجي). ويعد هذا التغيير رد فعل مناسبًا للمتغيرات الخارجية التي باتت سمة من سمات العصر الحديث، بحيث نلمس ذلك بجلاء في ميدان التربية والتعليم. ونتيجة لهذا التغير الطبيعي أضحت الحاجة ماسة إلى تجديدات تربوية في مراحل التعليم وأنواعه كافة.

ولأن من سمات التربية أنها تتطور وتستجيب للتطورات المتجددة، فقد تغيرت وظيفة المتعلم مع بدء القرن العشرين داخل المحيط التعليمي، فبدلاً من التلقي والحفظ أصبح المتعلم المحور الرئيس في العملية التعليمية، ويدور عليه كثير من أنماط التعلم، فأصبح موضع الاهتمام والعناية، وروعي فيه تكامل جوانب النمو المتعددة كالجانب العقلي والنفسي والروحي والاجتماعي والصحي والجسمي والانفعالي والمهارات التعليمية الأخرى المتعددة، وأعطي الفرصة ليعلم ذاته بذاته.

توظيف التقنية الحديثة في التعليم

وإدراكًا للدور الفاعل الذي يقوم به قطاع التعليم في تنمية المجتمع وتطويره، رصدت الميزانيات الضخمة، وبذلت مليارات الدولارات على القطاع التعليمي في جوانبه كافة، لأن ميادين التربية والتعليم في المجتمعات قاطبة تمثل حجر الأساس في تقدمها ورقيها، لسمو مهمتها التي تتمثل في الاهتمام بالإنسان من مختلف جوانبه العقلية والروحية والعاطفية والسلوكية والاجتماعية، وتطويره بما يحقق أهدافه الخاصة، وأهداف مجتمعه العليا(١).

ومن جوانب هذا الإدراك استثمار التربويين ما توصلت إليه التقنية الحديثة في مجال التدريس ووسائل الشرح المختلفة، ولعل المتتبع لحركة التعليم في الدول الخليجية (بشكل خاص) يلحظ التقدم الهائل الذي شهده كثير من المدارس، والتميز التربوي والتعليمي الذي أسهم في العناية بالمتعلم بصفته قطبًا رئيسًا في العملية التعليمية، وتسخير كم كبير من الوسائل التعليمية المتميزة في المجال التعليمي، كل هذا من أجل تخريج أجيال متعلمة ومستنيرة بأفضل العلوم.

وجدير بالذكر أن المسؤولين في وزارات التربية والتعليم يدركون أهمية التطور في استخدام الوسائل التعليمية لما تمتاز به من دور رئيس في العملية التعليمية داخل الفصل الدراسي؛ لذلك أصدرت التوصيات تلو التوصيات بضرورة التطور في مجال استقطاب الوسائل التعليمية وتسخيرها في تعليم أبنائنا، ولا سيما



طلبة أمام الحاسوب

المجالات الحيوية كتعلم اللغات. فقد جاء في دراسة أعدّها مركز التطوير التربوي بوزارة المعارف السعودية أن التعليم يواجه تحديات فرضتها طبيعة الواقع الحالي، وتوقعات النمو المستقبلية التي تتطلب الاستعداد العام لمواجهتها، ومن هذه التحديات قضية التقنية التي تتطور يوماً، بعد يوم، وهذه قضية مهمة جداً لأن تطورها سريع جداً، فهي «ثورة داخل ثورة» ولا سيما ما يتعلق بالحاسوب ودوره في التعليم، يقول الدكتور العواد: «ليس من المبالغة القول: إن الكتاب المدرسي سيكون كتاباً إلكترونياً في المستقبل، ولا ريب في أن الثورة التقنية والانفجار المعلوماتي سيصبحان آفاقا يصعب رصدها».

وقد برز دور الحاسوب في العملية التعليمية، فنجد على سبيل المثال أن التطوير الكمي والنوعي في سلك التعليم العام في الولايات المتحدة الأمريكية شمل جميع الأقطاب الرئيسة في العملية التعليمية، ودخل الحاسب بقوة في مجال نقل المعلومة، وأصبح يعتمد عليه بشكل كبير، ولا سيما التعليم عن بعد أو التعليم المبرمج. وبرز دور الشبكة العنكبوتية بشكل أوضح في التعليم، فقد اتخذت هذه الشبكة محوراً رئيساً في العملية التعليمية.

ترشيد غير محمود

إن التعليم الحاسوبي أمر لا بد منه، وليس من العدل أن نسعى إلى تطوير كل ما حولنا من أنظمة ومجالات، وعندما نأتي إلى مصانع العقول نقف مكتوفي الأيدي، بل نحاول في كثير من الأحيان استخدام سياسة ربط الأحزمة عند إعداد ميزانيات التعليم، ونحاول جاهدين الترشيد في المصروفات بإلغاء بنود التطوير أو تقليصها!! وهذا الترشيد «غير المحمود» يشبه إلى حد كبير التقليل من مصروفات غرف عمليات الولادة، فبدلاً من شراء أجهزة متطورة نكتفي بالمعدات الأولية، ونعتمد على أجهزة الإسعافات الأولية. وهذا الأمر لا يستقيم معه حال، ولا يمكن لمن يبني العقول أن يعتمد على أساس هش، بل لابد من اعتماد الطرائق الحديثة والتقنية الفنية اللازمة، فكما أن أمر الولادة أمر ضروري جدًا لابد للمجتمعات منه، والتفريط في معالجته يحدث خللا كبيراً في المجتمع، فكذلك يجب علينا الاهتمام بتطوير التعليم أفراداً ومؤسسات. ومن هذا المنطلق أقول: إن التعليم الحاسوبي أمر لابد منه للمجتمعات النامية والمتطورة، ولابد أن يدخل في سلكنا التعليمي عاجلاً.

ومعلوم أن التعليم الحاسوبي

مبني على نظريات التعليم الحديثة المنبثقة من النظريات النفسية والسلوكية. ويدرك اللغويون التطبيقيون أن البرامج التعليمية الحاسوبية (وخصوصاً ما يتعلق بتعليم اللغات) تفوق بشكل كبير البرامج التعليمية التقليدية. فلقد استطاع رواد المدرسة التعليمية السلوكية أن يسخروا الحاسوب ليصبح أداة تعليم فاعلة، فقد وجدوا أن الحاسوب وبرامجه التعليمية تناسب نظريات المدرسة السلوكية، لذلك انتشرت وازدهرت برامج الحاسب التعليمية في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم انتقلت إلى أوربا ومن بعدها إلى بقاع العالم الأخرى. ويرجح الباحثان رند وراسي RIND & RASI (١٩٨٦م) أن التعليم بالحاسب أثبت فاعلية في التعليم المنفرد والجماعي، فيمكن للطالب التعلم بمفرده عن طريق

أثبتت الدراسات والبحوث العلمية أن الحاسوب وسيلة فاعلة في التعليم، بل أصبح تفعيل الإنترنت في التعليم، ونقل المعلومة أمرين مألوفين في هذه المدارس

الحاسب لما يتميز به من قدرات فائقة تعينه على القيام بمهام التعليم، ويتدخل المعلم فقط لحل مشكلة أو لشرح بعض التعليمات، وتزداد فاعلية التعليم بالحاسوب، لأنه يعزز مفهوم التعليم الجماعي في الوقت نفسه؛ إذ تتمكن مجموعة من الطلاب من مناقشة مسألة أو مفهوم أو نظرية من خلال ما يقدمه الحاسب.

فقدان التوازن

ولا نعلم يقيناً ما شكل التعليم القادم، وما الطور الذي سيدخله؟ ولكن حري بصناع القرار في المؤسسات التعليمية استثمار هذا المجال وعدم التردد في استقطاب منتجاته، بل والدخول في تصنيعها. وينبغي أن يستمر التعليم في مسارات التطور بجوانبه كافة، والانطلاق بشكل يترجم هذا التطور ويُفعِّله على جميع الأصعدة، ولا يتوقف تطور التعليم في أي مرحلة مهما كانت علامات النجاح والتفوق، فالتوقف يتبعه - بشكل دائم - انحدار قد يتسبب في ضياع ما سبق إحرازه. وحين يصاب النظام التعليمي بالجمود والرتابة والانقطاع عن دائرة التطور والتقدم في أي مرحلة من المراحل، فإن التطور الكمي والنوعي يفقد توازنه، وينتج منه خلل في المخرجات النهائية؛ إذ إن الناتج لا يحقق المأمول بسبب التفاوت في التجديد بين التعليم وجوانب الحياة الأخرى. ومن دون هذا التجديد يظل التعليم وسبله ووسائله يصطنع أساليب وخبرات قديمة لا تواكب روح العصر، فيصاب المعلمون والطلاب بالإحباط، ولا تؤتي العملية التعليمية ثمارها، مما يؤثر في مخرجات التعليم تأثيراً سلبياً.

ومن الأمثلة الحية على أهمية الحاسوب في المدارس، بعض المهارات الوظيفية التي يحتاج إليها سوق العمل، وقد لا يتوافر تعليمها في كثير من مدارس العالم العربي بشكل عام، كاستخدام معالجات النصوص. إن الإلمام بهذه المهارة مطلوب وعلى جناح السرعة، ولا سيما من قبل خريجي الجامعات بتخصصاتها كافة.

والمتفرس في دور التعليم الحاسوبي في كثير من الدول يجد النقلة الهائلة والخطوات الواسعة في التطور. فلقد بلغ التطور التقني في المجال التعليمي قمته في هذا العقد، واستطاعت بعض الدول الغربية أن تطوع التقنية الحديثة لتقدم وسائل تعليمية تعتمد بشكل رئيس على الحاسوب، كالكتاب الإلكتروني CD - ROM الذي بدأ يدخل شيئاً فشيئاً إلى المدارس والمؤسسات التعليمية ليحل محل الكتاب التقليدي، وبهذا يصبح الحاسوب The Computer أساسياً في الفصول الدراسية بدلاً من أن يكون مكملاً للعملية التعليمية، وهو ما يعرف بـ «التعليم الحاسوبي» Cmoputer assisted learning، وأصبح التعليم مبنياً عليه في كثير من المدارس العربية، ولا سيما المواد اللغوية.

لقد أصبح التعليم الحاسوبي صفة سائدة في المدارس الغربية (الأمريكية بشكل خاص) وانتشر استخدامه بين الطلاب بمختلف مراحلهم وأعمارهم، وأثبتت الدراسات والبحوث العلمية أن الحاسوب وسيلة فاعلة في التعليم، بل أصبح تفعيل الإنترنت في التعليم، ونقل المعلومة أمراً مألوفاً في هذه المدارس، وأصبح الطالب يكتب الواجب المنزلي، ويقوِّمه المدرس من خلال الإنترنت، وكذلك يحصل ولي الأمر على تقرير مفصل عن سير ابنه أو ابنته العلمي في أي وقت، فمتى يصبح الحاسوب جزءاً رئيساً في مدارسنا وتعليمنا؟

المراجع

١ـ انظر يلجن، مقداد: توجيه المتعلم إلى منهاج التعلم في ضوء التفكير التربوي والإسلامي.

من صور الاضطراب الفكري

العامية في مجمع اللغة العربية!!

صالح بن إبراهيم الحسن

في هذا الزمن الذي تعيش فيه المجتمعات عصراً يموج بالتيارات المختلفة وقفت بعض الأمم مشدوهة تكاد الحيرة تصيبها في أمرها، فهي تنظر إلى مثلها ومبادئها تارة، وتنظر إلى بريق التيارات الغربية تارة أخرى، وتكاد القدم تزل بها، فتجنح بعض مؤسساتها إلى غير جادتها، ويصاب بعض أفرادها بالرغبة الجامحة في التبعية والتقليد للطارئ من المثل والمبادئ. ولعلنا في عالمنا العربي قد أصابنا الكثير من هذه التيارات فابتلينا بالتبعية أكثر من غيرنا، حتى إن أدت إلى التنكر لأهدافنا وثوابتنا. ولم تسلم من هذه الزوبعة بعض المؤسسات الثقافية، حيث أنشئت ونشأ الخلل في الهدف منها، ومن ثم في رؤيتها لطبيعة دورها، ودخلها من يشكك في أهدافها، أو لا يؤمن بها ألبتة، وهذا أمر فيه من انقلاب الحال مافيه، إذ كيف يعمل إنسان عملاً لا يؤمن بأهدافه، أو كيف تنشأ مؤسسة تعمل على نقض مبادئها؟

الاضطراب الفكري في مجمع اللغة

من حرص الأمة على هويتها، وعلى أبرز مقوماتها، وهي لغتها، دعا نفر من أبنائها في مصر، مقتدين بسلفهم إلى إقامة كيان علمي يشد من أزر العربية، ويجتمع فيه المخلصون من علمائها للنظر في أحوالها، والبحث عن وسائل تطويرها لتواكب العصر.

وبعد محاولات قام بها كثير من الغيارى على لغة العرب امتدت على مدى أربعين عاما، أخذت الحكومة المصرية على عاتقها القيام بهذه المسؤولية الجليلة. حيث صدر في عام ١٩٣٢م مرسوم بإنشاء مجمع اللغة العربية. وقد نص على أن الهدف الرئيس للمجمع «المحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلم والفنون في تقدمها، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر، وذلك بأن يحدد في معجمات أو تفاسير خاصة أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب»، و«بحث كل ماله شأن في تقدم اللغة العربية»(١).

وبلا شك، فإنه يلحظ سمو هذه الأهداف ووعي القائمين عليها بالمهمة المنوطة بالمجمع، إذا كان هدفهم الذي حرصوا على تحقيقه المحافظة على سلامة اللغة من أن يصيبها شيء من التحريف في ألفاظها أو في طرائقها التصريفية أو نظام الجملة فيها. وهو هدف يلزم معه تنقيتها من أي دخيل عامي، أو عجمة في الألفاظ، أو الأساليب على السواء.. ومع هذا الحرص على السلامة اللغوية كان المجمع يرمي إلى جعلها لغة علم وحضارة، بإعادتها إلى معترك الحياة العلمية الحديثة، والبحث عن سبل تقدمها ورقيها، لكن المجمع



توفيق الحكيم

بحث قضايا، ودافع أعضاؤه عن توجهات ما كان له ولهم أن يدافعوا عنها، فنقضوا الهدف الأهم الذي من أجله أقيم المجمع، وهم بذلك يهدمون الأساس الذي بني عليه، ومن ثم شرعية وجوده ووجودهم في هذا المكان، فلقد بحث المجمع النظام الكتابي (الكتابة العربية) وقال فيه أعضاء المجمع الكثير وشككوا في صلاحيته، حتى دعا عبدالعزيز فهمي إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية(٢).

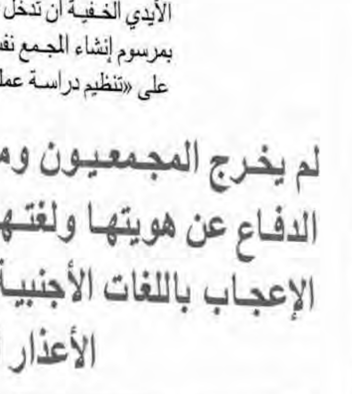
ونص النظام الأساسي للمجمع على التعريب، فقد أبان أنه يعد من أبرز مهامه، إن لم يكن أهمها على الإطلاق، وقد بذل في سبيل تحقيقه جهوداً كبيرة، فقام بإصدار الكثير من المعجمات اللغوية المتخصصة الحديثة، وعلى الرغم من هذا فقد وجد بين أعضائه في أيامنا هذه، من يحارب التعريب من حيث هو نقل مصطلحات العلوم إلى العربية، أو التعريب بمفهومه الأعم، وهو تعريب العلوم في التعليم الجامعي. وعلى الرغم من مكانة هؤلاء المجمعيين العلمية إلا أنهم تناسوا مهمتهم في المجمع وأهدافه التي أقيم من أجلها، وانساقوا يرددون أقوالاً تدافع عن التبعية بحجج العامة وأشباههم، فهذا الدكتور بدوي طبانة عضو المجمع والأستاذ بدار العلوم يرفض تعريب العلوم، لأنه ـ على حد زعمه ـ إذا حدث ذلك فسنفاجأ بعد سنوات بأننا أمام جيل لا يعرف أيا من اللغات الأجنبية، ولا يتمكن أبناؤنا وأحفادنا من مجاراة التطورات العلمية السريعة التي تتم في بلاد الغرب، ويرى الدكتور حسين نجيب المصري، أستاذ اللغات الشرقية والخبير في المجمع منذ ٢١ عاماً أن الدعوة إلى تعريب العلوم هي بالأساس دعوة قومية وليست علمية، وفي مجال العلم يجب ألا نحتكم فقط إلى مشاعرنا القومية، بل علينا أن ندفع أبناءنا إلى تعلم اللغات الأجنيبة وإجادتها. أما الدكتور نصر حسن، الخبير بلجنة الرياضيات فيقول: «ينبغي أن نقلل من حساسيتنا تجاه اللغات الأجنبية خاصة الغربية منها، ولنعترف بأن الغربيين هم الذين طوروا العلوم الحديثة»(٣). ولعل أبرز ما يلحظ على هذه الآراء الصادرة من علماء العربية، رسوخ مفهوم التبعية فيها، وتسويغها بخلط واضح بين تعريب العلوم بصفته حاجة تربوية في الأساس، وتعلم اللغات الأجنبية بوصفه نافذة على العالم، لم يقل أحد بإغلاقها.

وبهذا لم يخرج هؤلاء المجمعيون ومن أولتهم الأمة مهمة الدفاع عن هويتها ولغتها عما تردده العامة،

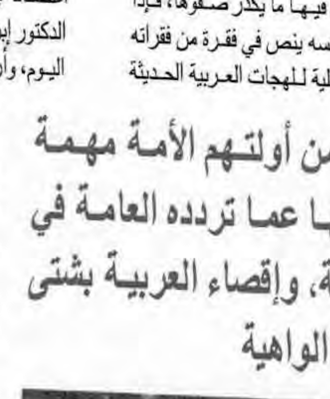
ومن يسير على خطاهم في الإعجاب باللغات الأجنبية، وإقصاء العربية عن مضمار العلم والحياة، بشتى الأعذار الواهية. وهكذا في زمن التراجعات، تحول الدافع عن الأمة إلى مهاجم لها، وتنازل عن الريادة ليركب موجة التبعية البراقة مع الراكبين!

ولم تسلم الأهداف التي أنشئ المجمع من أجلها، من دسٍّ ما يفسد عليها رسالتها، فقد استطاعت بعض الأيدي الخفية أن تدخل فيها ما يكدر صفوها، فإذا بمرسوم إنشاء المجمع نفسه ينص في فقرة من فقراته على «تنظيم دراسة عملية لـلهجات العربية الحديثة

لم يخرج المجمعيون ومن أولتهم الأمة مهمة الدفاع عن هويتها ولغتها عما تردده العامة في الإعجاب باللغات الأجنبية، وإقصاء العربية بشتى الأعذار الواهية



أحمد لطفي السيد



أحمد تيمور باشا

بمصر وغيرها من البلاد العربية» فكانت هذه الفقرة فرصة استظل بها دعاة العامية، وكان بها أصل الخلل الذي كابد المجمع منه ضياع كثير من الوقت والجهد، فاستطاع ذوو الأهواء إشغال المجمع بما لا جدوى منه لمصلحة العربية، كما كانت في الوقت نفسه مهمة تنقض الهدف الرئيس للمجمع من أساسه، حيث أفسح المجال لدراسة العامية والدفاع عنها، مع أن المجمع أنشئ لخدمة الفصحى، فبسبب هذه الفقرة بحث المجمع من أول إنشائه اللهجات العامية وخصص جلسات وبحوثًا مستقلة لها، ومن خلال تلك الدراسات، يتبين أنه لم يكن أغلب الذين درسوها يهدفون من دراستها إعادتها إلى الفصحى، بل إنشاء كيانات لغوية مستقلة تنشق على الفصحى وتؤدي إلى إضعافها، ومن ثم موتها لا قدر الله.

وبهذا الهدف المناقض للأساس الذي قام عليه المجمع، تظهر لنا بجلاء آثار فقد التوازن الذي أصيبت به الأمة أفرادًا وجماعات، حيث اضطربت أهدافها أمامها، واختلط الخبيث بالطيب لديها، وأخذت تحتضن ما يصيبها في مقتل. ولقد كان هذا الهدف نبتة سوء ظهرت في تربة خيرة فحاول أعضاء المجمع المخلصون لأمتهم حذفها من قوانين المجمع اللاحقة، لكنهم لم يستطيعوا بسبب تشبث محبي هذا التوجه من أعضائه ببقائه، فبقي ثابتًا لا يتزعزع، أو كما يقول الدكتور إبراهيم مدكور: «بقي هذا النص محترمًا إلى اليوم، وأريد مرة إغفاله في مشروع تعديل لقانون المجمع فعز على المجمعيين هذا، وأبوا إلا أن يستمسكوا به»(٤). وإذا كانت الأهداف النزيهة تشرف أصحابها وتعلو بها هاماتهم، فإن أصحاب الأهداف المشبوهة، لا يظهرون وإن نافحوا عنها، لهذا فإننا - كما يقول الحمزاوي - «نجهل إلى يومنا هذا اسم المجمعي أو الشخص الذي بادر بإدراج هذه الدراسة في برنامج المجمع»(٥).

اللجان المجمعية وبحوث العامية

بعد أن استطاعت هذه العصبة من المجمعيين اختراق المجمع وأهدافه عن طريق إقحام تلك المادة التي تجعل من مهام المجمع دراسة العامية، أنشئت منذ الدورة الأولى لجنة لدراسة العاميات باسم لجنة اللهجات، اشترك فيها علماء لهجات أمثال، نللينو، وعيسى المعلوف، وليتمان، فرسموا خطة دراسة اللهجات وبيان مزاياها، وكان من أبرز مهامها دراسة العاميات، وطرح الدراسات حولها وتشجيعها، فقامت منذ دورتها الأولى بدراسة معجم الألفاظ العامية لأحمد تيمور باشا، وقد أشاد به أحد أفراد هذه اللجنة وهو نللينو، حين وصفه بأنه معجم مهم، وتعاون دعاة العامية من خارج المجمع مع من بداخله حتى استطاعوا التأثير في قرارات المجمع بأن «سلطت ضغوط رسمية على المجمع انتهت بطبع المعجم، فصدر سنة ١٩٦٠م بتعاون بين المجمع والإدارة المصرية»، وعلى الرغم من تلك الضغوط الداخلية والخارجية على المجمع، إلا أن دراسة العامية في الدورة الأولى كانت محددة، فلم تعالج قضية اللهجات معالجة جدية إلا في الدورة الثانية للمجمع، وبقي المخلصون من المجمعيين حريصين على صيانة المجمع من هذا العبث باللغة وبالهدف الأسمى له، لهذا «لم تأخذ تلك المعالجة بعين الاعتبار مشاكل اللهجات في حد ذاتها بل مشاكل اللغة العربية الفصيحة»(٦). لكن هذه اللجنة أخذت توالي جهودها في سبيل إقحام الدراسات العامية في جلسات المجمع، وجعلها من ضمن اهتماماته حيث أحيلت عليه معاجم ليدلي برأيه فيها، كمعجم الألفاظ العامية للدكتور أحمد عيسى، ومعجم الفصحى والعامية لسليمان محمد سليمان. ولكي تكسب هذه اللجنة شيئًا من المصداقية لدى بقية الدول العربية، طرحت دراسة اللهجات العامية لبعض الدول العربية فعالج المجمع بعض أشكال اللهجات العربية الحديثة كأصول اللهجة العراقية والشعر العامي في نجد وعامية لبنان وسورية والأصول العربية لبعض اللهجات السودانية، وأثر البربر في عربية المغرب، لكن المجمع «عني خصوصًا باللهجة المصرية، فبين تاريخها، والعوامل التي أثرت فيها، وما سرى إليها من ألفاظ فارسية وتركية، والصلة بينها وبين الفصحى. وأشاد بدراسة بعض اللهجات الإقليمية كلهجتي رشيد وأسوان». ولم يكلّ دعاة العامية، وعلى رأسهم المستشرقون الذين يتزعمون هذه الدعوة، عن عقد الدراسات الطويلة حول العامية وموقفها من الفصحى، وحاولوا الخروج بنتائج تكون في صالحهم، ففي محاولة لتسوغ موقف المجمع الذي أنشئ لخدمة العربية الفصحى في دراسة العاميات نجده يعقد حلقة دراسية عن موقف العامية من الفصحى فتخرج الدراسة بنتائج تعلل بطريقة غير مقنعة، دراسة العاميات في المجمع، إذ تقول إحدى تلك النتائج «للعامية المصرية أدبها من موشحات وأزجال ولكن لا هي ولا أية عامية عربية أخرى استطاعت أن تسمو إلى مستوى العاميات الرومانية التي كونت بعض لغات أوروبا الحديثة». وكأن المجمع بهذه النتيجة يحث دعاة العامية على السير قدمًا لتطوير العاميات واصطناع آداب لها، ومن ثم ترقية هذه الآداب لتكون في مستوى العاميات الرومانية، حتى تكون مؤهلة لتسنم الدور الثقافي للفصحى، فتصبح لغة ثقافة وكتابة. ومن هذه الحقيقة المرة التي أقرها المجمع، وفيها يصرح بأن اللهجة إذا استقلت وأصبح لها أدبها كان هذا مما يؤذن باصطناعها لغة رسمية - يطمئن المجمعيون الآخرون بنتيجة لا تؤدي إليها المقدمات التي ذكرها دعاة العامية فحواها أن «لا يضير الفصحى في شيء إذن أن تدرس العامية في مختلف مظانها»(٧). ولا أدري كيف وصل المجمعيون إلى هذا الاستنتاج؟ إذ إن ما ذكر من حقائق يثبت عكس ذلك.

المجمعيون والعامية

لقد كان لدعاة العامية من رجال الاستعمار أمثال القاضي ولمور والمهندس ويلكوكس صولات وجولات في سبيل الدعوة إلى العامية وإحلالها مكان الفصحى، وإذا عذر هؤلاء في دعوتهم؛ لأنهم من رجال الاستعمار، يدعون بدعوته التي تهدف إلى تفتيت الأمة، وإبعادها عن مقومات هويتها المتمثلة في دينها ولغتها - فإننا بأي حال لا يمكننا فهم هذه الدعوة وقبولها من أبناء الأمة نفسها، وفي معقل من معاقل العربية، أنشئ لخدمتها. لكن هذا يرجع كما أشرنا من قبل إلى

ذلك الاضطراب وتلك الغمة التي أصابت كثيراً من أبناء الأمة فضلُّوا الطريق، وعشيت أنظارهم عما يدبَّر لهم، حتى انساقوا وراء أعدائهم ينادون بدعوتهم، فكان لأمثال هؤلاء صولات وجولات في أروقة مجمع اللغة العربية في القاهرة، وكان أعضاء المجمع من المستشرقين من ورائهم يوقدون جذوة الدعوة كلما خبت، فكان لهم دور بارز في لجنة اللهجات، حيث شغلت العامية وقضاياها المجمع. وقد شارك فيها بعض أعضائه بالدعوة للعاميات، كما شارك المخلصون منهم منافحين عن الفصحى، مفندين كل دعوة ظاهرة أو مستترة، «ومحاضر الجلسات تشهد بأن اللغة العامية كانت موضوع جدل عنيف بين المؤيدين والمعارضين»(٨)، وقد عمد المؤيدون إلى شتى الحجج والأساليب في سبيل العناية بدراستها في المجمع، ومن ثم إضفاء الشرعية عليها في ميادين الثقافة خارجه.

وكان من أبرز الحجج التي أخذ بها دعاة العامية في المجمع التشدق بالوطنية وبتكريم العامة واحترامها عن طريق الأخذ بألفاظها وما تسمي به الأشياء، يقول أحمد لطفي السيد: «فلنحترم من اليوم قرارات الأمة في الكلمات التي تشبثت بها ولا تريد النزول عنها ونعتنقها ونعربها وندخلها في لغتنا ..» ويقول: «ولكني أعلم أن الطريقة الوحيدة لإحياء اللغة هي إرضاء لغة الرأي العام من ناحية وإرضاء لغة القرآن من ناحية أخرى». وكان هو أول من دعا إلى تمصير اللغة العربية، إذ كتب سبع مقالات نشرت في صحيفة (الجريدة) سنة ١٩١٣م، وكان أبرز ما دعا إليه اتخاذ الأسماء الأجنبية للمستحدثات الجارية في لغة الحياة اليومية. فكتب بلهجة عامية «الأسماء الجديدة مالها؟ لو أخذناها بزي ماهية، فنيت في لغتنا واتبعت أوزانها ... غير أن خمسة ستة من الكتاب أو عشرين، ثلاثين من المترجمين والمتعلمين هم الذين لا يرون الاعتراف بهذه الحقيقة». ويمضي رئيس مجمع اللغة العربية في جعل العامة مصدره في تجديد اللغة بعد أن أخذ بلهجتها في كتابته فيقول: «نقول للمترجمين: خذوا ما لم تجدوا في اللغة العربية من الأسماء التي أدخلها العوام في اللغة حين كان علماء اللغة في غفلة عنها..»(٩). ويعلق الدكتور محمد محمد حسين على هذا الوضع المضطرب الذي وقعت فيه الأمة، فاختلط عليها الأمر، وتقلبت بها الأهواء فيقول: «ومن عجب العجب أن هذا الداعي إلى تمصير اللغة العربية قد أصبح من بعد رئيساً لمجمع اللغة العربية»(١٠). وقد أصبحت العامة وتراً مغرياً يعزف عليه كل من أراد الأخذ بالعامية، حيث تصبح الفصحى لديهم داعية للجهل، بعيدة عن الحياة الاجتماعية، فنجد محمد فريد أبوحديد يجعلها بين خيارين لا ثالث لهما فـ«إما الاكتفاء بحياة فكرية معزولة عن الحياة الاجتماعية، وبديموقراطية مصطنعة خادعة ترمي بالجماهير التي تكوّن الأمة في غياهب الجهالة والقحط الثقافي والنفساني.. وإما أن نفضل الحياة المعاصرة والمقبلة، وذلك بالتضحية بالثقافة القديمة، وبقطع الصلة مع ماضينا المجيد»(١١). ولا شك أنه عندما حصر الناس في هذين الاختيارين فحسب، أراد كما يقول أن يضحي بالثقافة القديمة، ويقطع الصلة مع ماضينا. وقد ألقى أحمد حسن الزيات باللائمة على المجمع حينما أهمل العامية، وأخذ يتباكى على العامة وأن المجمع لا يأبه باللغة العامية، لغة المنزل والشارع والأسواق والمعامل والحقول(١٢).

أما عبدالعزيز فهمي فقد كانت طموحاته أكثر في تفتيت اللغة ونظامها الكتابي، حيث يرى وجوب إقصاء الفصحى، وأخذ كل بلد عربي بعاميته كما فعلت الدول الأوروبية، ويستعدي في ذلك حكومات الدول العربية بصفتها كيانات سياسية مستقلة للمبادرة بالأخذ بالعاميات..! كل ذلك قال به عضو المجمع في مؤتمره سنة ١٩٤٤م حيث قدم للمجمع اقتراحاً بشأن تيسير الكتابة العربية، وظهرت فيه رغبته في إقصاء اللغة العربية الفصحى، وأسفه الشديد لعدم تمكن اللهجات المحلية من احتلال مكانها، ويستغرب من حال العرب مع الفصحى والتطور، إذ يراها غريبة «بل أغرب من الغريبة لأنها مع سريان التطور في مفاصلها (يعني العربية) لم يدر بخلد أية سلطة في أي بلد من تلك البلاد المنفصلة سياسياً أن يجعل من لهجة أهله لغة قائمة بذاتها... وتكون هي المستعملة في الكلام الملفوظ وفي الكتابة معاً تيسيراً على الناس... ولم يعالج بلد هذا التيسير، وبقي أهل اللغة من أتعس خلق الله في الحياة»(١٣). ويلقي محمد فريد أبوحديد باللائمة على القرآن الذي وقف أمام تطور العربية، وأدى إلى تحجرها وثباتها حيث كان للحدث القرآني وقدسيته أثر كبير في اللغة الفصيحة، ووضع قواعد مقننة ونظام لغوي دام ثلاثة عشر قرناً «ولقد كان ذلك الاستقرار عاملاً على تحجرها حتى فقدت مرونتها..» ويضيف «إننا قد ورثنا موقفنا هذا عن القدامى الذين رموا بكل تطور»(١٤)، في حين يرى عبدالعزيز فهمي أن العرب يعيشون محنة بسبب عربيتهم، فهم مستكرهون على الأخذ بالفصحى لغة كتابتهم: «إن أهل اللغة العربية مستكرهون على أن تكون العربية الفصحى هي لغة الكتابة عند الجميع، وأن يجعلوا على قلوبهم أكنّة وفي آذانهم وقْرا... وهذا الاستكراه الذي يوجب على الناس تعلم العربية الفصحى كيما تصبح قراءتهم وكتابتهم بها، هو في حد ذاته محنة حائقة بأهل العربية»(١٥) وبسبب هذه المحنة - حسب زعمه - فإنه يرجع تخلف العرب وتقهقرهم الحضاري إلى تمسكهم بعربيتهم» هذه المشقة تحملني على الاعتقاد بأن اللغة العربية من أسباب تأخر الشرقيين، لأن قواعدها عسيرة ورسمها مضلل... ومما يلحظ هنا في هذه التهمة التي ألحقها بالعربية أنه سمى أهلها بالشرقيين، وهو بذلك يريد أن ينزع منهم عروبتهم التي قد تثير فيهم نخوة التمسك بهذه اللغة، فما هم - حسب قوله - إلا شرقيون، فرضت عليهم لغة ليست لهم، ولا يعنيهم شيء من أمرها، فعليهم بطرحها والتخلص من أدرانها...! وهذا القول ينبئ عن اضطراب عميق في

لم يكلّ دعاة العامية، وعلى رأسهم المستشرقون، عن عقد الدراسات الطويلة حول العامية وموقفها من الفصحى، وحاولوا الخروج بنتائج تكون في مصلحة دعاويهم



بدوي طبانة



إبراهيم بيومي مدكور

فكر المثقفين، وفيمن يفترض فيهم الدفاع عن العربية، بصفتهم يقفون في معقل من معاقلها.

العامية تسمو على الفصحى!

وقد أخذ الداعون إلى نبذ الفصحى يؤيدون دعوتهم بالقول بجلال العامية، وما تحويه من سمات الجمال، وما تتضمنه من حكمة، فهذا شفيق حسين المصري يلحظ أن جمال اللغة العامية وجلالها لا يحجبهما إلا ما تلاقيه من احتقار ونفور المثقفين، ففيها فلسفة مخلصة، وحكمة قوية وروح طريفة ومرح مستطاب(١٦) بل يرى محمد فريد أبو حديد أن العامية قد تسمو على الفصحى في أدائها الأدبي. ثم يستثير الشباب لقراءتها، ويجرئ أدعياء الأدب للكتابة بها، حين يطري العامية قائلاً: «وقد تصبح أقدر على الأداء الأدبي السامي من الفصحى إذا فتن الشباب المثقف بالإنتاج الفكري باللغة العامية، وعملت أجيال منهم

على الارتفاع بها إلى المستوى الذي يجعلها لغة فكر وتعبير صحيح»(١٧).

ويشير أحمد مدكور الأمين العام للمجمع إلى أهمية دراسة العامية، وأنها أهملت بسبب احتقار الدارسين لها حين يقول: «ونستطيع أن نقرر أن اللهجات العربية لم تدرس بعد الدرس الكافي، أهملت في الماضي لما شاع من احتقار العامية وما يتصل بها، وخشية أن تضار الفصحى بدراسة أية لهجة أخرى سواها». ويتقدم محمد فريد أبوحديد خطوات في الإشادة بالعامية، والدعوة إلى الأخذ بها حين يقوم بدراسة خصائص العامية وقواعدها ليقرر أنها لغة منضبطة، وأن الخروج فيها عن قواعدها النحوية أو الصرفية يكون خطأ مثل ما يكون الخطأ في الفصحى، وينتهي من عرضه لقواعد العامية وأساليبها إلى القول بأن أسلوب العامية قد استقر على صورة اعتادها الناس، وأن العامية ليست مجرد مسخ أو تشويه للعربية بل قد أصبحت لغة قائمة بذاتها، ولها قواعدها وأصولها إذا اشذ عنها شاذ عد ذلك خروجاً عن طريقة مقررة. ويبقى الداعون للعامية في المجمع، على الرغم من مكانتهم العلمية ومكانة المجمع، يتخبطون في آرائهم، فهم تارة ينافحون عن العامية ويشغلون أنفسهم بدراستها بدعوى أنها لغة مستقرة، وهي لغة خطاب الناس والشارع، وما دامت كذلك فهي أحق بالعناية من الفصحى، وتارة نجدهم يتباكون على الفصحى، ويرون أن دراسة العامية ما هي إلا خدمة للفصحى، ويظهر هذان الرأيان المتناقضان بصورة جلية عند إبراهيم مدكور أمين المجمع حين يقول(١٨): «ولا شك أن اللهجات جديرة بأن تدرس لذاتها، ما دامت لغات يتخاطب بها الناس، وقد يكونون الغالبية والعامة، وعلى أن درسها كسب للفصحى نفسها، فتوضح غامضها، وتكمل ناقصها، وتكشف عن عوامل تطرق الفساد إليها».

أخذ الداعون إلى نبذ الفصحى يؤيدون دعوتهم بالقول بجلال العامية، وما تحويه من سمات الجمال، وما تتضمنه من حكمة

ولم يكتف دعاة العامية من أعضاء المجمع بالإعجاب والدعوة إليها وحث الأدباء الشبان على الكتابة بها فحسب، بل تقدموا أشواطاً في دعم هذا التوجه، وذلك بتأييد القول بالفعل، حيث استعملوا العامية في أعمالهم الأدبية، فقد نشر محمد حسين هيكل روايته (زينب) سنة ١٩١٤م، وكانت أول قصة استخدم فيها المؤلف العامية في كتابة الحوار، كما استخدم المازني العامية في إنتاجه القصصي، وظهرت محاولات محمود تيمور الأولى في القصة وقد طعمت بالعامية، حيث اقترض من العامية في لغة الوصف وأجرى الحوار بها، ولكنه لم يلبث أن عدل إلى الفصحى، وقد فضل العامية في كتابة الحوار المسرحي الممثل لا المكتوب. واستخدم توفيق الحكيم العامية بصورة واسعة في أقصوصة (العوالم) حيث طغت العامية المصرية على القصة، فأباح لنفسه استخدام الكثير من الألفاظ العامية في عباراتها السردية. كما استعمل عامية الريف في كتابته المسرحية(١٩).

ولا يصح إلا الصحيح

كان لدعاة العامية سطوة على المستوى الرسمي في وزارة التربية المصرية، وكذلك في المجمع نفسه، لذلك فقد وقفوا أمام أي طرح يرمي إلى تعديل في قانون المجمع يغفل تلك الفقرة التي أعطت لدعاة العامية الفرصة لطرح مقولاتهم بصورة مشروعة في أروقة المجلس وجلساته، وفرض كثير من طروحاتهم على قراراته، ومع هذه السطوة لهذه الفئة إلا أن الجو لم يخل لهم أبداً، فقد وقف المخلصون من أبناء العربية أمامهم بالمرصاد لإخفاق مخططاتهم، ففي الدورة الرابعة للمجلس شهدت جلساتها جدلاً عنيفاً بين مؤيدين، ومنهم فارس نمر، ومنصور فهمي ونللينو، وماسينيون، وليتمان، ومعارضين ومنهم علي الجارم، والشيخ الإسكندري، وأحمد العوامري، ولقد أيدهم في موقفهم رئيس المجمع، لكن حصلت مهاترات مما جعل المجمع يقرر عدم نشر محاضر جلسات الموضوع حتى لا يمس بمنزلة المجمعيين. ويبدو أن هذه المواجهات قد أدت إلى تعديل في أعمال لجنة اللهجات، استتبعه تغيير في اسمها، فأصبحت في سنة ١٩٤١م، تدعى (لجنة اللهجات والنصوص القديمة)، ومع ذلك فإن هذه اللجنة واصلت بحوثها في العامية حين ترأسها فارس نمر الذي قدم تقريراً للمجمع يعطي الأولية للهجة المصرية بالنسبة إلى اللهجات العربية الأخرى القديمة منها والحديثة، ووضعت برنامجاً يعتمد كل الوسائل والطرق الحديثة لدراسة أصوات اللهجة المصرية وصرفها ونحوها وأساليبها. وعلى الرغم من هذه الوعود البراقة بمثل هذه الدراسات التي يسيل لها لعاب دعاة العامية إلا أن المجمع أحبط هذا المشروع فلم يوافق على برنامج فارس نمر، وانحصر الأمر في دراسة اللهجات العربية باعتماد مبدأ القراءات القرآنية القديمة. وعلى الرغم من الضغوط الرسمية من الحكومة المصرية، ووجود دعاة العامية أنفسهم بين أظهر المجمعيين، وما يملكونه من سطوة ووجاهة، إلا أن مشاريعهم كانت تبوء في الغالب بالإخفاق، وكذلك كان شأن مجهودات شارل كوينتز، المختص في اللهجات والخبير لدى المجمع الذي ألف أطلساً لغوياً في إحدى عشرة لوحة صوتية، وست عشرة لوحة صرفية، وثلاث لوحات في الألفاظ إذ لم يستفد منها أبداً(٢٠).

وهكذا كان مجمع اللغة العربية، الذي أنشئ لخدمة العربية الفصحى مسرحاً لدعاة العامية، ومشروعاً رسمياً لتفتيت الوحدة اللغوية تحت شعارات مختلفة، وباسم المنهجية العلمية التي استعيرت أحياناً للتضليل، وعدت اللهجات العربية القطرية لغات أنشئت لها المعاجم وقننت لها القواعد(٢١)، وما ذلك كله إلا بسبب الاضطراب الفكري الذي أصاب الأمة في أبنائها، فلم يستطع أن يسلم منه كثير من علمائها والقائمين على توجيهها فكرياً. ولكن يبقى الخير في هذه الأمة، فقد اصطفاها الله حين قال: «*كنتم خير أمة أخرجت للناس*» **آل عمران: ١١٠** لهذا فإن المجمع ألقى بقذى الدراسات العامية خلفه، وعاد شامخاً مخلصاً لهدفه السامي الذي كافح المؤسسون من أجله، وارتدت مكايد المغرضين حسرات في نحورهم، بعد أن قرر المجمع أن يخصص جهوده، كل جهوده، للعربية الفصحى.

المراجع:

١. د. أحمد مدكور، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً، ١٣٨٣/١٩٦٤، ص٤٧، ١٢٢، ١١٣.
٢. عبدالعزيز فهمي، تيسير الكتابة العربية، مجمع اللغة العربية.
٣. مجلة العربي، ص١٣٠، ع٤٥٠، مايو ١٩٩٦م.
٤. القانون الأساسي، الفقرة ج من المادة الثانية. د. أحمد مدكور، مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً، ص٤٧، ٤٩.
٥. د. محمد رشاد الحمزاوي، أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص٢٦٣.
٦. السابق، ص٢٨٢، ٢٧٠.
٧. د. أحمد مدكور، مرجع سابق، ص٤٩، ٥٠.
٨. د. محمد رشاد الحمزاوي، مرجع سابق، ص ٢٧٢.
٩. د. نفوسة زكريا، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص١٣١، ١٣٣، ١٣٦.
١٠. د. محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج٢، ٣٧١.
١١. د. محمد رشاد الحمزاوي، مرجع سابق، ص٢٧٤.
١٢. السابق، ص٢٧٩.
١٣. عبدالعزيز فهمي، مرجع سابق، ص٢-٣ .
١٤. د. محمد رشاد الحمزاوي، مرجع سابق ص٢٧٣.
١٥. عبدالعزيز فهمي، مرجع سابق، ص٣
١٦. د. محمد رشاد الحمزاوي، مرجع سابق، ص٨، ٢٧٩.
١٧. د. نفوسة زكريا، مرجع سابق، ص ١٨٣.
١٨. د. أحمد مدكور، مرجع سابق، ص٤٨، ١٨٢، ٤٧.
١٩. د. نفوسة زكريا، مرجع سابق، ص ٣٨٢ - ٤٥٥.
٢٠. د. محمد رشاد الحمزاوي، مرجع سابق، ص ٢٧٢، ٢٨٤.
٢١. د. محيي الدين صابر، الأبعاد الحضارية للتعريب، ضمن كتاب «التعريب ودوره في تدعيم الوجود العربي والوحدة العربية» مركز دراسات الوحدة العربية، ص٧٢.

بريق الحكمة

عبدالعزيز الخويطر

أقوال الحكمة تُزين جميع اللغات، وتحظى باهتمام جميع الأمم، لما فيها من صدق، ولأنها عصارة فكر، وثمرة تبصر وتدبر، يقولها الناس في مواقف العبر، ويستشهدون بها في مواضع التمثل، وطلب حسن الاقتداء؛ مدلولها صائب، ومؤداها مسلم به؛ لا ينقضها قول، ولا يخالف مؤداها عمل؛ إن قورنت الأقوال بزّتها، وإن سابقت المعاني سبقتها؛ تزيد بريقًا مع الزمن، وتجمع متمثلين بها مع تعاقب الأجيال.

وقد أغرم العرب بصياغة الأقوال الحكيمة، استقوها من حضارتهم العميقة، وصفاء نفوسهم، وصدق نظرتهم إلى الحياة، وفصاحة ألسنتهم، وغنى لغتهم، ومقدرتهم على تسليم مايملكونه إلى الخلَف، بهذا أصبح عندهم حكم لكل أمر من أمور الحياة، ولكل شعبة من شعبها، تصبح الحكمة عندهم قاعدة ثابتة، وأساسًا قويًا للاقتداء والاحتذاء.

وقد غلبت الحكمة على أقوال العرب، وترددت على ألسنتهم، وحرص السلف على تسليمها إلى الخلف، في سلسلة متتالية، وتنظيم لا ينقطع؛ تعهدوا بالمحافظة عليها، وصيانتها بالرواية، وإحيائها بالتطبيق، يزيدون فيها مع مرور الوقت، ويطورونها مع تعاقب السنين، يحورونها لتتناسب مع تطور مجتمعهم، وتتلاءم مع ما تبدل من حياتهم، من دون أن تفقد أصالتها، وصلتها بماضيها، يحرصون على أن تبقى جذّابة، وأن يكون حفظها سهلاً، فمرة يأتون بها نثرًا، ومرة يأتون بها شعرًا، ومرة يلقونها مثلاً.

يكاد أحدهم إذا تكلم لا يتكلم إلا بحكمة، لكثرة ما صيغ منها، والصور التي صيغت بها، ولما يعرفه من قبول الناس لذلك، وتقديرهم له، وقوة تأثيره فيهم؛ ويستوي في هذا العالم والجاهل، كل في حدود مقدرته. وتجد الحكمة عامة يستشهد بها كل الناس، أو تجدها مسربلة بسربال مهنة أحيانًا، أو لباس عمل أحيانًا أخرى، وتجد أن مؤدى ما قيل من أهل هذه المهنة يتماشى في مدلوله ونتيجته مع ماقاله أصحاب مهنة أخرى؛ وتجد في أقوال التجار حكمًا، وفي أقوال الصناع مثلها، وكذلك ما يماثلها في أقوال الصائغ، وفي أقوال الراعي، وفي أقوال المعلم؛ وكلها تصب في بوتقة واحدة، وتؤدي إلى النتيجة نفسها، وإلى الهدف المتوخى، والفائدة المرجوة.

وعندما يصاغ القول في صيغة الحكمة يكون تأثيره ثابتًا، وقوته تأتي من قوة القدرة على الصياغة اللفظية، والشعر من أكثر الأردية قبولاً، وأوسعها أداة للحفظ، والاستشهاد، والتداول. ويؤكد هذا ما نراه في هذه الأبيات الحكيمة الصادقة لمالك بن القين الخزرجي، فهي مع صدقها، فيها من الجاذبية ما يشد السامع، مما يجعلها على لسانه دائمًا، وبعض الأبيات تأتي هكذا:

إذا أنت حمّلت الخؤون أمانة
فإنك قد أسندتها شرَّ مسندِ
فلا تظهرنْ ذمَّ امرئ قبلَ خُبْرِهِ
وبعد بَلاءِ المرءِ فاذممْ أو احمد
ولا تتبعنْ رأيَ الضعيفِ تقصُّه
ولكنْ برأي المرءِ، ذي العقلِ، فاقتدِ
تمنى رجالٌ أن أموتَ، وإن أمتْ
فتلك سبيلٌ لست فيها بأوحد
وقد علموا، لو ينفعُ العلمُ عندَهمْ
لئن متُ ما الداعي عليَّ بمخلَدِ
فقل للذي يبقى، خلاف الذي مضى:
تجهزْ، لأخرى مثلها، فكأن قدِ
لعلّ الذي يرجو رداي، ويدّعي
به، قبلَ موتي، أن يكونَ هو الرَّدِي
فما عيش من يبقى ورائي بضائري
وما موتُ من قد مات قبلي بمخلدِي
وللمرءِ أيامٌ، تُعدَّ، وقد رعت
حبالَ المنايا، للفتى، كلَّ مرصدِ

[كتاب الاختيارين: ١٦١ ـ ١٦٢]

الألم

سبيل لاستعادة الحق في التفكير

خير الدين عبد الرحمن

اشتدت وطأة هموم الحياة اليومية على الغالبية الساحقة من البشر، وراحت صعوبات العيش وتعقيدات التعامل تستغرق أوقات الناس وطاقاتهم، بحيث ضعفت قدرتهم على مقاومة جائحة تقلص فاعلية الإرادة الذاتية، وتبدد فرصة التفكير بالغد، بَلْهَ المشاركة في تقرير مساراته أو التحكم فيها. إن قلة قليلة من المهيمنين على عالمنا اليوم - اقتصاداً وإعلاماً وثقافة وسياسة وقدرة على شن الحرب - تحتكر التفكير بالغد وتقرير مساراته والتحكم بها من دون سائر العالم: هذا هو الملمح الطاغي على حياتنا الراهنة.

وكان فلاسفة قد قرنوا وجود الإنسان بتفكيره: أنا أفكر، فأنا موجود إذاً. لكن تطبيق هذه المقولة اليوم يقود إلى صدمة كبرى، فما دامت قلة قليلة جداً هي التي تفكر وتقرر وتتحكم، فالوجود البشري الحقيقي الفاعل يصبح مختزلاً فيها. وفي المقابل، ما دامت الغالبية الساحقة من البشر - أمماً وأفراداً - محرومة قسراً من التفكير والقرار والتحكم، فهي محرومة من الوجود ذاته! لذلك كتبنا قبل سنوات أن الألم قد بات أصدق تعبيراً عن الوجود البشري من سواه، بحيث يصح القول: أنا أتألم، فأنا موجود إذاً! بل إن فاعلية وجود الأمم والأفراد أكثر قابلية للقياس الدقيق الدائم بمدى القدرة على التصدي للألم. يسوغ لهذا التشديد على دور الألم موحداً لغالبية البشر، وحافزاً يستحث قدرات المقاومة لديهم، ومن ثم إطلاق طاقات الإبداع من مكامنها بعدما استشرى تعطيلها، ما يبدو جلياً من تعاظم الآلام التي ترهق كاهل البشر بتزايد وتسارع هائلين، على الصعيد الجمعي وعلى الصعيد الفردي في آن واحد.



وتيرة الحروب لا تزال تتلاحق

ضد من سيخوضون الحرب؟

نأخذ مثلاً وتيرة الحروب التي تلاحقت وانتشرت في السنوات العشر الأخيرة نقيضاً للتبشير بحلول السلام بعد انتهاء الحرب الباردة، وطي صفحة الصراع الذي دفع العالم إلى حافة الكارثة الشاملة لأربعين سنة، في أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتي وتلاشي معسكره الذي وازن المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية موازنة لجمت كلا المعسكرين، وسمحت بدور فاعل لطريق ثالث شقته حركة عدم الانحياز. ولقد استثمرت الولايات المتحدة غياب نقيضها ومنافسها لتعلن فرض نظام دولي جديد تنتهي الحروب والصراعات المسلحة في ظله، وتؤكد هيمنتها وتحكمها وقيمها من خلاله. لكن ما حدث في الواقع هو أن الولايات المتحدة قد راحت تزيد موازنتها العسكرية سنة بعد أخرى، ومضت تضع الخطط والترتيبات والاستعدادات لتمكين قواتها المسلحة من خوض حربين كبريين، أو أكثر، في آن واحد وفي ساحات متباعدة، بل خطّط إستراتيجيوها وقادتها العسكريون لخوض الحرب العالمية الثالثة، ومن بعدها الحرب العالمية الرابعة، من غير الإجابة عن السؤال البديهي الأولي الذي يقتضيه هذا التخطيط، وهو: ضد من سوف يتم خوض الحرب؟ طبيعي أن هذه الإجابة مستحيلة منطقياً؛ لأن هؤلاء الإستراتيجيين والقادة قد هنّؤوا شعبهم مسبقاً بأنه ما من عدو في عالم اليوم يمتلك قدرات مكافئة لقدرات الولايات المتحدة الحربية، أو يستطيع منافستها في المستقبل المنظور. وأكثر من هذا، طورت الصناعة الحربية الأمريكية في السنوات العشر الماضية أكثر من مئة سلاح جديد، على الرغم من أن

الشرط الأول لتطوير أي سلاح هو قابليته للاستخدام. ومن ثم فإن التبشير بانتفاء الحاجة إلى الحروب، والإصرار على منع نشوب صراعات مسلحة، وتأكيد أنه ما من عدو يستطيع تهديد الولايات المتحدة في المستقبل المنظور، يناقض تمامًا زيادة الموازنة العسكرية والتخطيط لحروب جديدة وتطوير مزيد من الأسلحة.

حروب وحروب

فالقوات الأمريكية غزت جرانادا وبنما وهاييتي، وأسقطت حكومات ونصّبت حكامًا، وخاضت حرب الخليج الثانية التي لا تزال تفاعلاتها العسكرية مستمرة حتى الآن، وهددت بحرب ضد كوريا الشمالية من دون أن تخفي استعدادها لاستخدام الأسلحة النووية فيها، وتدخلت في الصومال ثم انسحبت من غير تحقيق أي هدف من الأهداف المعلنة لهذا التدخل، وقصفت السودان، وأفغانستان، ولعبت لعبة دموية طويلة الأمد في البوسنة والهرسك عانى المسلمون خلالها الكثير، إلى أن اضطروا إلى تقليص حقوقهم وطموحاتهم إلى أدنى الحدود، وخاضت آخر الأمر حرب كوسوفا.

وكان السر الإستراتيجي الشائع في أوربا هو أن القارة العجوز لن تسمح بدولة مسلمة فيها. ولقد تم التعايش مع الاستثناء الذي شكلته ألبانيا على أساس أن هذه الدولة قد خضعت لنظام شيوعي متطرف في تعامله مع القيم الدينية، إلى جانب كونها أفقر دول أوربا وأشدها تخلفًا على الإطلاق، ومن ثم لم تكن تشكل تحديًا للقرار الإستراتيجي الذي توافقت أوربا عليه؛ لأن الانتماء التاريخي لسكانه إلى الإسلام قد تعطل عمليًا في ظل نظامها السابق الذي تأرجح بين الستالينية والماوية. وهكذا لم تستطع تطورات التعامل مع الوضع في البوسنة والهرسك إخفاء التواطؤ الشديد بين اللاعبين الدوليين والإقليميين على مدى سنوات لضعضعة مسلمي هذا البلد إلى أقصى حد، عبر المجازر الجماعية والاغتصاب بالجملة والتدمير والتشريد، قبل اختتام تلك المأساة بما هو دون الحد الأدنى بكثير من الحقوق الوطنية والإنسانية والسياسية لمسلمي البوسنة والهرسك. وجاء التعامل مع مأساة كوسوفا تكرارًا يكاد يكون استنساخيًا في خطوطه العريضة لما تم مع البوسنة والهرسك، ولقد انتظرت القوى المهيمنة على عالمنا عشر سنوات منذ ألغى الرئيس اليوغسلافي من جانب واحد مادة دستورية تنص على ممارسة شعب كوسوفا الحكم الذاتي. وتفاقم الاضطهاد الديني والعنصري خلال تلك السنوات العشر لدفع ألبان كوسوفا المسلمين إلى الهجرة هربًا من العبودية، لكنهم تشبثوا بأرضهم. وما إن بدأت الحرب الجوية التي شنتها قوات حلف شمال الأطلسي بذريعة وقف ذلك الاضطهاد وإنقاذ شعب كوسوفا، في أعقاب فشل مفاوضات - حدد الحلف نتائجها سلفًا - حتى تدافعت مئات الآلاف من أهالي كوسوفا المسلمين إلى الدول المجاورة هربًا من المجازر الجماعية والاغتصاب بالجملة والتدمير والتشريد! تسابقت عدة دول أعضاء في حلف شمال الأطلسي إلى الترويج لتحملها مسؤولياتها «الإنسانية» تجاه ضحايا القمع الصربي من خلال التعهد بنقل عشرات الآلاف من مهجّري كوسوفا إلى القاعدة العسكرية الأمريكية في كوبا، وإلى الولايات المتحدة نفسها وإلى كندا، وإلى أستراليا! هل ينتظر هؤلاء المهجرون المسلمون خمسين سنة ليكتشفوا أن حقهم في العودة إلى الوطن الذي تم اقتلاعهم منه قسرًا سوف ينتهي إلى مآل حق عودة مليون من المهجّرين الفلسطينيين نفسه الذين تم اقتلاعهم من وطنهم قسرًا سنة ١٩٤٨م، وأصبح عددهم اليوم خمسة ملايين لاجئًا مشردًا في كل بقاع الأرض، بحيث بات حديثهم عن حقهم في العودة يعدّ الآن إرهابًا أو جنونًا أو إحراجًا غير مسؤول يرقى إلى مستوى الخيانة وتهديد السلام العالمي!!.

تواطؤ دولي

وقد كشفت مذكرات رئيس الحكومة البريطانية الأسبق ونستون تشرشل، ووثائق بريطانية وغير بريطانية أخرى أن تهجير غالبية الفلسطينيين من وطنهم كان قرارًا «دوليًا» توافق عليه المهيمنون لتسهيل إقامة دولة يهودية في فلسطين قبل ثلاثين سنة من إعلان إقامتها، فهل نحتاج إلى عشرات السنين لاكتشاف أن تهجير شعب كوسوفا المسلم كان قرارًا «دوليًا» توافق عليه المهيمنون حاليًا، بغض النظر عن تباريهم في ادعاء الحرص على حقوق هذا الشعب ومصيره والقتال «من أجله»؟

نمر بتحليلات مجزوءة لأهداف هذه الحرب الحقيقية، التي لا ناقة لمسلمي كوسوفا فيها ولا جمل، سواء التحليل الذي يعدّ الإصرار الأمريكي على شن هذه الحرب مؤشرًا على رغبة أمريكية في إضعاف الاتحاد الأوربي وإغراقه في مستنقع دموي يذيب الكثير من روابطه، ويثير عوامل الفرقة والنزاع الكامنة فيه، أو التحليل الذي يتحدث عن رغبة أمريكية في ضرب أوربا بروسيا لإضعافهما معًا ترسيخًا للتفرد الأمريكي على قمة العالم، وما إلى ذلك من تحليلات مختلفة، لكننا لا نستطيع أن نمر بالبساطة نفسها بما جاء على لسان الرئيس بيل كلينتون من تسويغ لتلك الحرب، وللدور الذي فرضته الولايات المتحدة لحلف شمال الأطلسي، تجاوزًا للأمم المتحدة وللقانون الدولي وللهدف المعلن منذ إقامة الحلف سنة ١٩٤٩م، ردًا على قيام حلف وارسو، وهو «الدفاع عن أية دولة عضو في الحلف عندما تتعرض إلى عدوان خارجي»، وهذا لا ينطبق إطلاقًا على الحالة الراهنة ليوغسلافيا. لقد قال الرئيس الأمريكي: إن حلف شمال الأطلسي يجب أن يضرب بشدة حتى تخضع القيادة اليوغسلافية لأوامره، فهذا الإذعان هو الذي سوف يعزز مصداقية القوة العسكرية الضاربة


تشرشل


كلينتون

للحلف في الحالات الأخرى المرتقبة مستقبلاً، حيث هناك إرهاب في الشرق الأوسط، ومصالح غربية متنامية في آسيا الوسطى المهددة بتوترات عديدة، ومخاطر أخرى في جنوب آسيا وشرقها، سوف يجد حلف شمال الأطلسي نفسه مضطراً إلى مواجهتها في المستقبل. هكذا يتضح أن التفجير الراهن في البلقان، بغض النظر عن أسبابه المعلنة، وعن الجرائم التي مارسها التسلط الصربي العنصري المتخلف ضد شعب كوسوفو، إنما يشكل الحلقة الأولى في سلسلة تتجه شرقاً على امتداد القارة الآسيوية!

حربان عالميتان في الطريق

وهذا ما يفسر المعلومات والبيانات الغامضة التي صدرت قبل خمس سنوات عن خطط يضعها الإستراتيجيون الأمريكيون، وتناقشها القيادات العسكرية الأمريكية استعداداً لخوض الحرب العالمية الثالثة، ومن بعدها الحرب العالمية الرابعة! لئن تأخرت روسيا من ناحيتها في التحذير من احتمال نشوب حرب عالمية وشيكة إلى ما بعد الصفعة المذلّة التي بدأت بمفاقمة أزمتها الاقتصادية، وتجويف بنيتها القيمية، واقتياد حلفائها السابقين في حلف وارسو إلى عضوية الحلف النقيض، واكتملت بالحرب الحالية في البلقان؛ فإن هذا التأخر لا ينتقص من خطورة العوامل الفاعلة بنشاط لدفع روسيا إلى رد ملائم دونه التلاشي الانتحاري.

ولا ننسى المارد الصيني في هذا المجال، ولا القوة المتنامية للعملاق الهندي ولخصمه الباكستاني، ولا ننسى قبل كل هؤلاء اللاعبين الدور اليهودي المحوري، بعد الاحتلال اليهودي السافر لكثير من المواقع المفصلية المتحكمة باقتصاد العالم وسياساته وإعلامه وقيادات العديد من دوله الفاعلة.

حكم بالإعدام

فالممارسات الحقيقية للتفكير على الصعيد الكوني كانت قمينة باستشراف هذا المآل، لو لم تصادر قدرة الغالبية الساحقة من المجتمعات والأفراد على التفكير الحر والمشاركة الفاعلة في الاهتمام بمصير عالمنا. المفارقة السوداء صارخة في اقتران هذه المصادرة مع التباهي بالدفق المعلوماتي الهائل، والتبجح بانتصار قيم

تلاحقت الحروب وانتشرت بعد أن استبشر العالم بحلول السلام بعد انتهاء الحرب الباردة، وطي صفحة الصراع بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي

الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والحريات العامة والفردية، وتقديم هذه القيم قاعدة لعولمة تجتاح القارات الخمس. ألم يكن واضحاً مثلاً أن الأمم المتحدة قد تلقت حكماً بالإعدام الناعم عندما ساقت الولايات المتحدة جمعيتها العامة إلى النكوص عن قرار اتخذته الغالبية الساحقة من الدول الأعضاء في عام ١٩٧٥م دان الصهيونية بالعنصرية؟! ألم يكن واضحاً أيضاً أن القانون الدولي قد تلقى حكماً مماثلاً عندما راحت الولايات المتحدة ترغم دول العالم على فرض الحصار والمقاطعة الاقتصادية على العديد من الدول - وغالبيتها عربية - لأسباب واهية ومفتعلة غالباً، بينما كانت الولايات المتحدة نفسها قد دانت المقاطعة الاقتصادية العربية لإسرائيل التي اغتصبت الوطن الفلسطيني، وشردت معظم شعبه بالقوة المسلحة والمجازر الجماعية، وظلت تتهم تلك المقاطعة بالتخلف والوحشية واللاأخلاقية، إلى أن تمكنت ضغوط أمريكية مركزة من تفتيت تلك المقاطعة العربية وإنهائها.

إن حظر حق التفكير الحر على عالمنا، واحتكاره من قبل قلة مهيمنة جعلا قيمها مرجعاً وحيداً تدعي له الشرعية، وأصرت على برمجة العقول والعلاقات والسياسات في عالمنا من خلال طغيان اجتياح قيمي واقتصادي وإعلامي وسياسي وثقافي متسربل بالعولمة، تخدمه قوة عسكرية ضخمة باتت تُستخدم بتفرد غير مسبوق، وتمارس دور شرطي العالم في أمريكا حيناً، وفي آسيا حيناً آخر، بله إفريقية، وأخيراً في أوربا قد أوصل البشرية إلى حافة الحرب العالمية بعد عشر سنوات من إيهامها بأن زمن الحروب والصراعات العسكرية قد ولى.

وإلى أن تستعيد الغالبية الساحقة من البشر - أمماً وأفراداً - حقها في التفكير الحر، بعيداً عن برمجة مسبقة تفرضها قسراً عولمة تشترط الالتحاق القيمي والحضاري والمصيري بها سبيلاً وحيداً للبقاء، لعل الألم المتعاظم الذي بات دليل الوجود البشري، وعنوان استمرار الحياة، يفلح في توحيد البشر دفاعاً عن الحياة وعن حقوقها الطبيعية التي جعلها الخالق رديفاً ملازماً للوجود البشري.

«أغبى الناس من استغبى الناس»، هذا مما وصلنا نقلاً عن الخليفة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو ينطبق على عولمة راهنة ادعت لسدنتها حق احتكار التفكير والقرار من دون سائر البشر، وراحت تزرع الألم، وتنشر الفوضى، وتفرض على الأمم والمجتمعات التحاقاً قسرياً، وتبعية اقتلاعية، واستعباداً قيمياً، وخضوعاً للطغيان المادي. فمكمن الغباء الرئيس في عولمة تستغبي الناس، وتمسخ حقهم في التفكير الحر والاختيار الإرادي الواعي أنها لا تدرك كم يفجر الألم من طاقات المقاومة التي تبدأ باستعادة سؤال الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟» مع هذه البداية يستعاد حق التفكير الحر، ويستطيع البشر - أمماً وأفراداً - القول من جديد: أنا أفكر، فأنا موجود إذاً، من دون أن تلغي مصالح الكبار المهيمنين تفكير الآخرين، ومن ثم وجودهم.

المراجع:

1 - JAMES PARKES, A HISTORY OF JEWISH PEOPLE, LONDON 1962, P. 189.

٢. صبري جرجس، النزعات العنصرية في العقيدة والممارسات الصهيونية، مجلة شؤون فلسطينية، العدد (٥٢)، ص٢٣.

٣. خالد القشطيني، الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية، ص٩٨.

٤. رشاد الشامي، الشخصية اليهودية الإسرائيلية، عالم المعرفة، ص١٧٩.

٥. روجيه جارودي، ملف إسرائيل، ص٣٥.

٦. سمير صيقلي، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في فلسطين، مقال في منشورات «القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني»، جامعة الموصل، ص٣٠٧.

٧. روجيه جارودي، ملف إسرائيل، ص٣٥.

٨. السيد يسين، الصهيونية أيديولوجية عنصرية، مقال في منشورات «الصهيونية والعنصرية»، بيروت ١٩٧٧م، ص٨٩.

من أسرار الكون

أحاجي العالم العشر

صلاح يحياوي



كم يَسُرُّ العلميين أن يكونوا قادرين على الإجابة عن هذا السؤال!... لكن الأمر ليس كذلك، إنه ليس التحقق من احتمال وجود مواد أو خلائط معدنية نجهلها في مكان ما، وهذا محتمل جداً، بل أن نعرف إن كان هناك خارج كوكبنا شيء من نمط آخر من المادة يعمل على نحو مختلف تماماً عما ألفناه.

ممَّ صنع العالم؟

هل يتكون العالم جميعه من ذرات مماثلة ومطابقة لتلك التي نستطيع رؤيتها بواسطة الأجهزة؟ أو إن هناك على العكس من ذلك نمطاً آخر من لبنة أساسية لا تمت بصلة إلى ما هو معروف حتى الآن؟.. هذه هي المعضلة الحقيقية.

إن جميع المادة التي نعرفها، بدءاً بمادة الأرض حتى مادة المجرات البعيدة جداً، تطابق النمط نفسه من البنية الأساسية. وما الفرق بين مختلف المواد إلا مسألة كميات تعتمد على عدد البروتونات في جوف النوى الذرية.. إن ما يميز الهيدروجين من الحديد مثلاً هو أن نواة ذرة الهيدروجين تحتوي على بروتون واحد فقط، في حين أن نواة ذرة الحديد تحتوي على ٢٦ بروتوناً. ويوافق كلُّ عدد عنصراً مختلفاً.

ولكن من المعلوم أن هناك صنفاً آخر على الأقل من المادة يختلف جداً عن المادة العادية التي صُنِعْنا منها، وهو مناف ومناقض لها.. إنه ضد المادة المضادة ANTIMATTER المطابقة - على ما يبدو - للمادة النظامية، ولا يمكن تمييزها منها بمجرد النظر، غير أن ذرة من المادة المضادة إذا ما مَسَّت ذرةً أخرى من المادة العادية فإن الذرتين تتفانيان بانفجار قوي. ولو أتيح لإنسان وضع قدمه على كوكب مصنوع من المادة المضادة فإنه سيتهافت DISINTE-GRATES في الحال. وقد تم منذ أشهر التوصل إلى إنتاج أول ذرة من مادة مضادة صُنِعت في المختبر؛ إنها ذرة الهيدروجين المضاد أو ضد الهيدروجين، ولكنها لم تُعَمِّر سوى هنيهة وجيزة من الزمن قبل أن تفنى.

وتُسَلِّمُ بعض النظريات بوجود عوالم كاملة مصنوعة من المادة المضادة، عوالم إذا ما مَسَّت عالمنا فإنها ستسبب كارثة كونية لم يُر لها نظير أبداً.

ولقد اكتُشِف، أو تم توقع وجود دقائق غريبة أخرى بفضل حسابات أجراها النظريون.. إنها دقائق قادرة على الترحال عبر الزمن تتحرك بسرعة أكبر بكثير من سرعة الضوء.. ولكن.. هل هي موجودة حقاً؟!

هل يُعِدُّ لنا العالم المزيد من المفاجآت على هذه الأرض؟

كل الدلائل تشير إلى ذلك.

ما عمر العالم؟

إن العالم قديم، قديم جداً، أقدم مما يستطيع أي كائن بشري أن يتخيل.. لا يُقاس عمر العالم بالسنين، ولا بالقرون، ولا حتى بآلاف السنين لأنها بالنسبة إلى العالم هي أقل من عُشر الثانية بالنسبة إلينا.. أما آلاف ملايين السنين فهي السُلَّم أو المقياس النسبي الصحيح عند الكلام عن الأعمار الكونية..

وهكذا يقدر عمر الأرض بنحو ٤٥٠٠ مليون سنة.

ويكاد يكون عمر الشمس - النجم الخاص بنا - أكبر قليلاً من عمر الأرض إذ يقدر عمرها بنحو ٥٠٠٠ مليون سنة.

وإذا ما تساءلنا عن العالم بأجمعه.. متى وُلِدَ؟ وما هو عمره؟

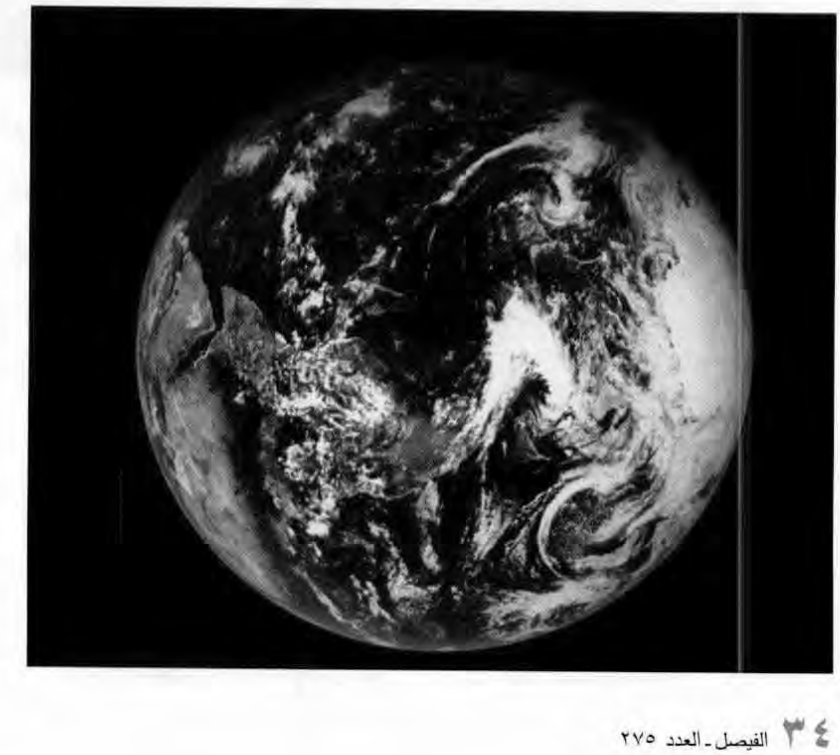
كان الجواب أننا نقترب الآن شيئاً فشيئاً من الإجابة، إلا أننا لا نمتلك إجابة حاسمة يقينية.

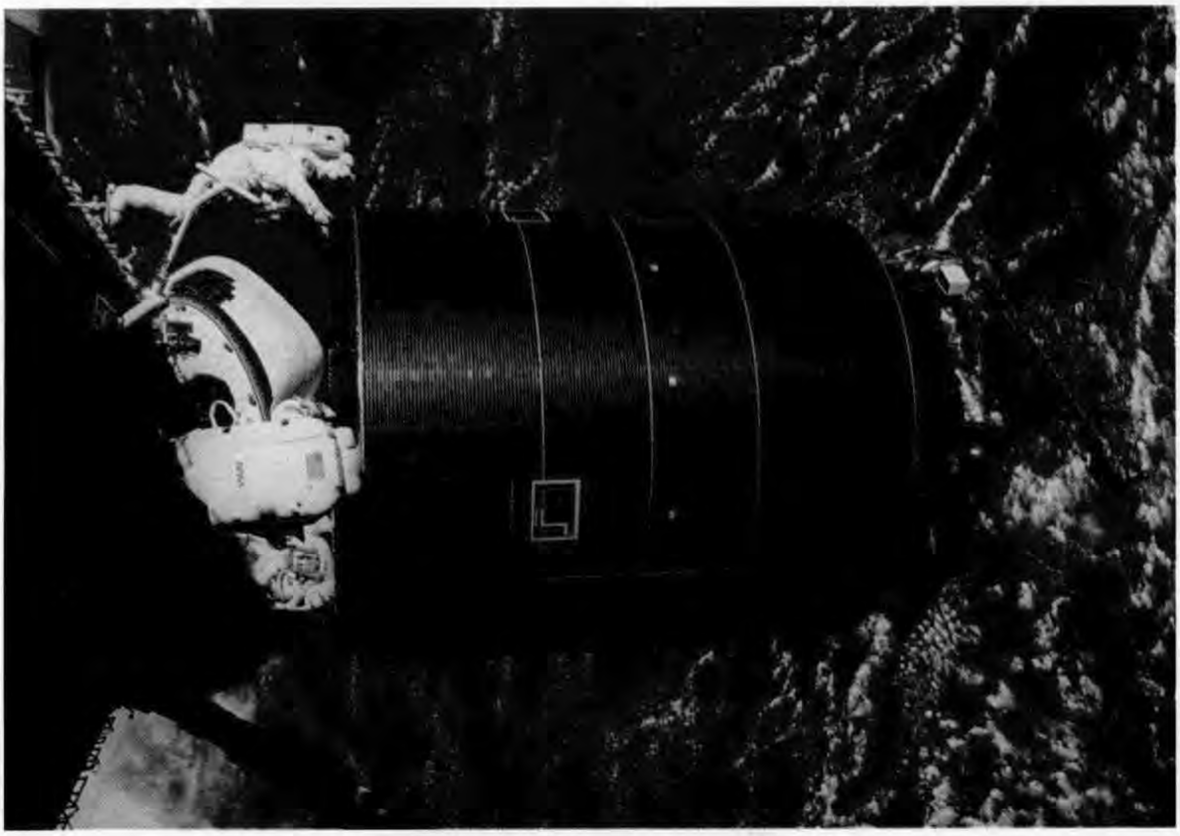
يقول بعضهم: إن عمره يراوح بين ١٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ مليون سنة. ويرى آخرون أنه بين ٨٠٠٠ و ١٥٠٠٠ مليون سنة.

فكلما تأخذ نتائج التجارب منحى الإشارة إلى رقم أكثر من غيره يحصل فجأة شيء غير متوقع، وعندئذ يجب البدء من جديد.



يقدر عمر الأرض بنحو ٤٥٠٠ مليون سنة





المرقاب الفضائي «هابل HUBBLE» أخذ يغير الكثير مما نزعم معرفته عن الكون

وكانت المفاجأة الأخيرة ما نقله إلينا المرقاب الفضائي «هابل HUBBLE» نابغة الناسا NASA (وكالة الفضاء الوطنية الأمريكية)، الذي أخذ يغير الكثير مما نزعم معرفته عن الكون، قام بذلك بعثوره على نجوم هي - إن صحت المعطيات - أكثر قدماً من العالم الذي يحويها، وهذا يكافئ القول: إننا عثرنا على ولد أكبر من أمه!.. وهذا غير ممكن.. إذاً هناك خلل ما!.. ولكن ما هذا الخلل؟

يعتقد كثيرون أن الخطأ قد وقع في المسافات، أو على نحو أخص في الطريقة التي علينا أن نحسب بها بُعْدنا عن الأجسام السماوية.

ننظر إلى شيء بعيد فنراه وهو في عمر أصغر من عمره الحالي؛ لأن الضوء يستغرق زمناً في الوصول إلينا من بعيد، وقد حمل إلينا الضوء صورته عندما كان في ذلك العمر.

وننظر إلى شيء أبعد من الأول فنراه على شاكلة الأول في عمر أصغر من عمره الحالي، ولكنه يكون في عمر أكبر من عمر الشيء الأول؛ لأن ضوءه قد تأخر في الوصول إلينا أكثر مما تأخر ضوء الأول.

ولقد بنى الفلكيون شبكة كاملة للمسافات بدءاً بالأشياء القريبة حتى المتناهية في بعدها.. إنها قياسات يعتمد بعضها على بعض على نحو دقيق بحيث إذا ما وقع خطأ في أحدها انتقل الخطأ إلى جميع القياسات التالية له.

ولم تترك معطيات «هابل» مجالاً للشك في وجود خطأ في نقطة ما من الشبكة، لكننا لا نعرف هذه النقطة.. لذلك يجب البدء من جديد.. فربما نُصيب في المرة القادمة!..

ما مصيرُ العالم؟

برهن العالم الفلكي «ادوين: هابل HUBBLE» عام ١٩٢٩م أن العالم يتمدد وفق نسبة ثابتة CONSTANT طورها هو نفسه. ففي كل دقيقة تنقضي يغدو العالم أكبر قداً، أي ينتفخ. ولكن هل سيستمر إجراء التمدد هذا دائماً؟ أو إنه سيأتي وقت يتوقف فيه عن التمدد ليشرع بطور التقلص؟

يتوقف مصير العالم - كما هو معروف منذ عقود - على كمية المادة الموجودة فيه. فازدياد المادة يعني ازدياد الجاذبية، فإن كانت الجاذبية من الشدة بما فيه الكفاية فستكون هي الوحيدة التي تستطيع أن تلجم إجراء التمدد الحالي، وأن تحدث دور التقلص (عالم مغلق)، إن نقصان المادة يعني نقصان الجاذبية، وفي هذه الحالة سيستمر التمدد إلى الأبد حتى ينطفئ النجم الأخير (عالم مفتوح). أما إذا كانت كمية المادة هي الكمية الصحيحة بلا زيادة ولا نقصان فعندئذ يمكن أن نبقى

علـى الخط الوسـطي بـين هذين الحـلين (عـالم مـتـعـادل). ومن البـديهي أن مـا يتـوجب علينـا القيـام به هو أن نحـسب لمرة واحــدة وعلى نحــو دقـيـق المادة الموجودة حولنا، وأن نعرف صنفها.

ليست المهـمة سهلة أبداً؛ فالكثير من مـادة العـالم مـادة لا تـلمع أو تتـألق، أي إنهـا مظلـمـة؛ ولا يمـكن كـشف المادة المعتمة في حلكة الفضاء.

ولقـد كـشـفت أجهـزة جـديدة تتـمـتع بمزيد مـن الدراية والحنكـة ازدياد المادة المظلمة.. فـعلى سبيل المثـال نقلت إلينا توابع الإشــعــاع مــا فــوق الأحــمــر ومراقيب مدارية أخبار سحب ضخمة من غبار بين المجرات، ونجوم مظلمة تُعـرف باسم الأقـزام البنيـة، وهالات مـاديـة حـول المجـرة، ونتـرينـووات وأكْسـونات ومـا فــوق حـبــال * وبنى دخـــيـلة أخـــرى حـــامـلة للـمـــادة اللازمة لإغلاق العالم!...

فهل يبقى العـالم مفتوحـاً؟.. أم سيأتي وقت ينْغَلق فيه؟..

لا عليك.. سيـأتيك بالأخـبـار من لم تزود.

هل هناك عوالم أخرى؟

كـان من المعـتـقـد منذ نحـو قـرن من الزمان أن الأرض هي مركز كل ما هو موجـود. أما اليـوم فقـد نَقَتْنـا التقـدمات المدهشـة للمـعـرفـة العلمـيـة إلى زاوية قصـية في مجرة ليس فـيها - باسـتثنائنا نـحن بـالذات - شـيء يمـيــــزها مـن المجرات الأخرى.



أينشتاين

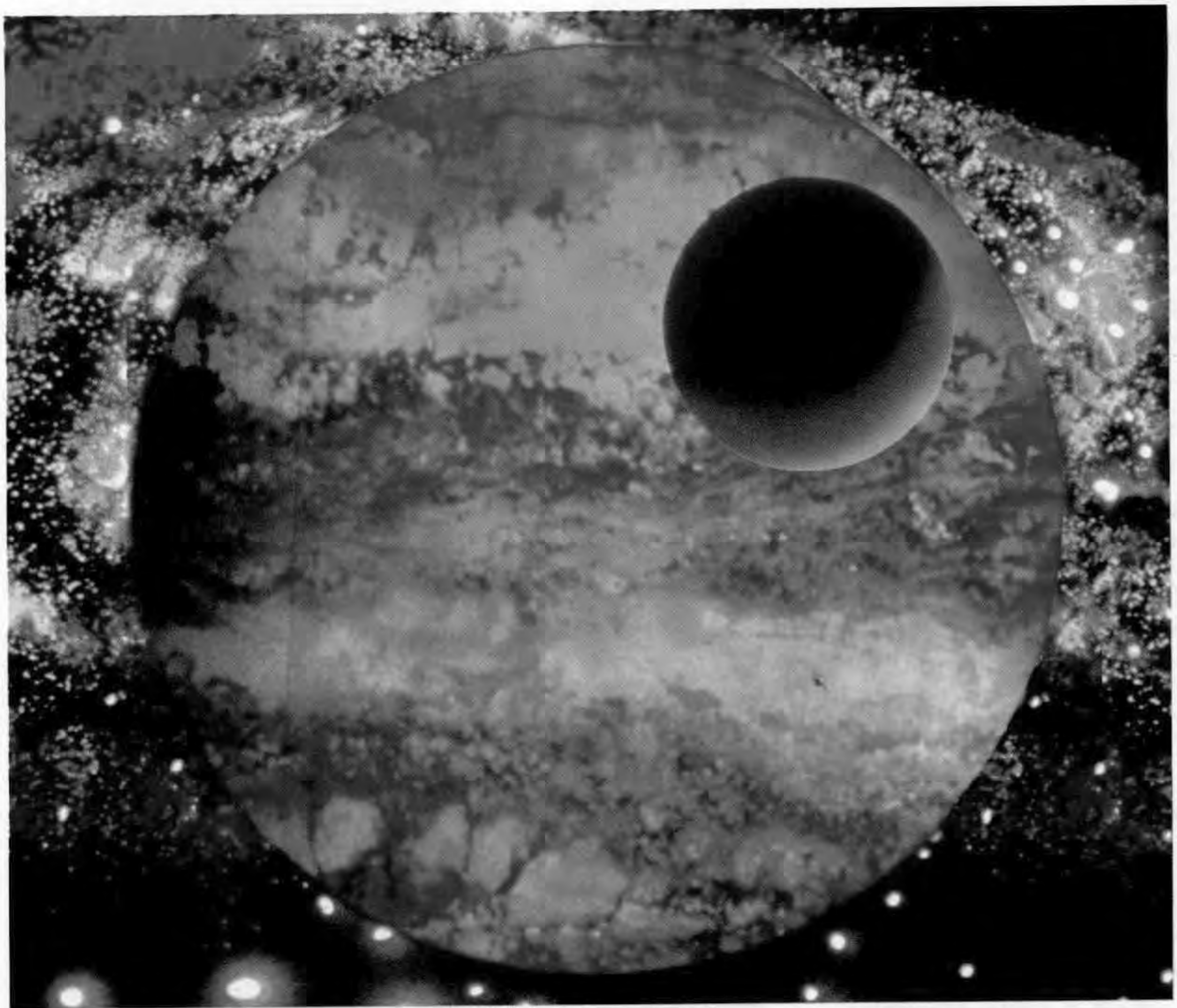
وهناك بيـانات ريـاضيــة - أو إن شئـتم رياضياتية - توحي بأن عالمنا ليس العالم الوحيد المحتـمل.. إن هناك عوالم حلقية وعـوالم فـقـاعـة.. وليس هذا فـقط، بل يمكن أن تكون هناك عـوالم أخرى قـبل عـالمنا، ويحتـمل أيضـاً نشوء مـزيد من العوالـم بعد اختـفاء عـالمنا، لا بل تتنطع بعض النظريات في دعم احتـمال وجود عوالم أخرى معاصرة لعالمنا وتنمو مثله في الوقت نفسه.

ولكـن تمهـلوا.. لا تدعــــوا الفــــزع ينتــابكم.. ليس هـناك مـا يدعــو إلى أن يؤثر ما يحدث في داخل عـالم محدد في أيٍ من العــوالم الأخــرى.. ولكـن مـا السبب في ذلك؟

إن كل عـالم على حـدة هو كلٌّ بذاته، إنه نظـام مـغلق ذو إحـداثيـات زمـان ومكان خـاصـة. ينْشأ هـذان المقـداران كلاهـما على الشـاكلة نفسـها التي تنـشأ فيـها المادة والطاقـة عندما يظهـر العالم. وهما مـقداران غيـر قابلين للتـبادل فيـما بينهـما. ومـرة أخرى ينشـأ سر العـوالم



ما الذي أدى إلى ظهور عالم وحيد في الانفجار الكبير؟



إن كل عالم على حدة هو كلٌ بذاته

المتـــوازية في الظـروف التي أنـشــأت الانفجار الكبير BIG BANG.

ولكن.. ما الذي أدى إلى ظهور عالم وحيد في الانفجار الكبير؟ لِمَ لَمْ يظهر عالمان أو عشرة عوالم أو عدد لا متناه منها؟

ألم يكن بالإمكان وجود فقاعات متعددة وأن تكون حقيقتنا في تَمَدُّدِ واحدة منها فقط؟ الله أعلم.

كيف تشكلت المجرات؟

على الرغم من أن الأمر هو أمر أحد الأسئلة الأولى التي صاغها لنفسه علم الكونيات* للعالم الحديث، إلا أن الإجابة لاتزال بعيدة المنال جداً، ذلك أن وجود المجرات نفسها يُعَدُّ تناقضاً في عالم كعالمنا. وتبرهن الحسابات على أن إحدى أكثر مميزات عالمنا بروزاً في أصلها ميزةُ الاتساق والانتظام. كانت درجة الحرارة متماثلة، وكذلك كان توزع المادة على شكل دقائق طاقية فعالة على نحو عظيم. ولا يزال إشعاع الأعماق** متسقاً إلى اليوم في أية نقطة أو أي اتجاه يتم فيه قياسه. لكن ما يدعو إلى الدهشة هو أن توزع المادة لم يستمر كذلك، وهذا ما يتطلبه وجودنا على وجه الدقة. وبالفعل يبدو كثير من المادة في الوقت الحاضر منتظماً في بنى كالكواكب أو النجوم أو المجرات المحاطة بفضاءات كثيرة.

إن الوجود نفسه لهذه البنى يلحق الخطر بأغلبية النظريات الحالية. ويصر العلم على هذه النظريات لثبات صلاحيتها في تفسير الحقيقة تفسيراً ناجحاً. كما أنه - إضافة إلى ذلك - يجهد لإيجاد تفسير للظواهر التي لا تتفق مع النظريات. لقد تمت محاولة كل شيء للحصول على تفسير وجود المجرات. وأحدُ السبل الأكثر حداثة هو ما قدمه جورج سموت G. SMOOT بمعطيات التابع كوب COBE حول ضروب تباين خاصيات أو تناحي ANISOTROPY إشعاع الأعماق، والشذوذات الصغيرة الحرارية الأصيلة التي يمكن أن يكون قد بدأ حولها تراكم المادة إلى أن تشكلت

جميع المجرات التي نراها اليوم.

ماذا كان هناك قبل الانفجار الكبير؟

يعتقد أغلب المعلمين أن سؤالاً كهذا هو سؤال ساذج، إنه من نمط الأسئلة التي يطرحها الجهلة غير المتضلعين من شيء..

إن هذا الطرح غير معقول لأن الزمن - إضافة إلى أمور أخرى - قد ظهر مع الانفجار الكبير أيضًا.. و«قَبْلُ» هو مفهوم زمني لا يمكن تطبيقه خارج الزمن نفسه.

ومع ذلك، فوفق بعض الحسابات التي تصدى لها في بادئ الأمر فريق صغير من المنشقين حول احتمال وجود عوالم أخرى، هذا الاحتمال الذي أخذ اليوم يتمتع بالقبول العام، يعود السؤال ليحظى بمدلول.

وهناك نظريات شتى حول الـ «قَبْل»، تقول أكثر هذه النظريات انتشارًا: إن عالمنا قد يكون في حالة ارتداد حول نفسه كفقاعة تنتفخ وتتقلص (تُنَفِّس)، وقد يكون الانفجار الكبير لحظة بداية أحد هذه الارتدادات فقط.

فهذه النظرية تقتضي أن يكون العالم الحالي مغلقًا، أي أن تتغلب فيه الجاذبية على قوة التمدد مؤدية إلى بدء مرحلة تقلص ليَغْدُوَ في نقطة ذات كثافة غير متناهية كما كان في الأصل. ومن ثم سيكون عالمنا وحده حلقةً وسط عددٍ غير محدد من الحلقات. نعم حلقةً خاصة جدًا توافرت فيها الظروف المناسبة لنشوء كائنات قادرة على التساؤل: ماذا كان قبل الانفجار الكبير؟..

ما ترتيب العالم؟

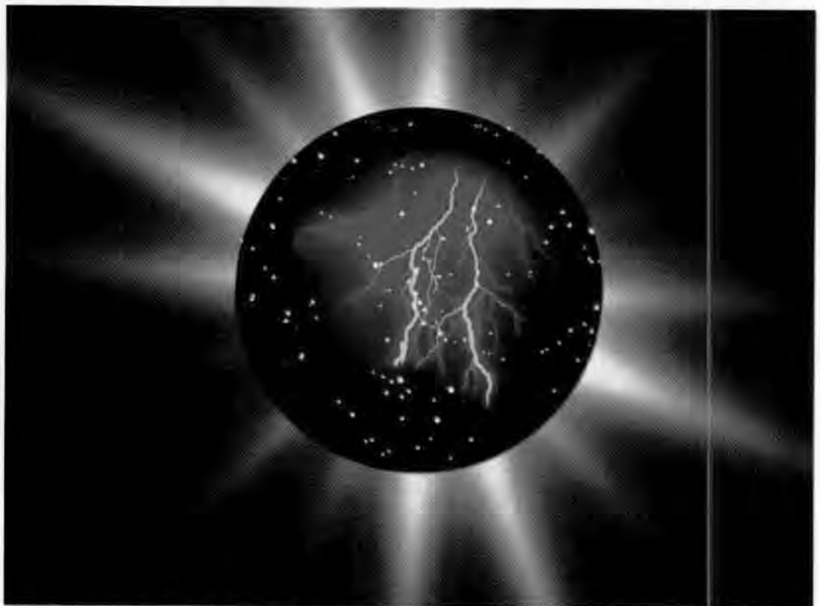
تتجمع الدقائق في ذرات، والذرات في جزيئات، والجزيئات في نجوم، والنجوم في مجرات، والمجرات في زمر، والزمر في ضروب من ركام، وضروب الركام في ضروب من ركام فوقية، وضروب الركام الفوقية في أسوار مجراتية تضم ملايين الأعضاء، والأسوار في...

ولكن! أين تنتهي هذه السلسلة؟

كلما تقدم العلم تظهر بنى جديدة هي دائمًا أكبر قدًا فتوقعنا في حيرة. فتشير أكثر الاكتشافات حداثة حول ذلك إلى نوع من رغوة بنية اللون خيطية الشكل تمتد على نحو منتظم على طول العالم. ويكون قَدُّ هذه البنى من الكبر ما يوافق كل نقطة صغيرة فيه ركامٌ مجراتي كامل. ويُعَدُّ قدُّ هذه الخيوط - على المقياس البشري - من الكبر درجة يصعب تخيلها. إلى هنا وصلنا.

إننا أصغر من أن نستطيع إدراك ترتيب معين على مقاييس أكبر من ذلك. مع أن من المؤكد جدًا وجودها.

وما يبدو واضحًا هو أنه كلما زدْنا في حقل رؤيتنا فإن الفوارق والفراغات الكبيرة - الفضاء ما بين النجوم أو ما بين المجرات - التي كانت تبدو على سلمنا واضحة، تكاد تختفي كليًا. ويتبدى العالم لنا مملوءًا بالمادة على نحو منتظم. إن مَثَلَ ذلك كمثل كائن منمنم متناه في الصغر يعيش في



إن عالمنا قد يكون في حالة ارتداد وقد يكون الانفجار الكبير أحد هذه الارتدادات

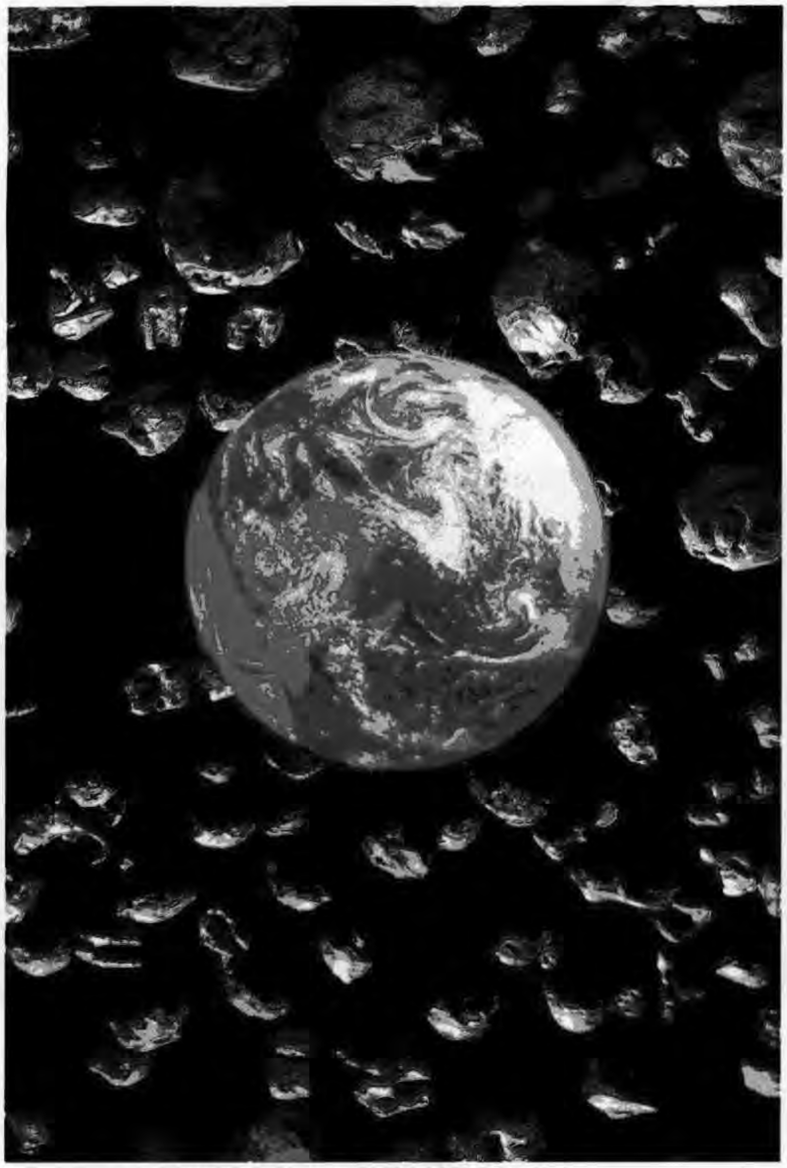


نواة ذرة في حجر، ويستطيع القفز من المقياس الذي هو فيه ليرى فجأة الحجر الذي تُشكلُ نواته الذرية جزءاً منه. سيبدو الحجر متسعًا اتساعًا غير محدود. غير أنه لو كان قادرًا على القيام بقفزة جديدة فإنه سيتبين أن هناك مزيدًا من الأحجار المساوية لحجره. وكثيرًا من الأحجار الأكبر من حجره، والتي تشكل فيما بينها جزءًا من جبل تحيط به جبال أخرى.. فهل يستوعب الذهن الصغير لكائننا المُنَمْنَم المتناهي في الصغر ضخامة كهذه؟

هل يمكن الترحال في الزمان؟

برهن ألبرت آينشتاين في بداية القرن العشرين على أن الزمن ليس شيئًا مطلقًا بل هو نسبي، إنه ظاهرة ذات علاقة مباشرة بالسرعة التي يتحرك بها مراقب، فبسُرْعات نِسْبية RELATIVISTIC قريبة من سرعة الضوء يتباطأ الزمن ويتمطى، ويمكن أن ينتهي به الأمر إلى التوقف. أما بسرعات أكبر من ٣٠٠٠٠٠كم/ثا فإن المراقب يذهب إلى الماضي.

ويُحدْثُ احتمالٌ آخر - هو الأكثر قبولاً - عن شبكة كاملة من ثقوب صغيرة سوداء - ثقوب الدودة - في النسيج المكاني الزماني للعالم. تصل هذه الثقوب بين مناطق مختلفة مثلها كمثل أنفاق القطار الكهربائي النفقي (المترو) التي تصل بين مناطق مختلفة في المدينة. وبما أن الثقب الأسود هو بالتعريف تمزقٌ في المكان - الزمان، فإنه عند الدخول في أحدهما والخروج من آخر نجد أننا في مكان آخر من العالم، كما نجد أننا في لحظة أخرى مختلفة عن لحظة انطلاقنا. ولا تزال هناك مشكلتان معلقتان: لم يعثر على ثقوب الدودة، ولا يُعْرَفُ بشكل خاص كيف يستطيع شخص البقاء على قيد الحياة في ضروب المدّ التجاذبية في داخل الثقب الأسود؟



سيكون عالمنا حلقةً وسط عددٍ غير محدد من الحلقات

والأغرب من ذلك كله الفكرة التي طرحها الأمريكي الشمالي غولد GOLD التي فحواها: إذا ما آل تمدد العالم في النهاية إلى التوقف، وبدأ طور التقلص أو الانكماش، فإن الحركة تنعكس إذ تبدأ المجرات عندئذ بالتجمع بدلاً من الانفصال، كما ينعكس المبدأ الثاني للترموديناميك، أي تنتقل الحرارة من الجسم البارد إلى الجسم الحار، وينعكس اتجاه سهم الزمن، أي إن الزمن يسير عندئذ راجعًا إلى الوراء كفيلم يدور منعكسًا، ويعود المتقدمون في العمر شبانًا، وتُستصلح الأوعية المكسورة فتعود سليمة كما كانت من قبل.. إنه احتمال محير وغني بالإيحاءات!..

ما أبعاد العالم وقواه؟

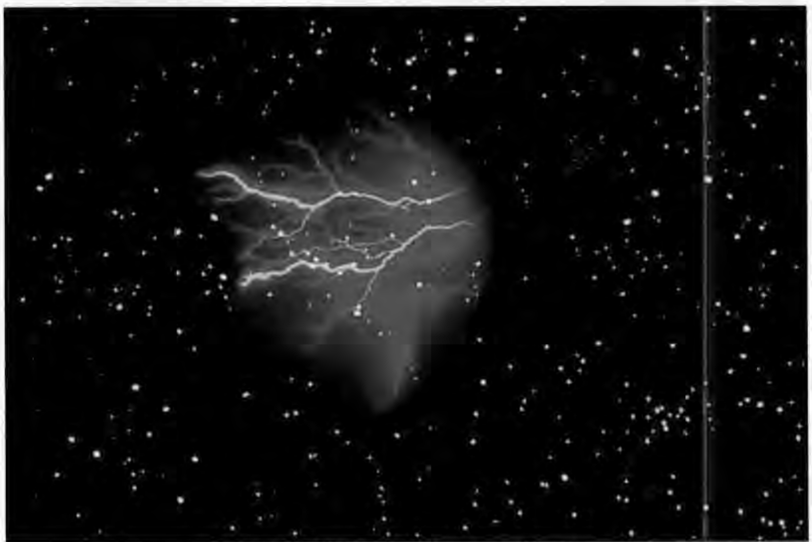
لقد غدا مفهوم الأبعاد الأربعة طرازًا قديمًا. فمنذ أن أضاف آينشتاين في مستهل هذا القرن البعد الزمني إلى الأبعاد الفضائية، وأُطلق على مفهوم الفضاء الاسم مكان - زمان فإننا نعرف أن حياتنا تجري على طول أربعة أبعاد مترابطة على نحو وثيق. أما المفاجأة فهي

صلاح يحياوي

في وجود سبعة أبعاد أخرى حولنا إلى جانب الأبعاد الأربعة المعروفة، فيكون المجموع أحد عشر بعداً.

فوفق حسابات العلميين تظاهرت هذه الأبعاد السبعة الإضافية الخفية في اللحظات الأولى بعد الانفجار الكبير، وما إن أخذ الكساء الأصلي الأساسي للدقائق التي نشأ عنها عالمنا بالتبرد حتى أخذت هذه الأبعاد بالتجمد ملتفة على نفسها.

ولكن كيف تقوم هذه الأبعاد بعملها؟ وما الفائدة منها؟



إن الثقب الأسود هو بالتعريف تمزقٌ في المكان - الزمان

إن ذلك واضح لدى الفيزيائيين على نحو حسن: إنهم يرون أنه لا يمكن وضع نظرية موحدة تجمع جميع القوى الأساسية للطبيعة إلا في عالم ذي أحد عشر بعداً. فالنظرية الموحدة هي القانون العالمي المنشود الذي قد يفيد في تفسير جميع الأحداث بلا استثناء. فحسب هذه النظرية كانت هناك في بداية العالم قوة واحدة فقط دعيت قوة فوقية، وهي مسؤولة عن جميع الظواهر. ولكنها تشذّبت بسبب البرودة بعد الانفجار الكبير حتى تحولت إلى القوى الأربع الأساسية المعروفة اليوم: الجاذبية والكهرطيسية والقوة النووية القوية، والقوة النووية الضعيفة. فإن كنا قادرين على توحيد هذه القوى من جديد، أي إذا ما حصلنا على النظرية التي تحقق تفسيرها معًا، فإننا نكون بلا ريب قد توصلنا إلى مفتاح السلطة المطلقة على الزمن والمادة والطاقة.

إلى أين تتجه مجرتنا؟

إن كل شيء يتحرك في العالم، ومنذ أن صاغ هابل HUBBLE نظرية الامتداد التي أثبتت مرات عديدة، فإن مما لا ريب فيه أن المجرات تتباعد بعضها عن بعض. ولكن هناك ضمن الخطّة العامة حركات أخرى أكثر تحديداً تسببها قوى مختلفة، من المرجح أنها قوى تجاذبية (تثاقلية) لاتزال مجهولة الأصل. فمجرتنا مثلاً تتجه مع جميع جاراتها من المجرات (المجموعة المحلية) التي تعدّ ما لا يقل عن ٢٠ مجرة، بكل سرعتها نحو ركام برج السنبلة أو العذراء VIRGO. أما إذا اتبعنا قوانين الامتداد فإن هذا ليس الاتجاه الصحيح.

ما الذي يجذبنا إذاً إلى هناك؟

وأي قوة خفية يمكن أن تغير اتجاه مجموعة المجرات في الفضاء؟ لننطلق من البداية. لحساب حركة مجموعة المجرات التي نَنْتسب إليها على المرقاب الموجود على الأرض أن يأخذ بالحسبان تراكب حركات شتى أصغر من حركتها، كحركة الأرض في مدارها حول الشمس بسرعة ٣٠كم/ثا، أو حركة جميع النظام الشمسي حول مركز مجرتنا بسرعة ٢٣٠كم/ثا، أو حركة مجرتنا درب اللبانة أو الدرب اللبنية MILKY WAY التي تتجه بسرعة ٤٠كم/ثا باتجاه أقرب جاراتها إليها ألا وهي مجرة المرأة المسلسلة AN-DROMADA. وبصرف النظر عن الحركات المذكورة، هناك حركة مجرتنا وجميع رفيقاتها في المجموعة المحلية بسرعة ٦٠٠كم/ثا نحو ركام العذراء. ومع ذلك فقد ثبت أن ركام العذراء لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن جميع هذه الحركة. ذلك أنه هو أيضًا يتحرك في الاتجاه نفسه.

ومهما يكن ما يجذبنا فإنه يجذب أيضاً ركام العذراء. والمرشح التالي هو الركام الفوقي المدعو الشجاع - قنطورس HY-DRA - CENTAURUS وذلك لمجرد أنه كان في الاتجاه الذي نتجه إليه.

وكم كانت دهشة الباحثين عندما اكتشفوا أن الشجاع - قنطورس، وهو تجمع مجرات أكبر بمئات المرات من ركام العذراء، كان أيضًا حبيسًا داخل جذب تجاذبي أو تثاقلي أكبر. وبما أنهم كانوا حيارى فقد أطلقوا اسم: الجاذب العظيم على ذلك الهائل القادر على أن يحرك نحوه بالذات آلاف المجرات كما لو كانت كواكب حول الشمس. ومهما يكن الجاذب العظيم فإننا جميعًا متجهون إليه لا مناص عن ذلك.

الهوامش والمراجع:

* ما فوق حبال أو حبال فوقية SUPERCORDS.
* علم الكونيات أو الكوزمولوجيا علم يبحث في أصل الكون وبنيته العامة وعناصره ونواميسه.
** بقايا حرارة الانفجار الكبير.
*** COSMIC BACK GROUND EXPLORER =COBE.

1 - Muy Especial No. 26 - 1996
2 - The new astronomy Malen Ruiz De Elvira
3 - La science d'avant guardi, Jose Manuel Nieves

من عالم الحيوان

البطريق

الحياة في ثلاجة

أحمد محمد محمد إبراهيم


يختفي البطريق الصغير تحت الأب أو الأم مستدفئاً بالزغب الذي يغطي منطقة البطن

لقد تم العثور على الهيكل العظمي لطائر البطريق ضمن حفريات القطب الجنوبي حيث يرجع تاريخه إلى أكثر من ٦٠ مليون سنة. وقد عثر على هياكل طيور البطريق في الحفريات التي تمت بجزر نيوزيلاندا وأستراليا وأمريكا الجنوبية. وكانت العظام التي عثر عليها لطائر البطريق ما قبل التاريخ عظام طيور البطريق الحالية نفسها ما عدا الاختلاف من حيث الحجم. فطائر بطريق الإمبراطور الذي عاش في ما قبل التاريخ تصل قامته إلى نحو مترين بينما النوع الموجود حاليًا يصل طوله إلى نحو ١,٣متر، ويزن ٣٠ كيلو جرامًا.

وطائر البطريق هو طائر بحري كبير الحجم قصير القدمين والجناحين ولا يستطيع الطيران. يوجد في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ولا يعرف أحد حتى الآن لماذا لا يوجد بنصف الكرة الأرضية الشمالي. وقد حاول بعض صائدي الحيتان من النرويج الذين يعملون بمنطقة القطب الجنوبي اصطحاب بعض طيور بطريق الملك وبعض الأنواع الأخرى إلى النرويج، وأطلقوا سراحها لتعيش هناك وقد وفروا لها كل سبل الحياة وظلت تلك الطيور على قيد الحياة عدة سنوات، ولكنها لا تتكاثر، ولا تقوم ببناء أعشاش الزوجية على تلك السواحل.

ولقد أطلق اسم البطريق على نوع من الطيور الضخمة التي تشبه طائر البطريق الحالي، ولكنها كانت تعيش في منطقة القطب الشمالي، وقد انقرضت تلك الطيور، وهي طيور الأوك Auk، وليس لها علاقة بطائر البطريق الذي يعيش في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ما عدا تقارب الشبه والمظهر.

ويوجد من طيور البطريق نحو ١٧ نوعًا تختلف من حيث الحجم والعلامات المميزة على الرأس والرقبة، ومنها الأنواع المشهورة التالية: بطريق الملك، وبطريق الإمبراطور، وبطريق جالاباجوس، وبطريق الحمار أو البطريق الإفريقي «ذو الأقدام السوداء» وبطريق

النطاط على الصخور، وبطريق الصغير الأزرق، والبطريق ذو الأعين الصفراء، وبطريق الأديلي.

مظهر طائر البطريق

تتميز جميع أنواع طيور البطريق بمنطقة بطن بيضاء أو بيضاء مشوبة بصفرة. أما منطقة الظهر فتتميز باللون الأسود، وقد يميل إلى البنيّ الغامق، أو الأزرق إلى رمادي، وهذا التجانس من الألوان لمنطقة الظهر يساعد الطائر على الاختفاء عن أعدائه في أثناء السباحة وسط الماء. أما الرأس فهو عادة أسود عليه علامات بيضاء واضحة وبعضها له ريش طويل يتوج جانبي الرأس كما يغطي الرقبة المكتظة القصيرة بريش لامع ملون. وتعد العلامات الموجودة على الرأس من العلامات القوية المميزة للنوع ونجد البعض يتميز باللون الأصفر والبرتقالي الذي يمتد إلى أعلى الصدر، أو يكون مخططاً أو بوجود حلقات بيضاء. كما توجد لبعض الأنواع مجموعة من الريش أعلى الرأس.

ومن الطيور المتوجة النوع المعروف باسم البطريق النطاط على الصخر أو الأحجار، ويتميز بوجود خصلات من الريش الملون بأعلى الرأس مع وجود زغب متموج أصفر اللون فوق منطقة العين أو على قمة الرأس. ويعد طائر بطريق الإمبراطور أشدهم جمالاً، حيث يتمتع بمنقار لونه قرمزي وأما الصدر فلونه ذهبي براق.

كما أن صغار طائر البطريق تختلف من حيث اللون والعلامات المميزة لها، وعلى سبيل المثال يتميز صغير طائر بطريق الإمبراطور باللون الرمادي، وهو يشبه الكتكوت في مظهره. كما تختلف طيور البطريق عن الطيور الأخرى في أن الريش الذي يغطي جسمها يكون صغيراً جداً مثل

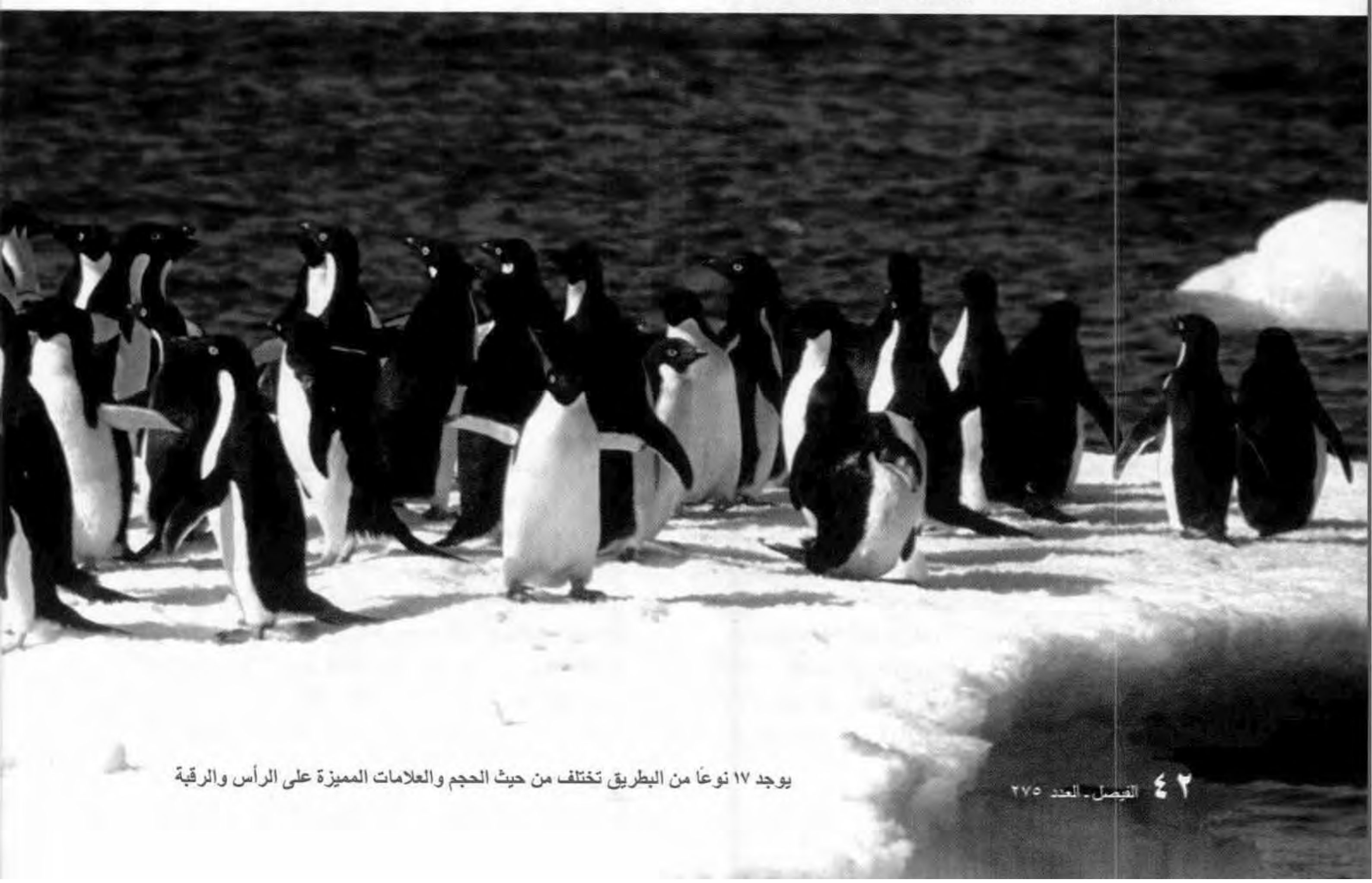


الرقص بتحريك الزعنفتين المجدافيتين مع إطلاق صوت أجش

الحراشيف أو الزغب يتلاحم بعضها مع بعض لتكون غطاءً واقياً للطائر ضد الماء البارد. كما أن بطريق همبولد الذي يوجد في شيلي وبيرو يزن ٤ كيلو جرامات ويأكل أكثر من ١.٥ كيلو جرام ونصف الكيلو من السمك يومياً، وخلال فترة تغير زغبه يأكل ضعف وجبته الغذائية العادية.

الصور الحركية لطائر البطريق

طائر البطريق له رقبة قصيرة، وجسم بدين، وذيل كثيف وقصير



يوجد ١٧ نوعاً من البطريق تختلف من حيث الحجم والعلامات المميزة على الرأس والرقبة



صغار طائر البطريق الإمبراطور تشبه الكتكوت في مظهرها

يستخدم كوسادة في أثناء الوقوف طويلاً تاركًا رجليه القصيرتين والضعيفتين مرتفعتين عن الأرض الباردة. كما يتميز معظمها بوجود منقار مقوس لأسفل. أما الذراعان فهما قصيرتان وكل ذراع مغلفة بغشاء جلدي ومتحورة على هيئة زعنفة مجدافية. ويستخدم الطائر ذراعيه في أثناء السباحة بالتناوب، بينما الرجلان قصيرتان وضعيفتان. وقدم الذكر مكففة بغشاء جلدي مفلطح مثل أرجل الإوز والبط ويستعملها مثل الدفة في أثناء السباحة، وكذلك في أثناء الوقوف منتصباً على الأرض أو على قطع الجليد السابحة بالمحيط.

ويمشي طائر البطريق بلهو من دون رشاقة، ويستطيع الجري إذا لزم الأمر. أما حركته على الجليد فتكون بقذف جسمه عادة على البطن للانزلاق، ويرتفع ثم ينخفض على بطنه، ويجدف برجليه مع استخدام الزعانف إذا كان مستعجلاً. وهذه الحركة مع انحدار وانزلاق تعرف باسم ←







البطريق الطائر النطاط على الصخور والأحجار يتميز بوجود خصلات الريش الملون بأعلى الرأس



الصورة الحركية للطائر. ويوجد نوع فريد من طيور البطريق يعرف باسم البطريق النطاط، حيث يتحرك على الصخور عن طريق القفز أو النط، ولكن حين الهجرة يستخدم الصورة الحركية العامة لانتقاله في أثناء سفره.

وتتشابه أنثى البطريق مع الذكر من حيث المظهر والحركة ويتدرج طول طائر البطريق وحجمه ابتداء من طائر البطريق الأزرق الصغير الذي يصل طول قامته إلى ٣٥ سنتيمتراً ويوجد في أستراليا ونيوزلاندا. بينما أطولها هو بطريق الإمبراطور حيث يبلغ طول قامته أكثر من المتر طولاً. وهذه الطيور اجتماعية بطبيعتها تعيش في جماعات تصل إلى عشرة آلاف طائر بعضها مع بعض.

السباحة والغوص عند طائر البطريق

يبدو طائر البطريق في أثناء سباحته كأنه يطير على سطح الماء بسرعة تصل إلى ٤٥ كيلو متراً في الساعة، ويستطيع أن يغوص لعمق عشرة أمتار، ويظل مدة دقيقة أو أكثر تحت سطح الماء، ثم يرتفع إلى السطح للتنفس وسرعان ما يختفي تحت سطح الماء مرة أخرى طالباً للغذاء الذي يتكون من الأسماك والقشريات واللافقريات البحرية.

وتتميز طيور البطريق بصوت أجش، فبعضها له صوق نقيق مثل نقيق الضفادع، وبعضها له صوت صراخ مدو. وقد أطلق على طائر البطريق المعروف باسم جاكاس اسم الحمار؛ لأنه يصدر صوت نهيق يشبه نهيق الحمار. وتعد تلك الطيور تحت حماية الحكومات، ويتعاون علماء ١١ دولة على رعاية طيور البطريق بمناطق وجودها بالقطب الجنوبي لحمايتها من الانقراض.

رقصات الابتهاج والترحيب

حتى الآن لا تزال أسباب هجرة طيور البطريق مجهولة وكذلك كيفية تحديد طريقها في أثناء الهجرة إلى أماكن التكاثر أو أرض اللقاء حيث تكون الرحلة التي يقطعها الطائر طويلة؛ وقد تزيد على ثلاثة آلاف كيلو متر، وبالإضافة إلى ذلك فإن الذكر يقطع ما يقرب من ٩٥ كيلو متراً أو أكثر بعد وصوله إلى أرض اللقاء سيراً أو انزلاقاً على سطح الجليد المكشوف معرضاً نفسه للرياح الباردة، والظروف الطبيعية الصعبة من أجل التعرف أو الوصول إلى مكان عشه القديم على أرض اللقاء، كما أنه يستطيع تمييز عشه



بطريق صغير بانتظار عودة الأم أو الأب بالغذاء



تشابه أنثى البطريق مع الذكر من حيث المظهر والحركة

يعرف البطريق طريقه إلى عشه القديم مهما بعدت المسافة





ينقل الأب أو الأم الغذاء إلى الصغار بوضع منقاره داخل منقار الصغار

القديم حتى ولو غطته أو حجبته الثلوج عن الرؤية.

وتصل تلك الطيور فرادى أو في مجموعات قليلة، وعادة تصل الذكور أولاً في منتصف شهر أكتوبر/تشرين الأول تليها الإناث. وتذهب الذكور مباشرة إلى أعشاشها القديمة التي بنتها في الأعوام الماضية، وتستطيع أن تهتدي إليها حتى ولو طمستها الثلوج، وتعيد بناءها من جديد في المكان نفسه. وبعد أن يهتدي الذكر إلى مكان عشه يبدأ الاحتفال بسلامة الوصول، ويعبر عن ذلك بواسطة رقصات الابتهاج التي يؤديها وهي مدّ رقبته رافعاً منقاره إلى السماء مع تحريك زعنفتيه المجدافيتين ببطء إلى الأمام وإلى الخلف، ثم يصدر صوتاً أجش Raucous ولكنه بالنسبة إلى الإناث ألحان عذبة تجذبها أو تناديها إلى مكان اللقاء وعندما تقترب الأنثى من مكان عش الزوجية تقف وجهاً لوجه أمام زوجها الذي تستطيع أن تتعرفه من خلال نبرات صوته المميزة له، وعلى الفور يحركان رأسيهما وعنقيهما مع إصدار نوع من الأصوات المشتركة تعرف بأنغام الترحيب ورقصات الابتهاج، وتكون كذلك بمنزلة إشارة تحذيرية للذكور الأخرى لكي لا تعتدي على حدوده أو تتعداها،



بطريق الصغير الأزرق

وعلى الفور يبدأأن في بناء عش الزوجية أو ترميمه بالتناوب.

وعش الزوجية قطع من الصخور الصغيرة الناعمة والحصى يحملها طائر البطريق بمنقاره، ويرصها في إطار منتظم حول شريكة حياته التي تتولى عملية الحراسة وسط منطقة العش، وتعمل على تدعيم الأحجار في شكل متقن وأحياناً تتناوب من وقت إلى آخر مع زوجها على عملية الحراسة. وفي حالة ما إذا أخطأ كل من الذكر والأنثى في تنظيم عملية تناوب الحراسة فسرعان ما تتبدد جهودهما وتختفي الأحجار التي جمعوها ويكون ذلك بواسطة الطيور الأخرى المجاورة التي تجدها سهلة المنال من دون أي مقاومة لتأخذها وتبني بها أعشاشها.

ويشارك بطريق أديلي في مناطق التكاثر نوع آخر من طيور البطريق يعرف باسم بطريق تشن سترب Chinstrap Penguin ولكنه يبدأ في بناء أعشاشه متأخراً بنحو شهر. وعندما تبدأ صغار بطريق أديلي في الانضمام إلى دور الحضانة يبدأ بيض بطريق تشن سترب في الفقس، وتخرج صغاره لتبدأ في تكوين دور حضانة مستقلة بجانب دور حضانة صغار بطريق أديلي مع فارق العمر بينهما.

أما بطريق الماكاروني Macaroni Penguin فإنه يتكاثر أيضاً بمنطقة القطب الجنوبي، ويضع بيضة واحدة كبيرة وأخرى صغيرة. أما البيضة الكبيرة فتفقس لتعطي صغيراً واحداً، وتظل البيضة الصغيرة الأخرى كما هي لتصبح غذاء جاهزاً للصغير عند خروجه إلى الحياة، وربما أخذت رقصة الماكاروني الحديثة عن رقصة الابتهاج والترحيب التي يشتهر بها هذا الطائر.

وفي منتصف شهر نوفمبر/تشرين الثاني وبعد نحو ٣ أسابيع من الوصول إلى عش الزوجية تضع الأنثى البيض، ويكون عدد البيض حسب نوع طائر البطريق. وعادة يكون بيضتين وأحياناً ثلاثاً بينما تضع أنثى بطريق الإمبراطور والملك بيضة واحدة فقط. يغلف البيضة درع سميك لونه أبيض أو أبيض مخضر وأحياناً يكون مبرقشاً، وتذهب الأنثى بعد وضع البيض إلى البحر طلباً للغذاء على أن يتولى الذكر عملية حضانة البيض بالتناوب مع الأنثى. بينما نجد أنثى بطريق أديلي تصوم ٢١ يوماً قبل عودتها إلى البحر طلباً للغذاء، وتظل قائمة على حضانة البيض. وفي بداية حضانة البيض بواسطة الذكر يكون وزنه نحو ٦ كيلو جرامات ثم يبدأ الصيام مدة قد تصل إلى ٦ أسابيع معتمداً على الدهن المختزن تحت جلده. ويفقد الذكر نحو ٤٠٪



أسباب هجرة البطريق لا تزال مجهولة



يلتمس البطريق الرزق في البحر



لحظات استرخاء على الشاطئ بعد يوم حافل



يتدحرج من أعلى قمة جليد

من وزنه. وحينما يفقد الذكر كثيراً من وزنه فإنه غالباً ما يمرض بمرض صدري في رئتيه. وغالباً ما تكون إصابته قاتلة حيث يسببها نوع من الفطريات ينمو داخل الرئة والشعيرات الهوائية. وأحياناً يشفى من ذلك المرض بعد انطلاقه للغذاء والمرح ليستعيد نشاطه الحيوي. وقبل عودة الذكر إلى البحر طلباً للغذاء يقوم بتثبيت العش وتقويته ببعض الأحجار الإضافية ويرصها حول العش، ثم تتولى الأنثى عملية الرقود على البيض. وحينما يذهب الذكر إلى البحر طلباً للغذاء ليستعيد حالته الطبيعية والصحية ووزنه المعتاد عادة يمكث مدة إسبوعين في طلب الغذاء، ثم يعود للتناوب مع الأنثى في حضانة البيض. وتراوح مدة فقس البيض من ٣٠ إلى ٦٠ يوماً حسب نوع طائر البطريق. وقد يهلك البيض قبل الفقس نتيجة لسوء الأحوال الجوية. ففي أحد الأعوام عند خليج الأمل حطمت العواصف الثلجية نحو ٩٠٪ من بيض طيور البطريق قبل أن يفقس وهلكت الأجنة داخل البيض. كما أن بعض طيور البطريق التي تعيش في المناطق الدافئة نسبياً تستطيع أن تتكاثر في معظم فصول السنة فمثلاً بطريق الجلاباجوس الذي يعيش بالإكوادور يضع بيضة في أي وقت من أشهر السنة.

وتخرج الصغار من البيض يغطيها زغب صغير، ويقوم الوالدان بحراسة صغيرهما أو صغارهما حسب نوع الطائر. والمشهد المألوف أن يختفي الصغير أو الصغار تحت الكبار مستدفئة بالزغب الذي يغطي

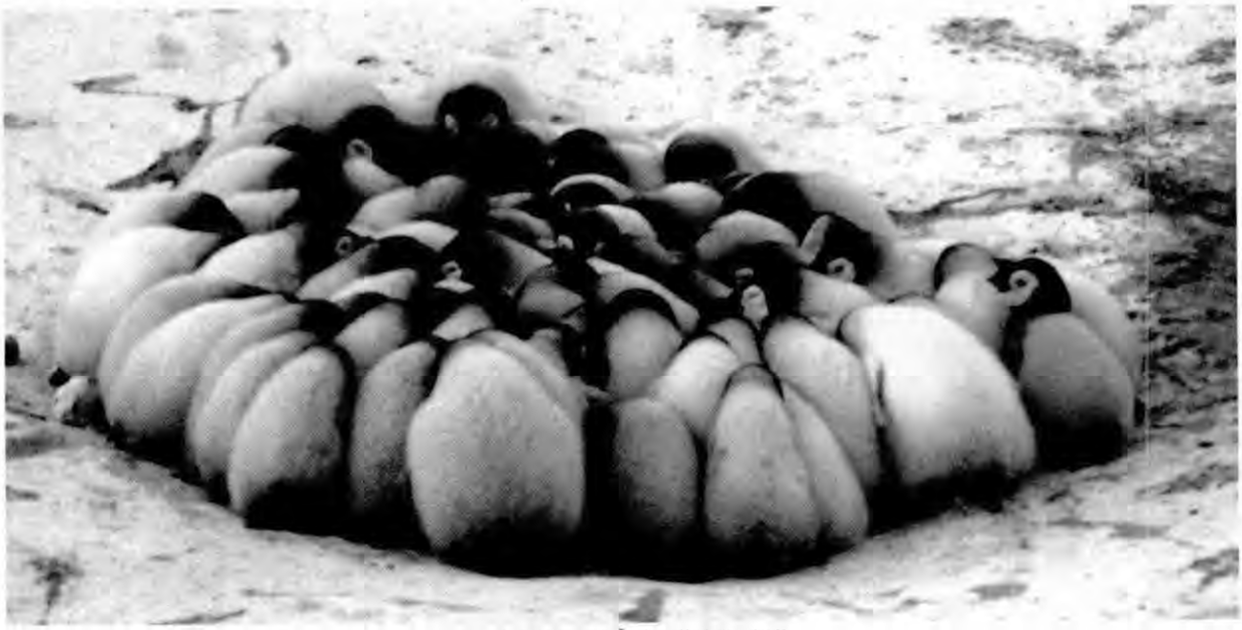
منطقة البطن. ويتبادل كل منهما تلك الحراسة للصغار لإخفائها عن الأعداء. وتذهب الأم عادة إلى البحر طلبًا للغذاء، وتقف الصغار على الأحجار في رعاية بعض الأفراد الأخر ترقب عودة الأم أو الأب في أثناء وجودهما في البحر طلبًا للغذاء. ويعود الأب أو الأم بمعدة ممتلئة بالغذاء وينقل الأب أو الأم بعض الغذاء المهضوم إلى الصغار عن طريق وضع منقاره داخل منقار الصغير وإعادة بعض الأسماك المهضومة من معدته لينقلها إلى الصغير مباشرة، ويستطيع الصغير أن يأكل نصف

للصغار ضد الوحوش المفترسة، وكذلك الطيور الجائعة. ويعد طائر الكركر Shua، وهو طائر مائي يشبه طائر النورس من ألد أعداء صغار البطريق إذ يهاجم دور الحضانة ليلتهم الصغار الجوعى والمرضى، وكذلك الصغار المنفصلة أو المنشقة عن مجموعة الحضانة.

وقد قام العلماء بدراسة كيفية اهتداء الوالدين لصغيرهما أو صغارهما وكان ذلك عن طريق تمييز مجموعات من أفراد بطريق الأديلي بنوع مميز من الصبغ أو بترقيمها بأرقام

من زغب الطفولة لتستبدله بزغب الكبار الذي يشبه الريش، وفي بعض الأنواع مثل بطريق الأديلي يتغير زغبها كل عام.

ويبدأ أول درس لسباحة الصغار بوقوفها على الشاطئ في جماعات مع إصدار ضجيج عال. يلي ذلك أن تقذف الصغار نفسها في الماء من دون مساعدة من الكبار، ويكون ذلك في مجموعات قليلة. وسباحة الصغار هي هبوط وارتفاع إلى سطح الماء مع إحداث فقاقيع هوائية بالماء نتيجة الحركة غير المنتظمة للصغار، وفي تلك الحالة تكون عجول أسد البحر قريبة من



الكبار تترك الصغار في مجموعات كبيرة

كيلو سمك مهضوم في الوجبة الواحدة على أن يطعم كل يومين مرة. كما لوحظ أن بعض الصغار تطعم من طيور أخرى غير والديها في أثناء غيابهما. وبعد أربعة إلى خمسة أسابيع يترك الصغير العش، ويكون قد تكونت لديه طبقة كافية من الدهن تحت سطح الجلد تقيه شر البرد. بينما يقضي الوالدان معظم أوقاتهما في الماء طلبًا للغذاء ويعودان فترات وجيزة لإطعام الصغار. كما أن الكبار تترك الصغار بعضهم مع بعض في مجموعات كبيرة قد تصل من ١٠٠ إلى ٢٠٠ صغير على هيئة دار حضانة وذلك لحمايتها في أثناء غياب الكبار. ويوفر تجمع الصغار في دار الحضانة الدفء اللازم لها وحمايتها ضد العواصف الثلجية العنيفة التي قد تقضي على نحو ٤٠ إلى ٨٠٪ من الصغار. كذلك تمثل دور الحضانة حماية

معدنية حول الزعنفة. وقد لوحظ أن الوالدين يستطيعان تمييز صغيرهما من بين مئات الصغار الأخر كما أن الأب والأم والصغير يهتدي بعضها إلى بعض عن طريق نداءات مميزة يستطيع كل واحد منها تمييزها. وعند لقائها تقوم ببعض الرقصات المرحة المتبادلة بإصدار بعض الأصوات ذات النغمة المحددة تليها حركات مميزة يشارك فيها كل من الأب والأم والصغير في حركات يشع منها المرح وتمتلئ المنطقة بفرحة الصغار لعودة الكبار.

وبعد أن تصبح الصغار قادرة على تمييز والديها يقود كل من الوالدين صغيرهما أو صغارهما خارج دور الحضانة لتدريبها على الانزلاق أو تدريبها على اقتناص غذائها. وبعد نحو ٩ أسابيع يصبح الصغير مماثلاً لوالديه من حيث المظهر. وفي العام التالي تتخلص الصغار

المنطقة، ويسيل لعابها على إثر سماعها ذلك الضجيج لتبدأ عملية اقتناص العديد من صغار طيور البطريق تحت التمرين.

وتصعد الصغار المتبقية إلى قمم الثلوج حيث توجد الكبار طلبًا للحماية ولقضاء فصل الشتاء وتظل الصغار في مكانها لعاميها الثاني والثالث ولا تعود إلى والديها حتى تبلغ من العمر ٣ إلى ٤ سنوات وتصبح مثل الكبار في تصرفاتها وتقوم ببناء أعشاش الزوجية غالبًا بالقرب من مكان ولادتها وقد تنضم إلى قطيع آخر إذا ما تأخر وصول القطيع المنضم إليه والداها.

المراجع:

American Encyclopaedia
American Youth Encyclopaedia
Encyclopaedia Britannica
Series of the National Geographic Journal, Washington.D.C.
Sedd aquarium society, 1980 Aquatic life aguide to exhibit
Animals by. Shedd aquarium society. Chicago, Illinois, U.S.A.

الأدب هوية العرب...

مسعود بوبو

كان مفهوم الأدب في أقدم دلالة لغوية له يتجه إلى الطعام: في صنعه، والدعوة إليه، وتناوله في مَأدُبة جامعة. ويبدو أنه كان على من يشتركون في الولائم أن يراعوا ما سُمِّي فيما بعد بآداب الطعام والمؤاكلة.

ومن الإشارات المبكرة إلى ذلك قول طرفة بن العبد(١):

نحن في المَشْتاة ندعو الجَفَلى
لا ترى الآدب فينا يَنْتَقِرْ

والجَفَلى والأجْفَلى: الجمع من الناس المدعوين. وينتقر الآدب: يدعو بعضهم دون بعض، ينقر باسم الواحد بعد الواحد، وهذه الدعوة هي النَّقَرى، نقيض الجفلى. وقال ابن منظور: و«الأدب: الظرف وحسن التناول»(٢). وإذا لم يكن الإنسان قد دُرِّب وربي على ذلك، كان عليه أن يروض نفسه على إتقانه. وهكذا تطورت الدلالة اللغوية للأدب فصار يعني رياضة النفس بالتعليم والتهذيب والصقل تطلعًا إلى الكمال. وقديمًا كانوا يقولون للبعير إذا رِيض وذُلِّل: أديب مؤدب، أي إن هذا الجمل قد رُوِّض على تعلم السلوك السوي الموافق لاحتياج صاحبه في أداء الأغراض المسخّر لها منزَّهًا عن فوضى السلوك، ومعدًا ليكون عنصرًا فاعلاً في حياة مهذبة منظمة. واعتمادًا على مثل هذا التصور صار الأدب يعني جملة ما ينبغي لذي الصناعة أو الفن أن يتمسك به، كأدب القاضي، وأدب الكاتب، وأدب النديم.. وغير خفي أن في ذلك تجميلاً وتحسينًا للحياة والمجتمعات، وأخذًا بهذا المعيار الجمالي صار الأدب فيما بعد يعني الجميل من النظم والنثر وكل ما أبدعه العقل الإنساني في هذا الميدان.

أثر عظيم ومبكر

وكانت أداة الأدب عند العرب اللغة العربية، ومادته كانت تشمل علوم اللغة كالنحو والصرف وعلوم البلاغة من البيان والبديع والمعاني، إلى جانب علم العروض والقوافي والخط والإنشاء الأدبي والمحاضرات والمناظرات والخطب والرسائل والوصايا والحجاج والتوقيعات.. إلى غير ذلك مما يمثل مقومات الثقافة العامة والمعارف المتنوعة التي في صدارتها الشعر والنثر والنقد. وكان للأدب أثر عظيم ومبكر في حياة العرب منذ فجر تاريخهم المعروف حين راح يتّجه بهم إلى صقل أذواقهم في فن القول ومواقفه ومناسباته، نذكر من ذلك شاهدًا عرضيًا على سبيل التمثيل والمدخل لنتسع بعد ذلك في تبيان آفاق أخرى من التأثير الذي كان يزداد ويغتني مواكبًا تطور الحياة العربية واغتناءها. يقول هذا الشاهد الذي ذكره ابن الكلبي إنه «لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة واسترد ملكه منها أتته وفود العرب تهنئه وتمدحه، ومنهم وفد قريش، وفيهم عبدالمطلب بن هاشم، فاستأذنه في الكلام، فقال له سيف: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك أذنّا لك، فقال عبدالمطلب: إن الله تعالى - أيها الملك - أحلك محلاً رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أُرومته، وعزّت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن، فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يَخْمُل من أنت سلفه. نحن أيها الملك حَرَم الله وذمّته، وسَدَنَة بيته، شخصنا إليك الذي أبهجنا لك، فنحن وفد التهنئة لا وفد المَرزئة (أي لسنا وافدين طمعًا في عطاء). فقال سيف: مرحبًا وأهلاً، وناقة ورحلاً، ومناخًا وسهلاً، ومَلِكًا ربحلاً، يعطي عطاءً جزلاً»(٣).

فقول سيف بن ذي يزن: «إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك» دليل مبكر على أن المنتدب للقول في الوفادة ينبغي أن يكون قد أُعدّ لهذه الغاية وأصبح صالحًا لها. وفي هذا الخبر دليل آخر على مصداق هذا الإعداد فعلاً بما جاء به من فن القول وأسلوبه البياني السجعي الموقع، وفي توازي العبارات وازدواجها عند الطرفين المتخاطبين. وهذا مما أسس لنوع من فنون القول صار موروثًا تقليديًا استمر نحو أربعة عشر قرنًا عند فريق من كتاب الإنشاء الأدبي.

ولا يخفى أن كلام سيف بما تضمنه من سجع كان شبيهاً بسجع الكهان الذي استنكره النبي صلى الله عليه وسلم حين نهر رجلاً تكلم بهذا الأسلوب قائلاً له: أسجعاً كسجع الكهان؟! أو قال: إياكم وسجع الكهان. قال ابن منظور: «.. وإنما ضرب صلى الله عليه وسلم المثل بالكهان لأنهم كانوا يروجون أقاويلهم الباطلة بأسجاع تروق السامعين، ويستميلون بها القلوب، ويستصغون إليها الأسماع، فأما إذا وضع السجع في مواضعه من الكلام فلا ذم فيه»(٤).

فقول ابن منظور هذا يشير إلى أن «الأسجاع»، وهي أقدم مظهر من مظاهر الأدب وألوانه عند العرب، كانت ذات تأثير فعال يستهوي الأسماع، ويستميل القلوب، وكانت تنطوي على ما يمكن أن يسمى فتنة اللغة.

الصوتية الإيقاعية تأثير بالغ

ولا يخفى على من نظر في تاريخ العرب وتراثهم أن الصوتية هي التي كانت معقد اهتمامهم، ومحور إبداعهم في الاستماع والإنشاد والرواية والأرجاز والغناء.. ثم اتصل ذلك وتأثيره في نفوسهم أداء وإلقاء، وظهر جلياً مجوداً في قراءة القرآن الكريم: في الترتيل والتلاوة والحدر، وهي أبرز علومهم في الأداء والإلقاء، بل ليس للعرب، قديماً وحديثاً، قواعد علم للإلقاء بعد التجويد. كما اتصل طابع السجع والإيقاع الصوتي واستمرا في فن المقامات والمكاتبات والمخاطبات وعنوانات الكتب.

وأمّا في الشعر، فإنّ الصوتية الإيقاعية كانت بالغة الأثر في نفوس السامعين، وكانت من أسباب شيوع هذا اللون من الشعر وانتشاره في الآفاق، وحفظه في الذواكر والصدور. وغنيٌ عن القول أنّنا لن نستطيع أن نستقصي نماذجه، وليس ما نحن فيه معقوداً على ذلك ولكننا نذكر منه شواهد عارضة كمعلقة عمرو بن كلثوم التغلبي في الفخر، ونختار منها قوله:(٥)

لنا الدنيا ومن أضحى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا بلغ الفطام لنا صبيٌّ
تخرّ له الجبابر ساجدينا
ملأنا البرّ حتى ضاق عنّا
ووجه الأرض نملؤه سفينا

وقد بلغ من أثر هذه القصيدة الحماسية أن صارت محلّ فخر قبيلة تغلب في كلّ مناسبة ومكان وفرد، مما لفت نظر الناس وحمل شاعراً على هجومهم بها قائلاً فيهم البيت المشهور(٦):

ألهى بني تغلب عن كلّ مكرمة
قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

وكان من مثلها بعض شعر عنترة، كقوله في «معلّقته»(٧):

ومدجّج كره الكماة نزاله
لا ممعن هرباً ولا مستسلم
جادت يداي له بعاجل طعنة
بمثقف صدق الكعوب مقوّم
برحيبة الفرغين يهدي جرسها
بالليل معتسّ السباع الضرّم
كمشت بالرمح الطويل ثيابه
ليس الكريم على القنا بمحرّم

وتمضي المعلقة تخبّ خبباً متلاحقاً بهذا الإيقاع الذي يؤزّه البحر الشعري «الكامل»، ويبدو الشاعر، وكأنه فعلاً فارس «لا يُشقّ له غبار».

وامتدت اللغة بهذه الصوتية العالية، وتجلّت كرجع الصدى في قصائد كثير من الشعراء اللاحقين مثل: يزيد بن الصعق الكلابي، وعديّ بن الرقاع العاملي، وقطري بن الفجاءة، والكميت بن زيد ، والطّرمّاح وغيرهم.. ولعل خير ما نستشهد به من أمثلة هذا الشعر الحماسي أو الغاضب، أو المشحون بالمبالغات المستحسنة، بعض قصائد المتنبي كما في قوله يمدح سيف الدولة الحمداني:(٨).

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا
وموج المنايا حولهم متلاطم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجوزاء منه زمازم

مبعث الصخب الجميل

أكان هذا صوغاً احتفاليا لإيقاع الحياة نفسها؟ أم كان رصداً وتسجيلاً لكل ما يجري حول الإنسان من حركة وصوت، أو ما يغتلي في داخله من نوازع وهواجس وصبوات؟ أم كان احتفاء فنياً بخفوق رايات الشفاهية وتعزيزاً لحميمية التواصل والحوار؟ أم لعله كان ضرورة أملتها طبيعة البيئة والمجتمع حيث تنفسح الأرض وتمتد المسافات وتتباعد الخيام والمنازل فيحتاج إلى رفع الصوت للإبلاغ؟! أو لعله كان امتداداً لإيقاعية الحداء ونضح المياه والمناجزة في الحروب؟ أو كان تعزيزاً لقوة الأشياء ومؤازرة لما يراد إمضاؤه؟! أو كان وليد ذلك كله؟!.

أيّاً كان مبعث هذا الصخب الجميل فقد



الدعة والاستقرار جعلا وصف الطبيعة من أهم أغراض الشعر في المغرب العربي والأندلس

كـان له في الأفئدة والأسماع مـهـوى. لغـة انفعاليـة تتوثب في مواجهـة الخمول الروحي، وتعدي المسـتمع والمتكلم بما يشـبـه الطرب والنشـوة، وكـأن للكلام الموقّع الجـمـيل سطوةً مشوبة بالسـحر، أو مقدرة على إيقـاف المسير والإمسـاك بحـاسـة السـمـع ووعب القلب؟! يقول الدكتور مصطفى ناصف:

«لقد كان هناك إحساس قـوي بأن الذي يملك اللغة خليق بأن يسود في المجتمع»(٩).

هذا الحكم يشيد بما للكلام، أو للإبداع من أثر، قـد يرضي العقل، أو يسـتمـيل القلب، أو يستثـير الحفـيظة. ولا يخفى على المتأمل أن الكلام مـن «الكَلْم» بمعنـى الجـرح، والمكلِّم: المجرِّح والخاطب، فالكلام على ذلك يمكن أن يجـرح بتـأثيـره، ويمكن أن يكـون ذا خطر وقـهر. جـاء في كـتـاب «أنساب الأشـراف» للبلاذري (علي وبنوه): من كتـاب سالم كاتب هشام: «وقدم زيد بن علي علي أمير المؤمنين في خصومة، فأرى رجلاً جدلاً لسناً حولاً قلّباً خليـقًا بصـوغ الـكلام وتمويهـه، واجـتـرار (اجتذاب) الـرجـال بحـلاوة لسـانـه وكـثـرة مخارجه في حججه وما يدلي به عند الخصام من العلو على الخصم بالقوة المؤدية إلى الفلج، فعـجل إشخاصـه إلى الحجاز ولا تدعـه العام قِبلك»(١٠).

حلاوة اللسان إذن تجر الرجال، وباللسان يعلو الخـصم على الخـصم مـحـسنا الإدلاء بحججـه حتى الغلبة، وفي اللغـة قدر وافر من أسلحـة المنازعـة وأدوات الحـجـاج: في الخـصـومـة، والمداعبـة، والمهاجـاة والتـودد، والإقناع، وحـتـى في المديح الموشى بالتـلفـيق والمطوي على التكاذيب.. أجل «أصبح القادر على اللغة من بعض الوجوه، خليـقًا بأن يبعث الرهبة في النفوس»(١١).

مـا يقـارب الكمـال في الإبداع المؤثر أن يتقاسم العقل والإحساس حصـتيهما من بهجة الأداء اللغـوي بالإنصـاف والتـسـاوي.. أن يـتـغذيا بنشـاط الكلمات في ما يشبـه النقـاهة والاستجمام ومتعـة التذوق والافتنان ترفًا.. أجل إن الأمـر كمـا قال النبي صلى الله عليـه وسلم: «إن من البيان لسحرا».

إبداع شقّ فجاج الأرض

وكان لهـذا اللون من الإبداع الأدبي الذي يخاطب الأسـماع والعقول مجرى آخر يشق طريقه مع جيوش الفـتوح في فجاج الأرض، وفي القلوب العـامرة بـالإيمان، حتى ليـذهب بك الظـن إلى أنّه كـان يمتـد بتـأثيـره إلى نواصي الخـيول وأغـمـدة السـيوف ويجـعل الأرض تغـتلي شـوقـًا إلى الاتسـاع برايات النصــر. مـرة يكون من الخـليـفــة خطاباً أو كتـاباً، ومرة يكون وصية والجـيوش تنطلق، ومرة يـكون توجيـهاً وتشـجيعاً من أب أو أم (كـالذي فـعلته الخنساء حين أوصت بنـيها بصـدق الجهـاد)، ومرة يكون خطاباً وعظيًا من بلغاء وفـقهاء يرافقون الجـيوش لمثل هذه الأغـراض الدينيـة في إطـار حـمل الرسـالة وإنفـاذها، ومرة يكون خطبـة من أميـر قبـيل بدء المعركة. نذكـر من ذلك خطبة طارق بن زياد حين عبر بجيشه المضيق المسمى باسمه إلى الأندلس، وحرق السفن التي أقلتـهم، كما يروى، ثم قـام فـيـهم خطيـبـاً يحـضّـهم على الجـهاد، ومما قـال: «أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعـدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصـدق والصبر، واعلمـوا أنّكم في هذه الجـزيـرة أضـيع من الأيتـام في مـأدب اللئـام، وقـد اسـتـقـبلكم عـدوكم بجـيـشه،، وأسلحتـه وأقـواته موفـورة، وأنتم لا وزَرَ لكم (ملجـأ) إلاّ سـيـوفكم، ولا أقـوات إلاّ مـا تسـتـخلصـونه من أيدي عـدوكم.. واعلمـوا أنكم إن صبرتم على الأشقّ قليلاً، استمتعتم بالأرفَه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفـسـي فـيـمـا حظكم فـيـه أوفـر من حظي»(١٢).

الأسجاع أقدم مظهر من مظاهر الأدب وألوانه عند العرب، وهي تنطوي على ما يسمى فتنة اللغة

ونذكر من ذلك أيضـاً خطبة أبي عبـيدة بن الجـراح في وقـعــة الـيـرمـوك لما برز المسلمون إلى الروم، قال:

«يا عـبـاد الله! انصـروا الـله ينصـركم ويثبت أقـدامكم، فإنّ وعد الله حق، يا معـشر المسلمين اصـبـروا، فـإن الـصـبـر منجـاةٌ من الكفر، ومـرضاة للرب، ومدحضة لـلعار، فلا تبرحوا مـصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبدؤوهم بقتـال، وأشرعوا الرماح، واسـتتروا بالدّرق، والزمـوا الصـمت إلا من ذكر الله، حتى آمركم إن شاء الله»(١٣).

إنّ أمثال هذه الخطب بما تظاهر فيها من بيـان لغوي، وتزيين لقيم المروءة والشـجاعـة في النفـوس، وإعـلاء مـن شـأن العـقـيـدة في الصـدور، كـانت من العـوامل الحـاسـمـة في النصـر ونشـر الإسـلام واللـغـة العـربيـة في الآفاق المتـرامية الأطـراف من حدود الصين إلى حـدود فرنسـا، ومن حـدود روسـيا وبلاد الروم إلى إفـريقـيــة، ومن بحـر الهـند إلى المتوسط والمحيط الأطلسي.



مصطفى ناصف

وكـان للعرب في أدبهـم النثـري خطب تربوية تـسـهم في بناء المؤسـسـة أو الخليـة الاجـتـمـاعـيـة الصـغـرى، تلكم هي خطب الزواج التي كـانت تقدم خـلاصــة تجـارب الأبوين أو الأقـرباء والأولياء لـلمقدمين على الزواج، وهذا سبق مـبكّر في بناء المجتمعات بالمسـاعـدة والرعـاية والنصح، وبـأسلوب مـشـرق بليغ يلـقى في النفـوس اسـتـجـابةً وارتياحاً.

ولا ننسى الخطب والوصـايا التي كـانت تعدّ الناس وفق منهجية تربوية إنسانية تسعى إلى إرسـاء أسس التقـاليـد الحـميـدة والمناقب والمثل النبيلة التي كانت ذخيـرة العرب ومحل فخرهم واعـتزازهم، ومحتكماً لحل خلافاتهم ونزاعـهم عند وجـوه القـوم، وتبـياناً عـمـا في نفـوسـهم ومـا عـزمـوا عـليـه في الوفـادات، وإعـلاء لشـأنهم وقوميـتـهم، كـالخطب التي قيلت أمام ملوك اليمن وبين يدي كسرى ملك الفرس، ثم بين يدي يزدجرد ورستم.

وصايا الحكماء

وكانت الوصايا خير ما صيغ من أدب خالص للتوجيه، وزبدة ما تمخضت عنه التجارب الطويلة تُساق في أجمل بيان للأبناء وللقبيلة والقوم، يقدّمها الحكماء من الرجال والنساء أمثال أكثم بن صيفي، وقُس بن ساعدة الإيادي، والحارث بن كعب، وعامر بن الظَّرِب، وغيرهم. وأمثال الجُمانة بنت قيس بن زهير، وأم إياس بنت عوف الشيبانية، وأمامة بنت الحارث، وغيرهن.. واتصل هذا التقليد في حياة العرب بعد الإسلام مع اتجّاه بالمضمون إلى ما يعزز مبادئ العقيدة في المساواة والعدل والأمانة، وينأى بالناس عمّا كان في الجاهلية من الطيش والفوضى والفساد. ولقد أبقى المسلمون على ما يمثل جوهر هذا المسلك الحميد في خطب صلاة الجمعة والعيدين.. فليتأمل المتأمل مدى تأثير الأدب في حياة العرب على مختلف جوانبها حتى هذه الساعة!.

لكن صوت الشعر كان أعلى، وكان له السبق على النثر، والأثر الأكبر في حياتهم، وعلى ذلك سمي ديوان العرب، وظلّ إلى اليوم سجلاً لأخبارهم، ومرآة لحياتهم، وترجماناً لنفوسهم في الأفراح والأتراح والانتماء والشكوى والحب والرثاء والوصف وسائر ألوان الإبداع والأغراض التي تنوعت تبعاً لتنوع العصور والأحوال والمعطيات والأحداث.

وكان للشعر الجاهلي بصفة خاصة قيمتان: قيمة فنيّة في تعبيره عن المقاصد، وفي طريقة تقديمها وأسلوب عرضها وما انطوت عليه من صور وخيال وموسيقى وألفاظ متخيرة توائم المراد.. وقيمة تاريخية ترصد ما كان للعرب من طبائع ومنازع وقيم واهتمامات وعادات ومشاغل، ومن نظرة إلى الكون والإنسان والعلاقات والمعتقدات والأفكار.. وكان للشاعر منذ القديم منزلة خاصة متميّزة في القبيلة، إذ كانت عندما ينبغ فيها شاعر تقيم الاحتفالات وتُولم الولائم، وتأتيها القبائل مهنّئة بهذا الحدث العظيم. وكان يتم «تنصيب» المحتفى به بتسنّمه نشزاً، ثم يخلع عليه رداء من «الشعر»، وبه سمي شاعراً، لا بفيض شعوره أو مشاعره كما يذهب الظنّ ببعض الباحثين.

كان لدى العرب إحساس قوي بأن من يملك اللغة خليق بأن يسود المجتمع

ولا معدى عن الإشارة هنا إلى أنّ ما يكمل دائرة الأدب في شعره ونثره جانبان آخران هما: دراسة الآثار الأدبية وتحليلها وتقويمها، ثم تاريخ الأدب الذي يصف عصوره وأطواره ومميزاته الفنية، ويصنّف شعراءه في أقاليم وطبقات أو اتجاهات، معتمداً في ذلك كله على استقراء شامل أو يكاد يكون.

وكان من آثار ذلك التأسيس لحركة علمية في هذا الإطار ونموّ الاتجاه النقدي أو الخطاب العقلي في مكان أريحية العاطفة، وغنائية الشعر، ورعشة الروح(١٤). وانبنى على ذلك ازدهار حركة التدوين والتأليف والوراقة والمكتبات.

خبوّ جذوة الشعر

وعندما جاء الإسلام شُغل العرب - عاطفةً وعقلاً واهتمامات - بتعاليمه ومبادئه، فانصرفوا عن الشعر إليه وإلى الجهاد في سبيله، إلاّ ما كان من حركة شعرية في مواجهته، أو في الانتصار له، تلك الحركة التي كانت نواة للنقائض واستمراراً للعصبية القبلية، والتي كتب لشعراء الدعوة فيها الغلبة على خصومهم من شعراء المشركين.

بعد هذا يمكن القول إنّ جذوة الشعر قد خبت قليلاً، أو اقتصرت على ما عرف بشعر الفتوح الإسلامية، وما بقي منه في ذواكر الرواة وصدورهم يرددونه في المناسبات والسوانح. وشكّلت هذه المرحلة الزمنية ما يشبه الجسر بين الشعر الجاهلي والإسلامي، وبين التقليد والتجديد، ذلك التجديد الذي تمثل - كما يرى الدكتور شوقي ضيف - في الشعر الغنائي، والغزل العذري، ولوحات ذي الرمة.. وصولاً إلى الشعر السياسي وشعر الزهد واللهو والمجون..

وكان من أثر الشعر في هذه المرحلة أن نُظر إليه بمنظار الإسلام وموقف الخلفاء والعلماء منه، وقُيِّم بمعيار الخير والشر، فانكسرت تحت هذا الشعار شوكة الشعر الذي كان يُقال في الغزل المكشوف ويتعرض للحرائر، أو يقذع ويفحش في الهجاء والعصبية القبلية ويثير الأحقاد والضغائن. وتنفس الشعر المطالب بالعدالة الإنسانية كشعر الصعاليك والشعراء السود ومن مسّتهم نُظم القبيلة أو الطبقية بشيء من الظلم، لكن هذا التنفس ظلّ رهيناً بعدم مس العقيدة أو الأعراض ممّا ارتقى بالذوق الاجتماعي وهذّب الألسنة والأسماع.. وتُرك للشعر الغنائي هامشٌ من الحرية من غير أن يتعدى ما يسمى بدائرة الرقابة الأخلاقية.. وكان من أثر هذا أن انعطف الشعر ببعض أغراضه وفنونه نحو تعزيز حقوق الإنسان التي صانها الإسلام ورعاها، وانصرف بعض الانصراف عمّا كان مشغلة القوم في الجاهلية. وفي الوقت نفسه تقوّى تيار الشعر الحزبي والمذهبي، وانتعش الجدل والحجاج وعلم الكلام في الشعر والنثر، والمنطلق في ذلك والمحتكم إليه قيم الإسلام وتعاليمه وفي أعلى سُدتها القرآن الكريم.

الناطق الإعلامي

وكان من المنتظر، تقديراً، أن تلي هذه المرحلة أغراض شعرية لم تظهر من قبل، ذلك لأنّ هذا الانتشار الضافي المديد في الآفاق لنشر الدعوة الإسلامية ليس بالقليل. إنّه حملُ رسالة إنسانية، وبعدٌ عن الوطن، ومواجهة صريحة للشهادة، وللأقوام غير العربية.. ومن هنا جاء وطغى شعر الفتوح، وشعر الحنين إلى الوطن وإلى ما يمور في الذاكرة من صور، فصار الأدب صاحب قضية عامة وحامل رسالة تهمّ الجميع. صار - إذا صحّ القول - الناطق الإعلامي باسم العقيدة، والمعبّر عن عظمة الانتصار وما يحتشد معه من شحنات الامتلاء العاطفي بالذات الفردية والقومية.. حتى إذا ما اختتم «مهرجان» هذا التفوق أو كاد عاد الناس إلى همومهم وشجونهم العاطفية وتذكروا ملاعب الصبا ومرابع الشباب والأهل والأحباب ففاض بهم الشوق،



الشاعر العربي ولع بالتغني بالفروسية فكانت قصيدة الحماسة

وصار للوطن وللانتماء القومي معنى جديد لم يكن بهذا الكبر والحميمية من قبل، وصار التعبير عن مجمل ذلك ترسيخاً لفكرة حمل العقيدة وثقة عالية بالقدرة على النصر، وإبرازاً لفكرة القومية مفهوماً في سبيله إلى التحقق، وإن لم يُكثر الخوض فيه.

وقد نشأ عن هذا التطور لونٌ من الأدب النقدي رفع الصوت بالمساءلة والمحاسبة، شعراً ونثراً، وكان الحافز على ظهوره إحساس المجاهدين بأنهم لم يُنصفوا وفق مبادئ المساواة والعدالة في الإسلام، إذ ظفر بعضهم بالغنائم على نحوٍ مبالغ فيه، وحصل آخرون على القليل، ومن هنا شكا يزيد بن الصَّعق الكلابي أمر أولئك الذين أثروا بغير حقٍّ إلى الخليفة عمر بن الخطاب فقال:(١٥)

نؤوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا
فأنّى لهم وفرٌ ولسنا بذي وفر
إذا التاجر الهندي جاء بفأرةٍ
من المسك راحت في مفارقهم تجري
فدونك مال الله لا تتركنّه
سيرضون إن قاسمتهم منك بالشطر

وتعالت الأصوات المشابهة هنا وهناك مطالبة بالعدالة الاجتماعية التي دعا إليها الإسلام، مما فتح الباب لما يمكن أن يسمى بأدب المعارضة وبالشعر السياسي المحتد، في مقابل الحزب الأموي وشعره وشعرائه في الحكم. واتسع بهذه الدائرة شعر المرجئة والخوارج والهاشميين والزبيريين. وسرت العدوى إلى الشعوبية التي كان الشاعر إسماعيل بن يسار سهمها في هذا الزحام. وكان من مضاعفات هذا الغليان والتوزع انشغال العرب بالسياسة وانصرافهم بقدر كبير عن الشعر التقليدي السابق. أما ما بقي من الشعر وأصحابه خارج هذا الإطار فبعض الأصوات المشغولة بذواتها وهمومها الإنسانية الخاصة كشعراء الغزل العذري (جميل بن معمر، أبو صخر الهذلي، قيس بن ذريح وغيرهم). وشعراء الغزل الفني اللاهي كعمر بن أبي ربيعة.. وبعض شعراء الزهد والتقشف والغناء واللهو، كأبي الأسود الدؤلي، وسابق البربري، وأبي العتاهية، والوليد بن يزيد، وأبي الهندي، وابن سكرة.. وفي مقابل ذلك كان شعر النقائض والمهاجاة يتدفق على ألسنة جرير والفرزدق والأخطل والراعي النميري وأضرابهم، حتى وصل عدد هؤلاء إلى أربعين شاعراً إذا أخذنا بقول جرير:(١٦)

هلا نهاهم تسعة أخملتهم
أو أربعون حدوتهم فاستجمعوا

وكالألعاب والمباريات قسمت هذه الظاهرة الناس فريقين: فريقاً شغل بتتبعها، وإذكاء نارها، وفريقاً زهد فيها وانصرف عنها، إما لاهتمامه بمسائل أعلى منها منزلة وخطورة، وإما لترفعه عن تلك المهاترات وذلك السباب مما لم يبق موضع جذب أو قبول في الأوساط المسلمة المحافظة. وواضح أن الفريق الأول كان لا يزال يستسيغ طعم الشعر الجاهلي ومناهل العصبية القبلية.

تيارات واتجاهات

مع بداية العصر العباسي أخذ الشعر والشعراء يسعون في مسارب متعددة: بعضهم ظل يعزف على وتر الحزبية السياسية والدينية وبعضهم اتجه إلى بلاط الخلافة أو الإمارة وصار لسانها وصداها، وبعضهم استقل به الزهد أو التصوف أو الفلسفة أو الحياة اللاهية العبثية وبعضهم استهوته حياة الترف الموزعة بين القيان والجواري وأرباب الطرب والخمريات والإخوانيات، ومنهم من اتهم بالزندقة أو ركب دفة المعارضة، ومنهم من عزف عن الحياة العامة واعتزل الناس.. وكان لكل من هذه التيارات والاتجاهات الشعرية جمهوره وأنصاره ومريدوه، مما أغنى الحياة الثقافية ونوّع مشاربها وحرض العقل العربي على الموازنة والمحاكمة والمفاضلة بين ألوان الإبداع، وصار الاختيار مطلباً أبعد من الرفه والترف في محافل الثقافة الرصينة فاقترب بذلك من المسؤولية واستدعى المزيد من التأمل والاطلاع.

ومما لا ينبغي إغفاله هنا أن تقاليد عريقة من بناء القصيدة العربية كانت تندس في تضاعيف هذه الاتجاهات والتيارات، وكانت بعض أغراض الشعر التقليدي تجد لها بعد طريقاً إلى جانب شعر المعارك والملاحم ووصف البرك والبساتين والأنهار والفوارات «النوافير» والأديرة والقصور.. وكان شعر الصيد والطرديات استمراراً للأراجيز، ولكن بنغم آخر، ولطبقة أخرى.

في اختصار شديد يمكن القول: إن العصر العباسي كان يغتلي بالتيارات الثقافية والأجناس الأدبية وبالعناصر غير العربية: من الفرس والروم والهنود والمغول والتتار والسلاجقة والترك والديلم والبويهيين والسامانيين والإخشيديين والزنج وأهل الذمة

والكتاب.. وبما يحمل هؤلاء من معتقدات وثقافات وعادات، وبما عرفوه من السلوك في المأكل والمشرب وآلة الحياة.. وكان يغتني بالتطور الحضاري والتنوع الاجتماعي بشراً وعقولاً ومؤسسات: كان في قمة الهرم الاجتماعي الخلفاء ومن حولهم من أسرة وحاشية ووزراء وعمال (محافظين) وقادة جند، وأصحاب شرطة، وندماء وفقهاء وقضاة.. وفي الوقت والمجتمع نفسيهما كان هناك الأرقاء والعبيد والخوادم والخصيان والغلمان وأرباب الحرف والمكدون والقصاص والوعاظ والمؤدبون.. ومع هذه الفئات ظهرت الدواوين والألقاب والإقطاع والضرائب وشعارات الأزياء الرسمية، والمستشفيات والحمامات والمكتبات وأسواق النخاسة والوراقة. ولا يخفى على المتأمل أن هذه المظاهر كلها سوف تضيف إلى الحركة الشعرية العربية، أو إلى «المشهد الثقافي» كما يقول المحدثون موضوعات جديدة يتم التعبير عنها بأساليب جديدة، وسينعكس ذلك كله بآثار مختلفة في مرآة الأدب تسهم في إنضاج تجربة الأمة العربية وفي الانتقال بعقليتها انتقالاً حضارياً معقداً قد لا يكون من اليسير التحكم به والسيطرة عليه، وسيفتح المجال لظهور فنون أدبية كالمقامات وكتب الرحلات والترسل وتصنيف كتب الإمتاع والسمر إلى جانب الكتب العلمية المتخصصة والشعر الشعبي التهكمي، وكتب الثقافة الأدبية العامة، وكتب النثر التعليمي، فضلاً عما سيكون للكتب المترجمة من خطر وأثر. وستصعد إلى صدارة الحياة الثقافية أسماء أعلام من أدباء النثر، كالجاحظ، وابن المقفع، وعبدالحميد الكاتب، وأبي حيان التوحيدي، وسهل بن هارون، وابن العميد، والآمدي، وأبي الفرج الأصفهاني، وأبي منصور الثعالبي، وابن عبد ربه، وابن هانئ، وابن شهيد الأندلسي.

طغيان الشعر في المغرب العربي

وإذا كان اتساع النشاط الأدبي عند عرب المشرق قد تجلى في الاهتمام بالشعر والنثر، فإنه في المغرب قد تجلى في طغيان الشعر على النثر الذي توزعته الفلسفة والحكمة وتصنيف المعارف في شيء من الاقتصاد أو الاعتدال، لكن الذي ازدهر وتميز من ألوان الشعر: وصف الطبيعة، ورثاء الممالك، والموشحات.. وكانت رقة الشعر الأندلسي وغنائيته دليلاً لا ينكر على ما كان هناك من استقرار ودعة لم يتوافرا للمشرق على هذا النحو، ولعل من الأدلة على ذلك أن بعض الفظائع التي سجلها التاريخ في حاضرة كبغداد (من تعذيب وتنكيل) لم تشهد نظائرها حواضر الأندلس كغرناطة وقرطبة وطليطلة وإشبيلية.. ومن الجدير بالتسجيل بصدد هذا أن الآثار الأدبية والعلمية كانت تجد طريقها في سهولة ويسر من المشرق إلى المغرب، ولم يكن ثمة حواجز في وجه الثقافة العربية الواحدة، ولذا كانت طوابع الشعر والنثر متشابهة، إلا ما كان من قضايا محلية خاصة، ولا يغيب عن المتتبع



شوقي ضيف

المتأني ما رصده الأدب من تفصيلات الحياة العربية بمجتمعاتها المشرقية والمغربية، فإذا تبين له من تأمل ذلك أن حياة اللهو والترف الباذخة قد استنفدت طاقات الحكام ووقتهم وصرفتهم عن العلم وإدارة البلاد وشؤون الرعية - إذ تيقن من ذلك أدرك السر في ضعف سلطة الخلافة الإسلامية التي آذنت بسقوط بغداد وأفول شمس الحضارة العربية الإسلامية التي بلغت ذروتها في القرن الرابع الهجري. أما الأدب فلم يكن غافلاً عن استشراف المخاطر، بل كان يلاحق الخلل والتصدع ويشخص الأمراض والعلل، لكن الإنصات إليه كان مُفسَداً بالشبهات، وبدا الأمر وكأن هناك هرباً غير منظور من وطأة الفكر الحق!.

انحسار الإبداع

في المرحلة المتأخرة من عهد العباسيين، حين سقطت بغداد بيد المغول عام ٦٥٦هـ بدأت شمس الألق الأدبي تخبو، وظلّ الإبداع الأدبي بدأ ينحسر، وقد يكون قد مرّ ذلك إلى عهد انحسار السلطان العربي الذي كان يشجع الأدباء ويقربهم، وخف نشاط المؤدبين وإنشاد الشعر بين أيدي الخلفاء والأمراء. ومنذ سيطرة الأتراك في مطلع القرن السابع الهجري حتى عصر النهضة توالى على كرسي السلطة أتراك ومماليك وعثمانيون لم يكن من شأنهم رعاية الأدب ولا فهمه، لم يكونوا، مثلاً، كسيف الدولة الحمداني الذي تردد على بلاطه نحو ثلاثة عشر شاعراً، والذي كان ينظم الشعر ويتذوقه، وإن كان بقدر أقل من ابن عمه أبي فراس الحمداني.

ومن هنا يمكن القول: إن تلك الفترة التي سماها الباحثون عصر التحشية (أي تذييل الكتب الأصول بحواش) بدأ الشعر ينقلب تكراراً معتكراً للشعراء الفحول، وصدى باهتاً لإيقاع الشعر القديم. كانت الجهود الموسوعية عند بعض الكتاب في النثر (كالنويري والقلقشندي وابن فضل العمري..) مثالاً للصبر والجمع أكثر منها شاهداً على الإبداع.. لكأن الأدب العربي دخل كالأمة في نوع من البيات الشتوي أو علت أدواته طبقةٌ من الصدأ يحتاج معها إلى اليقظة والجلاء والصقل، وهذا ما كان مع بداية عصر النهضة، فمع النهضة تظاهرت جملة من العوامل والحوافز على بعث الحياة الأدبية، وإعادة الرُّواء والنضارة إلى ما كان قد اعتراها من الاضمحلال والذبول. من تلك العوامل يقظة الشعور القومي العربي، ونضج الوعي بضرورة التخلص من الاستعمار الذي كان يسيطر على أقطار الوطن العربي والدعوة إلى إحياء النشاط الأدبي واللغوي والتعليم باللغة العربية. ومن ذلك أيضاً التأثر بمعطيات الحضارة الغربية بعد الاحتكاك بها عن طريق المنح الدراسية لبعض العرب، والبعثات والإرساليات التبشيرية إلى البلاد العربية لكسب ود العرب، ولمآرب أخرى.. فمثل هذه القنوات أتاح لبعض المتنورين الاطلاع على ألوان من الفكر ومظاهر من الحضارة حفزت النخبة العربية على المزيد من الوعي، وعلى نشر هذا الوعي بمختلف الطرائق والأساليب التي كان الأدب في طليعتها. يضاف إلى ذلك نشاط بيوت العبادة علمياً في بلاد الشام، وافتتاح المدارس والمعاهد العلمية هنا وهناك، وشيوع الصحافة، وإحداث الجمعيات الوطنية والمكتبات والمسارح.. كل ذلك أسهم

في إعادة الحياة إلى الحركة الأدبية في الوطن العربي، وأوجد تنوعاً في الموضوعات التي يمكن أن يُكتب عنها. وقد كتب أدباء عصر النهضة حقيقة في الوطنية والقومية والوحدة وتحرر المرأة والعدالة الاجتماعية ومناهضة الاستعمار، وغير ذلك من الموضوعات التي عالجوها بالكتابات الشعرية والنثرية، في الأبحاث والمقالات والمنشورات والروايات والخواطر والمسرحية والأزجال والأغاني.

ومما يجدر ذكره هنا أن هذه الموضوعات والفنون الأدبية أشركت مجموعة طيبة من الأدباء العرب في معالجتها، لأنها كانت الموضوعات الساخنة الملحة التي اجتذبت اهتمام الجماهير العربية وأمسكت بمشاعرها من مشرق الوطن العربي إلى مغربه. وكان النشاط الأدبي القومي والاجتماعي من أبرز العوامل أثراً في حركات التحرر وثورات الاستقلال التي أدت إلى التخلص من الاستعمار تدريجياً، وإلى تأسيس الأحزاب الوطنية والقومية، وإلى بلورة الشخصية العربية للأمة وجعلها محط ولاء الجماهير العربية ومحور انتمائها الأصيل.

صفوة القول: أن الأدب كان هوية العرب منذ القديم. وكان دائماً صوت الجماعة وتنفسها. وكانت التجربة الأدبية عندهم تتفتق، على مدى عصورهم، عن تجليات من الإبداع تتمرد على رتوب الأساليب وتخرج عنوة أو في رفق من إسارها أو قيادها فتُرضي وتغضب وتستعدي.. وقد تخلع على الروح برد السلوان أو تحشو الوسائد بمزيد من الأحزان!.

كان القلق الروحي يتحرى يقينه ويلتمس طمأنينته في معاودة صوغ الأسئلة وطرحها من غير طريق. وعلى نواصي هذا المسار اللاحب ومفارقة كانت تنتصب صُوى بلون آخر، وتروى الهواجس بنغم آخر، ويخرج المنشئون عن المألوف في أعمال مثل «طوق الحمامة في الألفة والألاف» لابن حزم، و«حي بن يقظان» لابن الطفيل، و«رسالة الغفران» للمعري، و«المواقف» للنِّفَّري (١٧). وكان التوتر الاجتماعي يتحايل على الرقابة، أو يداري أحواله المأزومة بالتورية والإلغاز والرمز والمعاياة(١٨). فتبدو الشكوى مرافعة مرة، ويبدو «عرض الحال» ممزوجاً أو مُبطَّناً بالسخرية من السلطات أو من الأحوال المقلوبة. ولعلَّ مما سُخِّر لذلك أدب المقامات حيث بدا القص في ظاهره ضرباً من التمثيل أو الملهاة، وإن انطوى المضمون أحياناً على ما يشبه «الميلودراما»، أو ما يشبه الأنين الطويل المكبوت، في صنوف من الإفصاح عن ثقل الحياة والتذمر من الخنق والتضييق. وكان بعض إبداع الأدباء في هذا الإطار مشوباً بالتلذذ في تصوير الحياة الباذخة بكثير من الخبث. بل بدا أحياناً وكأنه رشق لبريق تلك الحياة بالبيض الفاسد.

في مقابل ذلك كانت رسائل الحكام إلى الولاة والعمال مكافئاً أو رداً يواجهون به «أباطيل» الكتّاب المنتقدين أو الناقمين. وكما كانت تلك الرسائل مثقلة بالبيان اللغوي الذي لا يعوزه الألق؛ كذلك كانت تمثل ورقة عمل أو بيان حكومة يرفل بالحكمة والتوجيه والأمر بالمعروف والعدالة. وهذا اللون من الأدب الرسمي، رسائل أو مواعظ، هو الذي قلّص واجترئ في ما سمي أدب «التوقيعات»، وهي عبارات مكثفة محكمة تلخص فكرة أو موعظة ببيان متخير عالي اللغة، وأسلوب متماسك رشيق لا تدانيه أساليب البلغاء.

ولعل «الكتاب» الذين كانوا يكتبون للحكام هم الذين كانوا وراء هذا الفن المحوط بالأسرار والتكتم، وإن لم يكن بتوقيعاتهم. لقد كانت الرسائل والتوقيعات «السامية» ترويضاً رفيقاً للمعارضة، وتنهيجاً للإذعان والإطاعة، وترسيخاً للسلطة المركزية المطلقة.. بل كانت كأنها طلقات التحذير أو التخدير. وفي الوقت نفسه كانت تدريباً على الارتقاء في التفكير، وعلى الترفع عن الصغائر والابتذال.. أيتما حال، كان الأدب في هذا الإطار سلاحاً للطرفين، ووجهاً آخر من وجوه موشور تاريخنا العربي.

المراجع والهوامش:

١. لسان العرب: جفل، نقر.
٢. نفسه: أدب.
٣. العقد الفريد لابن عبد ربّه: ج١/٢٤٢، تحقيق: محمد سعيد العريان. دار الفكر (تاريخ الطبعة الأولى ١٩٤٠م). والفاخر، لأبي طالب المفضل بن سلمة بن عاصم ص٣، تحقيق: عبدالعليم الطحاوي، مراجعة محمد علي النجار. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٧٤م. والرِّبحل: العظيم.
٤. لسان العرب: كهن، سجع.
٥. شرح المعلقات العشر: ٢٨٣ بتقديم الدكتور ياسين الأيوبي، وصلاح الدين الهواري. عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
٦. كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: ١١/٣٦. دار إحياء التراث العربي. الطبعة الأولى، بيروت، لبنان ١٩٩٤م.
٧. أشعار الشعراء الستة الجاهليين ج٢/١١٨ ـ ١١٩، اختيار الأعلم الشنتمري. منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان ١٩٧٩م. وشرح المعلقات السبع للزوزني: ١١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧٨م.
٨. ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، المسمّى بالتبيان في شرح الديوان: ٣/٣٨١. طبعة دار المعرفة، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، لبنان.
٩. انظر: محاورات مع النثر: ٤١ للدكتور مصطفى ناصف. عالم المعرفة، العدد ٢١٨، شباط ١٩٩٧م.
١٠. أنساب الأشراف: ٥٢٧/الجزء الثاني. تحقيق: محمود الفردوس العظم. دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٩٦م.
١١. مجلة (عالم الفكر) ص:١٩٤ من مقال للدكتور أحمد درويش بعنوان: «الكلام الجميل بين المتعة والفائدة». المجلد الخامس والعشرون العدد الثاني، أكتوبر/ديسمبر ١٩٩٦م، الكويت.
١٢. جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة: ج٢/٣١٤، تأليف: أحمد زكي صفوت، دار الحداثة، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.
١٣. نفسه: ج١/٢٠٣.
١٤. لمزيد من التفصيل انظر: الفصل الخامس من كتاب د. مصطفى ناصف «محاورات مع التراث»، مرجع سابق.
١٥. فتوح البلدان للبلاذري: ٣٧٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.
١٦. ديوان جرير: ٢/٩١١ بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف بمصر. ١٩٧١م.
١٧. محمد بن عبدالجبار بن الحسن النِّفَّري (عرف في النصف الأول من القرن الرابع الهجري)، وكتابه «المواقف» مع كتابه «المخاطبات» طبعة دار الكتب المصرية في مجلد واحد بعناية: آرثر يوحنا أربري، القاهرة، ١٩٣٤م. وثمة كتاب بعنوان «المواقف في علم الكلام» لعبد الرحمن بن أحمد عضد الدين الإيجي (ت ٧٦٥هـ).
١٨. المعاياة: أن تأتي بكلام لا يُهتدى له. (اللسان: عيا).

الإسلام والطريق الثالث

محمد شوقي الفنجري

كثر في الغرب - وبالذات في الآونة الأخيرة - الحديث عن الطريق الثالث، وذلك بوصفه طريقًا وسطًا بين المسار الاشتراكي - الذي أعلن إفلاسه بانهيار الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٩١م - والمسار الرأسمالي الذي أثبت خيبته في تجربة روسيا الاتحادية، ثم في الأزمة الأخيرة في كلٍّ من آسيا وأمريكا اللاتينية.

لقد كشفت الاشتراكية عن وجهها القبيح، ممثلاً في هيمنة الدولة وتحكمها وفساد القطاع العام، والقضاء على الحافز الشخصي والمبادرات الفردية، كما كشفت الرأسمالية عن وجهها القبيح ممثلاً في تسلط رأس المال الخاص على مقدرات المجتمع، وسيادة المادة، ونهم البحث عن الربح في مجالات غير مقبولة أو غير مشروعة كتجارة أسلحة الدمار، أو تجارة الجنس، أو تجارة المخدرات، وما يستتبعه ذلك من فساد الأخلاق، وانهيار القيم، وأخيراً الضياع.

البحث عن بديل

ومن هنا تنادى الجميع، ولا سيما زعماء الدول الغربية من أجل الدعوة إلى طريق ثالث قوامه حسب ما يروجون «الديموقراطية الاشتراكية أو الاجتماعية» بديلاً من «الديموقراطية الرأسمالية أو السياسية».

ولقد تعددت الآراء حول مفهوم «الطريق الثالث»، كما تعالت الدعوة إلى فكر جديد أو نظام عالمي جديد خصوصاً بعد انتشار دعاوى حقوق الإنسان، ودعاوى المحافظة على البيئة، والوعي بخطورة تفاقم الفجوة بين الأغنياء والفقراء سواء على المستوى المحلي بين أفراد المجتمع أم على المستوى العالمي بين دول العالم. أضف إلى ذلك كله، ما فرضته أخيراً كل من ثورة الاتصالات، وثورة المعلومات، وثورة التكنولوجيا، من حتمية العولمة أو الكوكبة، والجدية في البحث عن طريق آخر أو نظام عالمي جديد سواء في المجال السياسي أم الاقتصادي أم الاجتماعي.

وقد قدم بعضهم النموذج الإسكندنافي المطبق في دول السويد والنرويج والدانمارك وفنلندا، وذلك تعبير عملي ناجح للطريق الثالث، إذ تحافظ هذه الدول على ملكيتها للمرافق الإستراتيجية الرئيسة، وفي الوقت ذاته تطلق الدولة للأفراد والشركات الخاصة حرية ممارسة الأنشطة كافة التي تراها مشروعة، كما تلتزم الدولة تحقيق المساواة بين أفراد المجتمع كافة مواطنين كانوا أم أجانب من دون أي تمييز، ويخضع الكل لنظام ضريبي محكم يمكّن الدولة من توفير الاحتياجات الأساسية لجميع المقيمين بها وصيانتها وتطويرها من غذاء ومسكن ورعاية صحية وتعليم وترفيه ومعاشات عند العجز أو الكبر.

وسطية لا تعرف الغلو

ماسلف هومقدمة مختصرة، لا بد منها للإحاطة المبدئية بظروف نشأة الطريق الثالث في العالم المعاصر ومفهومه، وهو في حقيقته الطريق الوسط، الذي دعا إليه الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً بقوله تعالى: *وكذلك جعلناكم أمة وسطاً*. **البقرة:١٤٣**، وهي وسطية نسبية بعيدة عن الغلو أو التطرف الذي نهى عنه الإسلام بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

وهي في الخلاصة وسطية قوامها العدل الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: *لا تَظلِمون ولا تُظلَمون*. **البقرة: ٢٧٩**، وعبر عنه الحديث النبوي بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لا ضرر ولا ضرار». ولذلك ساد القول بأن الحل يكون إسلامياً بقدر ما يوفق بين المصالح المتعارضة سواء بين المصالح الخاصة والعامة، أم بين المصالح المادية والحاجات الروحية، أم بين الثابتة والمتغيرة في حياتنا، من دون إهدار إحداها أو نفيها لحساب الأخرى.

شهادة حق

ولعل من أبرز العلماء الأجانب الذين تنبهوا للإسلام بوصفه طريقاً ثالثاً أستاذ الاقتصاد الفرنسي جاك أوستري، الذي انتهى في مؤلفه الصادر سنة ١٩٦١م بعنوان: «الإسلام في مواجهة النمو الاقتصادي»
Austruy (Jaques). L'aslam face au developpement economiqu'les lgdition ouvriers, Paris 1961.
إلى قوله: «إن طريق الإنماء الاقتصادي، ليس محصوراً في الاقتصادين المعروفين الرأسمالي والاشتراكي، بل هناك اقتصاد ثالث راجح هو الاقتصاد الإسلامي الذي يبدو أنه سيسود عالم المستقبل؛ لأنه أسلوب كامل للحياة، يحقق بأسلوب عملي متميز المزايا كافة ويتجنب مختلف المساوي».

كذلك وجدنا المستشرق الفرنسي رايموند شارل Raymond Charles يعلق على رسالتنا لدكتوراه الدولة في فرنسا في موضوع مشكلة تخلف العالم الإسلامي، وذلك في كتابه الصادر سنة ١٩٦٩م بعنوان القانون الإسلامي Loi Aslamique بقوله: «إن الإسلام يرسم طريقاً متميزاً للتقدم، فهو في مجال الإنتاج يمجد العمل ويحرم صور الاستغلال كافة، وفي مجال التوزيع يقرر قاعدتين "لكل حد الكفاية أولا" كحق تكفله الدولة لكل فرد بغض النظر عن ديانته أو جنسيته، ثم«لكل حسب عمله وجهده»، إذ كما ورد في الحديث النبوي: «لابأس بالغنى لمن اتقى»، وإنه في جميع الأحوال لا يسمح الإسلام

بالثـروة والغنى إلا بعـد القـضـاء على الفـقـر والحـرمـان، كـمـا لا يسمح بالتـرف والتـبـذير، ويحرص عـلى تقليل التفـاوت، وتحقيق التوازن الاجتماعي بين أفراد المجتمع».

خصائص الفكر الإسلامي

وإيضاحاً لما انفرد به الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً كصيغة مثلى لما اصطلح عليه اليوم: «الطريق الثالث» أشير إلى بعض خصائص الفكر الإسلامي التي تحدد معالم هذا الطريق الثالث، ليستفيد ويهتدي بها كل مفكر، وكل من يملك القرار في هذا الخصوص وهي:

الجمع بين الثبات والتطوير: الثبات من حيث الأصول السياسية والاجتماعية والاقتصادية حسبما وردت بنصوص القرآن والسنة، وهي التي لا يجوز مخالفتها أو الخروج عنها كأصل الحرية والشورى في المجال السياسي، وأصل الاستقامة واحترام حقوق الإنسان في المجال الاجتماعي، وأصل كفاية الإنتاج وعدالة التوزيع في المجال الاقتصادي. أما كيفية إعمال هذه الأصول وإخراجها إلى حيز التنفيذ، فقد تتعدد الوسائل وتختلف التطبيقات باختلاف المجتمعات وباختلاف الأزمنة. وهذا ما عبر عنه علماء أصول الفقه الإسلامي بقولهم: «إنه اختلاف زمان ومكان لا اختلاف حجة وبرهان»، وقول بعضهم: «إنه خلاف تنوع لا خلاف تضاد». والخلاصة أن الإسلام يقبل التعددية واختلاف الاجتهادات والتطبيقات، بشرط ألا تخرج هذه الاجتهادات أو التطبيقات عما هو معروف من الدين بالضرورة، أو ما أعبر عنه بمصطلح: المتغيرات في حدود الثوابت الإلهية حسب ما أفصحت عنها نصوص القرآن والسنة.

الجمع بين المصلحتين الخاصة والعامة: أو خاصة التوفيق والموازنة بين المصالح المتضاربة، فمثلاً إذا كان (فرض كفاية) على الأفراد القيام بأوجه النشاط الاقتصادي الذي يتطلبه المجتمع كافة، فإنه إذا عجز أو أعرض الأفراد عن القيام ببعض أوجه هذا النشاط، كمد خطوط السكك الحديدة، أو إقامة المصانع الثقيلة، كالحديد والصلب، أو تعمير الصحارى، أو إذا قصروا في القيام ببعض أوجه النشاط، أو انحرفوا به، كمحاولة استغلال المدارس أو المستشفيات الخاصة، فإنه في مثل هذه الأحوال يصير شرعاً (فرض عين) على الدولة أن تتدخل، وأن تقوم بأوجه هذا النشاط. فالمهم ألا تتدخل الدولة في النشاط الاقتصادي كعنصر «بديل» أو حتى «منافس» للأفراد، وإنما يكون تدخلها كعنصر مقوم أو مكمل أو مرشد لنشاط الأفراد.

ومن هنا فإن الإسلام يقر الملكية المزدوجة الخاصة والعامة في وقت واحد، بحيث يكمل كل منهما الآخر، وكلاهما أصل وليس استثناء، وكلاهما ليس مطلقاً بل هو مقيد بالمصلحة العامة. كذلك نجد أساس التوزيع في الإسلام هو الحاجة أولاً، بمعنى ضمان حد الكفاية لكل فرد لقوله تعالى: *وفي أموالهم حقٌ للسائل والمحروم* **الذاريات**:١٩، ثم بعد ذلك يكون لكل حسب عمله وقدراته لقوله تعالى: *للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن* **النساء**:٣٢، وبحيث لا يكون التفاوت الاقتصادي بين الأفراد كبيراً مما يمحق تماسك المجتمع، بل هو تفاوت منضبط محكوم بقوله تعالى: *كي لا يكون دُولةً بين الأغنياء منكم* **الحشر**: ٧، مما يجيز لولي الأمر التدخل لإعادة التوازن عند افتقاده.



تفاقم الفجوة بين الأغنياء و الفقراء دعا إلى البحث عن طريق ثالث

ولقد عبر الخليفة عمر بن الخطاب عن سياسة التوزيع في الإسلام بقوله: «ما من أحد إلا وله في هذا المال حق، الرجل وحاجته والرجل وبلاؤه»، وقوله: «إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها ما اتسع بعضنا بعضاً، فإذا عجزنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف».

الجمع بين المصالح المادية والحاجات الروحية: وهو ما نعبر عنه بخاصة الإحساس بالله تعالى ومراقبته في كل نشاط اقتصادي. ففي النظم الوضعية كافة، يستهدف النشاط الإنساني المادة والربح، فهو ذو صبغة مادية بحتة، مما أدى إلى هذا الصراع المسعور الذي تعاني منه المجتمعات المعاصرة وإلى سيطرة روح التحكم والأثرة لدى المجتمعات الغنية.

أما في الإسلام، فإضافة إلى حرصه على الجانب المادي، وأنه: « نعم المال الصالح للمرء الصالح»، فإنه يستنفر الجانب الروحي في الكيان البشري. ذلك أن النشاط الإنساني، وإن كان مادياً بطبيعته، إلا أن الإسلام يعده في حكم العبادة طالما كان مشروعاً، وكان يتجه به إلى الله تعالى، مما يضفي على ذلك النشاط الطابع الإيماني والروحي، ومن ثم شعور الرضا والسعادة، إذ كما يقول الحديث النبوي: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى».

وإذا كانت الرقابة في كل نشاط إنساني، هي أساساً رقابة خارجية مناطها القانون، فإن الإسلام إلى جانب هذه الرقابة الخارجية أو القانونية، يحرص في الوقت ذاته على إقامة رقابة أخرى ذاتية أساسها عقيدة الإيمان بالله، والخوف من حساب اليوم الآخر، وفي ذلك ضمانة لسلامة السلوك الفردي، وشرعية النشاط الاقتصادي. ومن هنا كان أساس المسؤولية في الإسلام هي قول الرسول عليه السلام: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وتأكيده عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»، وصدق الله العظيم القائل: *نسوا الله فأنساهم أنفسهم* **الحشر**: ١٩.

كنت أود أن أتوسع في هذا المقام، لأظهر مدى ما يمكن أن يقدمه الإسلام للبشرية جمعاء في توجهها اليوم نحو الطريق الثالث، ولذلك أدعو علماء الإسلام أن ينتهزوا هذا التوجه الجديد الذي يسود العالم بحثاً عن الطريق الثالث، لكي يدلوا بدلوهم بالمسارعة إلى تقديم الفكر الإسلامي في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ وذلك للمساعدة في تقديم النموذج أو الصيغة المناسبة لهذا التوجه الجديد نحو الطريق الثالث، والذي لا أراه إلا تأكيداً لدعوة الإسلام، ذلك الدين القيم الذي سيظل دائماً ملجأ المفكرين وأصحاب القرار وطوق النجاة للبشرية جمعاء.

منهج البحث العلمي عند الأطباء العرب

ريتا خباز

ظل الطب العربي حتى أواخر العصر الأموي مجموع ملاحظات ومعلومات متفرقة، يضاف إليها خبرة عملية يزاولها المختصون، ثم بدأ يرتقي إلى مستوى العلم مع بداية اتصال العرب بالطب الأجنبي(١) عن طريق المراكز العلمية اليونانية (جنديسابور والإسكندرية وحرّان).

وعندما تم استقدام أساتذة هذه المدارس إلى بلاط الخلفاء في عهد المنصور، تفاعل العرب بعلوم القادمين الجدد الذين امتزجت في مدارسهم ثقافات اليونان والسريان والفرس والهنود، وبدأ الأطباء العرب يتعرفون الطب بصفته فرعًا من العلم الطبيعي المستند في دراسته إلى أسس فلسفية.

فقد كان اليونان يعتمدون في تثبيت معارفهم الطبية على الفكر والمنطق، فيفترضون النظريات، ويؤمنون بصدقها بالاعتماد على فلسفتهم الطبية الخاصة من دون أن يهتموا بالتحقق منها عمليًا(٢)، ففسروا مشكلات جسم الإنسان في ضوء علاقته بالكون بحسب نظرية العناصر الأولى (النار، الهواء، الماء، التراب) ومبدأ التوازن بين الأخلاط.

وورث الأطباء العرب نظريات أطباء اليونان وآراءهم وخبراتهم، وتبعوهم بالقياس والتقليد، ووقفوا منهم موقف الاحترام وإعلاء الشأن، وأطلقوا عليهم ألقابًا فخرية، كالفاضل جالينوس، وأبي الطب أبقراط، ومن ثم انتقدوهم بشكوك رصينة، وبموضوعية علمية، وبتواضع مدرك لقانون تطور العلم(٣)، وبدؤوا باصطناع المنهج العلمي في الطب، واستوعبوا شقّيه: العلم والعمل، وأسسوا قانون التجربة والنظرية، أي إن التجربة يجب أن تسبقها النظرية؛ يقول في ذلك جابر بن حيان (ت:٢٠٠هـ) في كتابه (السموم):

«وإن كان الطب من الصناعات التي هي من ذوات العلم والعمل، وإن كانت صناعته انقسمت هذين القسمين.. فواجب أن يكون جزء العلم سابقًا لجزء العمل؛ إذ لا عمل إلا بعد تقدمة العلم».

وظل هذا المبدأ يتطور باستمرار، وصار ركنًا أساسيًا في بناء علم الطب بقسميه النظري والعملي، وأصبح هدف الطب تحرّي طبيعة جسم الإنسان، ووظائف أعضائه، وفهم علاقاتها بعضها ببعض، وبالظواهر الخارجية؛ بغية الكشف عن مشكلات الجسم البشري وتلافيها. وبذلك استطاع الطب أن يخرج من وعاء الفلسفة التي احتضنته قرونًا طويلة، وأن يستقل علمًا له قوانينه الخاصة.

ويمكن أن نحدد خصائص المنهج العلمي الجديد في مبدأ الشك والنقد والملاحظة الحسية والتجربة العلمية.

مبدأ الشك والنقد

فقد سبق العرب الأوروبيين بقرون في الوصول، إلى مبدأ بدء الباحث بحثه بتطهير عقله من جميع الأفكار المسبقة حول موضوعه خشية أن توجهه بشكل منحرف، وقد توصلوا إلى هذا بالشك في علوم الأقدمين، فلم يسلّموا بسرعة بما ورثوه من كبار العلماء الأوائل، بل أعملوا الفكر فيه، ومحّصوه ليتبيّنوا صوابه أو خطأه، ثم يستدركوا نقصه. فها هو ذا محمد بن الحسن بن الهيثم (ت نحو ٤٣٢هـ/١٠٤٠م) في مقدمة كتابه «الشكوك على بطليموس» ينبه على أن «حسن الظن بالعلماء السابقين مغروس في طبائع البشر، وأنه كثيراً ما يقود الباحث إلى الضلال، ويعوق قدرته على كشف مغالطاتهم، وانطلاقه إلى معرفة الجديد من الحقائق، وما عصم الله العلماء من الزلل، ولا حمى علمهم من التقصير والخلل، ولو كان كذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم».

ويتكلم أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٣١١هـ/٩٢٣م) بلغة الأستاذ العالم الناقد في كتابه «الشكوك على جالينوس»، فيقول: «لكن صناعة الطب كالفلسفة، لا تحتمل التسليم للرؤساء، والقبول منهم، ولا مساهلتهم وترك الاستقصاء عليهم، ولا الفيلسوف يحب ذلك من تلاميذه، والمتعلمين منه».

وقد نقد الرازي في كتابه هذا ثمانية وعشرين كتاباً من كتب جالينوس مما لم يتفق مع علمه ومشاهداته الدقيقة؛ وهذا دليل قوي على المبدأ الجديد الذي ساد بين الأطباء العرب(٤).

ونعتقد أن ما ساهم في ترسيخ هذا المبدأ لديهم هو أن تعرّفهم كبار أطباء اليونان، كأبقراط وجالينوس، جاء من خلال جوامع الإسكندرانيين وتلخيصاتهم لمؤلفات جالينوس، أي إن العرب عرفوا الشروحات أولاً، ثم تعرفوا المصادر الأصلية من خلال الترجمات اللاحقة، مما كوّن لديهم حساً نقدياً سليماً تعاملوا من خلاله مع المؤلفات الطبية الموروثة بحذر، واستطاعوا أن ينقدوها بفكر علمي محب للحقيقة.

الملاحظة الحسية

ويُراد بها توجيه الذهن والحواس إلى ظاهرةٍ ما بغية الكشف عن خصائصها، وقد حرص العلماء العرب على الدعوة إليها على أنها مصدر وحيد لكشف أخطاء الأقدمين، والتوصل إلى الحقائق، ومارسوها فعلاً في أبحاثهم(٥)، وحرصوا على الدقة في تسجيلها ورصد نتائجها، واستخدموا البصيرة في وصف مشاهداتهم(٦).

والشواهد على ذلك كثيرة، نسوق بعضها:

- ضمّن أبو بكر الرازي موسوعته الطبية «الحاوي» الكثير من الملاحظات السريرية الدقيقة وهو يتتبع سير أحوال مرضاه في البيمارستان، ويرصد نتائج علاجه لهم، ويؤكد علي بن عباس المجوسي (ت نحو ٤٠٠هـ/١٠١٠م) أن ملاحظات الرازي جمعت من البيمارستانات، وليس من النقل من الكتب.



دراسة تشريحية للخيل - مخطوطة عربية ترجع إلى القرن السادس - السابع الهجري

من مقتنيات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

ولعل أهم إنجازات الرازي إبداعاً كانت بفضل دقة ملاحظته، وحذق بصيرته اللذين وظّفهما في ممارسته الطب، فكان أول من وضع التشخيص التعريفي بين مرضى الجدري والحصبة عندما قام بوصف تطورهما السريري وصفاً دقيقاً مقارناً ومميزاً بينهما، فحقق بذلك سبقاً تاريخياً في مسيرة الطب.

وفي مجال طب العين كان الرازي أول من وصف حركة الحدقة، وتأثرها بالنور، وكتب في ذلك رسالة خاصة أسماها «رسالة في العلة التي من أجلها تضيق النواظر في النور، وتتسع في الظلمة»، واستفاد من هذه الملاحظة المهمة سريرياً في مجال الإنذار Prognosis؛ لتعرّف مدى صلاحية العين المصابة بالساد للبضع(٧).

- يستند موفق الدين عبداللطيف بن يوسف البغدادي (ت ٦٢٩هـ/١٢٣١م) إلى ملاحظته الحسية في رفض ما يقوله جالينوس حول كون الفك السفلي مكوّناً من عظمين متصلين بدرز، ويثبت أنه عظم واحد بعد معاينته لما يقرب من ألفي جمجمة، وأثبت اكتشافه هذا في كتابه «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» إذ يقول: «أو يكون ما شاهدناه مخالفاً لما قيل فيها؟ والحس أقوى دليلاً من السمع، فإن جالينوس، وإن كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه، فإن الحس أصدق منه».

- وتحرر ابن النفيس عليّ بن أبي الحزم (ت ٦٨٧هـ/١٢٨٨م) من سيطرة جالينوس وابن سينا، واعتمد على مشاهدته الحسية في عمليات التشريح التي أجراها، وتوصل إلى الكشف عن إنجازه المهم، وهو الدورة الدموية الصغرى، وكان من الاعتزاز بخبرته الحسية بوصفها مصدراً لحقائقه، إلى حد أنه كان يسجل رأيه، ويعقب عليه قائلاً: «ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه».

كما سبق العرب الأوربيين في اهتمامهم بالتسليم «بشهادة غيرهم» لاستكمال المعرفة التي لا يتيسّر للعالم تحصيلها؛ وذلك على الرغم من تشكيكهم في أسلافهم. ويقول الرازي في ذلك: «لو امتدت حياة الإنسان ألف عام ما استطاع أن يرى بعينه كل ما وقع في مختلف البقاع، وشتى العصور».

التجربة العلمية

عرف العرب أهمية التجربة طريقًا موجِّهًا إلى الحقيقة، ومارسوها بدقة الباحث، وصبر المحب للعلم، ونجد أقدم تعريف عربي للبحث العلمي يؤكد أن التجربة علم، لدى المسعودي علي بن الحسين (ت نحو ٣٤٥هـ/٩٥٦م) الذي قال في كتابه «مروج الذهب»: «التجربة علم يتكرر على المحسوس الواحد في أحوال متكررة».

وقد اتخذت التجربة عند العرب شكل

علم لـه قـواعـد وأصـول مـع إمـام الطب العـربـي أبي بكـر الرازي الذي يـسـجل اهتـمـامـه بالتـجـريـب في مـقـدمـة كـتـابه «الخواص»، فيحذّر من قبول الخواص من دون التثبت منها بالتجربة، أو إغفال واحدة منها قد يكون فيـها خـاصة نافعة، ويوجب على الطبيب أن يكون: «قد أحكم الأصول، وقرأ الفروع؛ فإنه من غير هذين لا يصح له شيء، ولا يـهـتـدي لأمـر مـن أمـور الصناعـة». وكـان يرى أن الطب النظري قـوام الطب التطبيقي، ويؤثر للطبيب أن يجمع بين العلم النظري والخبرة العملية، فإن اختلفا، أو تعارض النظر مع الخبرة فالتجربة هي محك الصواب والخطأ.

ويتميز الرازي أيضاً بأن التجربة عنده كـانت مـوجّـهـة بفكرة يسعى للتـثبت من صحتـها وليست اتفاقية كـما هي عند أطباء اليونان(٨)، ويتـضح ذلك فـيمـا ذكـره في خواص الزئبق:

«أمـا الزئبق العبـيط فلا أحسب أن له كثير مضرّة إذا شُرب، أكثر من وجع شديد في البطن والأمعاء، وقد سقيت أنا منه قرداً كان عندي».

وهكذا نجـد أن الرازي قد قـام بإجـراء التـجارب علـى القردة؛ بوصـفها شـبيهـة بالإنـسـان، ولـم يقف عنـد هذا الحـد، بل استـخـدم ذاته مـادة للتجـربة، إذ يقـول: «جـرّبت فـي نفسي، ورأيت أن أجْـوَد مـا يكون أن سـاعـة مـا يحسّ الإنسـان بنزول اللهـاة والخوانيق أن يتـغرغر بخـل حامض قـابض مـرات كثـيرة». ومما يدل على أن التـجربـة عنده كـانت على أسس علـمـية استـخدامـه للضوابط Controls، فلكي يتـحقق من أثر الفصـد في علاج مرض السـرسام، قسّـم مرضاه مـجمـوعتين يعـالج إحداهـما بالفـصـد، ويمتنع عن فـصـد الأخـرى، ثم يراقب النتيجة في المجموعتين.

ومن مـلامح الـتـجـربة عند ابـن سـينا الحسين بن عـبدالله (ت ٤٢٨هـ/١٠٣٧م) أنه يحدد في كتابه «القـانون» سبعة شروط

سـبق العــرب الأوربيين بقـرون في تطبيق مـبدأ الشك والنقــد وأعــملوا فكرهم في مــا ورثوه من كــبــار العلمــاء الأوائل

لتـجـربـة الدواء تعدّ دسـتـوراً للاخـتـبـار العلمي، ويؤكد في الشرط الأخير أن تكون التـجـربة على بدن الإنسـان. ولما كـان ابن سـينـا يمثّل فـريق المدرسين في الـطب العـربي، أي الفلاسـفة الأطبـاء الذين عنوا بالطب النظـري، والتـقـسيم المنطقي، فـإن الدليل الأخير يعدّ شـاهداً قوياً على اهتـمام الأطباء العرب بالتجربة العلمية، وبتأسيس قواعدها.

وفي مجال تجـريب الأدوية أيضاً، كان الطبيب ينزع إلـى تجـربتـهـا، ولا يقنع بما تخـبـره به الكتـب عن خـصـائص الدواء العلاجية حتى يتبيّنها بنفسه(٩).

ولابد من الإشـارة أخـيـراً إلى ناحـيـة مهمة في هذا المجال، إذ قـد وجّه المستشرق فـيـدمـان Wiedemann النظر إلى أسلوب مـهم عند العلمـاء العرب في أبحـاثهم، وهو أنهم يوضـحـون تطور العـمل الذي يقـومـون به خطوة خطوة، بعكس علماء الإغريق الذين تصادفنا نتـائج البحث عندهم في صـيغتـهـا النهائية الكلاسيكية(١٠).

وبذلك يمكن القول: إن العلمـاء العرب كـانوا السبّـاقين إلى اتباع خـطوات المنهج التـجـريبي، وإرسـاء قـواعده قـبل روجـر بيكون (ت ١٢٩٤م) بقـرون، والذي يُعتـقد أنه مـؤسـسـه، ويؤكـد ذلك مـؤرخ المنطق برانتل Prantl في كتابه (تاريخ المنطق) بقوله: «إن روجر بيكـون أخذ كل النتائج المنسوبة إليه في العلوم الطبيعية من العرب».

وبكلمة أخيرة نقول:

مع أن اتصـال الطب العـربـي بالطب الدخـيل الوافد إليـه مع حركـة الترجـمة قـد أفـاد أطباء العـرب في تأسـيس بنيـة نظرية تحـتـيـة للطب، إلا أن هذا العـلم الآتي من الخـارج لم يكن ممكنـاً أن يـصل إلى النضج عند العرب لو لم يسـتوعبوا أهميـة التجربة العلمـيـة ودورها في الـوصـول إلى النتـائج الصحـيحة؛ ويؤكـد ذلك هذا الكم الوافر من الكشوفات الطبية الـلاحقة التي أكدت عمق هذا المنـهج ووضـوحـه في ذهـن الطبـيب العـربي، وكـونه شـرطـاً أسـاسـيًا للإبداع والترقي في مسيرة الطب.

المراجع:

١ـ د. توفيق الطويل، في تراثنا العربي الإسلامي ١٤٤ ـ ١٤٥.
٢ـ د. كمال السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي ٢/٤٤٠.
٣ـ د. فؤاد سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية ٤٠.
٤ـ د. ألبير زكي إسكندر، دراسة تحليلية لمؤلفات الرازي وابن سينا، من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للطب الإسلامي الكويت ١٩٨١. ص٢٤٧.
٥ـ د. توفيق الطويل، في تراثنا العربي الإسلامي ١٤ـ١٧.
٦ـ د. فرانتز روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ١٧٨.
٧ـ د. نشأة الحمارنة، الرازي الطبيب، مقال في مجلة التراث العربي الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد تشرين الأول /أكتوبر ١٩٩٨م، ص ٤٣.
٨ـ د. جلال موسى، منهج البحث العلمي عند العرب ١٨٥.
٩ـ إبراهيم بن مراد، بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ١٩.
١٠ـ د. فؤاد سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية ٣١.

أسباب فقدان الهوية في الفن الإبداعي

إبراهيم الناصر الحميدان

إذا كان الإبداع هو كل مايتحقق من عملية الخلق الفني، فإن ذلك النتاج قابل للاكتمال أو النقص لإثارة الإعجاب أو الازدراء. فالمبدع .. كل مبدع له أدواته ونظرته إلى الواقع وما يحيط به، وكذا تشوفه لعلامات المستقبل، ومن هنا تتباين عملية الخلق الفني واستشراف القادم، ولولا ذلك لأصبح المبدعون كافة في ميزان واحد من النجاح، بينما العكس هو الصحيح. كما أن لكل مبدع خصوصيته التي هي نتاج خصوصية المجتمع الذي ينطلق منه. فالذائقة الفنية هي مزيج من الخصوصية والعامة، والعبقرية هي الخروج عن المعتاد فلا تخضع لتلك القاعدة، والهوية هي السمات التي تتحقق من فاعلية عامة المجتمع أو ما ينضوي تحت مظلة العرف العام المواكب للصورة، فحين ننظر إلى قلاع الأهرامات تثب إلى ذهننا المواقع في ضواحي القاهرة، وعندما تتجسد أمامنا روعة فن النحت نتذكر فورًا الحضارة اليونانية في عهود مضت، وحتى الجسر الممتد فوق نهر المسيسبي يوحي لنا بمشاهد مدينة نيويورك، وليس لندن أو باريس. وهكذا فإن سمات الهوية تتشكل فورًا في ذهننا من النتاج الإبداعي لمظهر كل حضارة، أو ما تحقق لأي شعب من الشعوب عبر تاريخه، ولن أتحدث عن مظاهر البؤس؛ لأن مشاهد الفقر والمرض - وهي ليست هوية - إنما نتاج الظلم والطغيان تصيبنا بالدوار؛ لأنها لعنة التاريخ على الاستعمار الغربي الكريه.

والهوية لا تعني أنها مجرد مظهر واحد، ولكنها تتخلق من الصفات الجمعية لكل شعب فتعكسها ثقافته وميزاته. فإذا نظر أحدهم فبدت على شاشة ذهنه صورة رجل يرتدي العقال عرف فورًا أنها لعربي من الخليج، أما إن كانت لرجل يركب جملاً فسوف يقرر أنها لإنسان صحراوي.

هذه المظاهر العامة توحي بدلالات الهوية الخارجية، فإذا كنا ننشد العمق فلا شك أننا سنجده في الأعمال الإبداعية: قصة، ورواية، وشعرًا؛ ذلك أن الفن الروائي بالذات يعكس إلى حد كبير تلك السمات، فالقصة اليابانية لا تختلط بالنهج الهندي؛ لأن الفاصل الجغرافي لم يخترق العادات الخاصة لكل شعب، فماذا عن القصة في الجزيرة العربية؟ هل عكست حتى الآن مسيرة هذه الأمة، أو على الأقل متحت من تراثها وتاريخها؟ الجواب أنها حتى اليوم تأخذ من البسيط وتترك الأعمق، وذلك ناتج من حساسية أفراد المجتمع نحو خصوصياتهم، مما يعني أن النهج القبلي مازال يعرقل الخطوات الحضارية، ويشد من فاعليتها؛ ذلك أن الحضارة ليست في ارتداء الملابس الحديثة، ولكن بتجذر الثقافة. والتراث مصدر ثرّ لأعظم الأعمال الخالدة التي تعكس المسيرة الثقافية لأي شعب من شعوب الأرض، ومع أن خطوات الإنسان في هذه البقعة من العالم تصاولت واصطدمت بثقافات وافدة فإنها احتفظت بالنقاء، وفقدت بعض الطهارة والبراءة وهذا ناتج من الاحتكاك الذي لابد أن يتشرب الجديد فيفقد بعض معدنه وبراءته، وليس في ذلك ما يُستغرب، لأن تلك طبيعة الحياة المعاصرة، ولاسيما بعض هذا التلاحم الذي بدا قريبًا من الامتزاج. فالأصيل يبقى محتفظًا بنقاوته إلى آماد أطول، إنما لا يعدم منه بعض الفقد من الجوانب الضعيفة التي تطغى عليها المكتسبات. ونصل إلى أن الهوية لم تبرز واضحة في نتاجنا الثقافي، وربما تنتظر أجيالاً أكثر جرأة، وأقل حساسية حتى تميط اللثام من أعماق هذه الهوية المدفونة في عنف الولاء لها، والتمسك بذيولها وما يقرؤه المراقب ليس سوى لمحات خاطفة تقف العصا دون التصريح بها، لأن الجدران ما زالت تحجب المخبوء الذي سيأتي اليوم الذي يتكشف كثمن ضروري للنقلة الحضارية.

تماثل تاريخي

بين الجزيرة العربية والأندلس

خالد عبدالكريم البكر

يقال: إن الإنسان يشبه عصره أكثر من شبهه بوالديه. ويبدو أن هذه المقولة فيها قدر من الصواب، إذا تناولناها من حيث أنماط المعيشة، وطرق الإنتاج، وثقافة العصر، ونظمه السياسية، وتنظيمه الاجتماعي.
وعلى هذا الأساس؛ فإن الملامح الحضارية العامة لكل مرحلة تاريخية تتوزع بين الشعوب التي عاشت معًا في عصر واحد، على ما يكون بينها من تفاوت، كبير أو صغير، حسب اختلاف المعطيات البيئية وتنوع المكونات الثقافية.

وإننا لو نظرنا إلى ظاهرة الأمثال التي أنتجتها الأمم على مر أطوار تاريخها، لوجدنا عددًا غير قليل منها معروفًا لدى كثير من الشعوب، مع اختلاف يسير في الصياغة؛ وهو أمر يدل على التجانس في أنماط المعيشة، كما يدل أيضًا على عمق التأثير والتأثر المتبادل بين الشعوب المختلفة في تلك الأيام الخالية. أما إذا كانت هذه الشعوب تنحدر من أمة واحدة، تدين بدين واحد، وتشترك جميعًا فيما بينها، في نسق ثقافي ومعرفي موحد، فذلك أدعى لتوثيق آصرة الروابط بينها، فيقف بعضهم على خبرات بعضهم الآخر وآثاره الفكرية، فيفيدها ويستفيد منها.

والواقع أن الفتوح الإسلامية أحدثت تغييرات حاسمة في الخريطة الجغرافية للعالم القديم؛ فقد أسفرت عن إنشاء مجتمعات إسلامية متناثرة على طول الطرق التي سلكتها الحملات العسكرية الإسلامية.

ويعد مسلمو الأندلس من أهم المجتمعات الإسلامية التي امتازت بخصائص مكانية، وتركيبة سكانية فريدة. وعلى الرغم من بعد المسافة التي تفصلهم عن جزيرة العرب؛ فإنهم ظلوا يؤمُّونها باستمرار طوال فترات التاريخ الأندلسي المتعاقبة، حتى وإن بُعدت عليهم الشقة، وذلك لأمور دينية في المقام الأول، ثم لأسباب علمية وثقافية في المقام الثاني. ويكفي أن نتذكر هنا أن أفواجًا من طلبة العلم الأندلسيين تقاطرت على الحجاز، وسمعت من علمائه المبرزين، ومن أهمهم إمام دار الهجرة مالك بن أنس(١) (ت ١٧٩هـ/٧٩٥م)، فنشروا علمه في بلادهم، وأذاعوا فضائله في أوساط مجتمعهم حتى أقبلت الأندلس على اعتناق مذهب مالك، واستمسكت به، ونافحت عنه إلى اليوم الأخير الذي غابت فيه شمس الإسلام عن ذلك الفردوس المفقود.

ويبدو أن اتصال الشعوب بعضها ببعض، لا ينعكس على مستواها الثقافي وخبراتها المعرفية فحسب؛ وإنما يؤثر أيضًا في صياغة بعض حوادثها التاريخية على نحو متشابه، وسوف يجيء توضيح ذلك فيما يتعلق بالجزيرة العربية والأندلس.

ففي سنة ١٢هـ/٦٣٣م، وقعت في قلب الجزيرة العربية، وتحديداً في منطقة اليمامة، حادثة تاريخية جاءت ضمن سلسلة حروب الردة التي شنها الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، للقضاء على مُدّعي النبوة ومانعي الزكاة، في أنحاء متفرقة من جزيرة العرب، وذلك عقب انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه.

قومي فما أصنع؟

وتتلخص تلك الحادثة في حيلة أحكم أمرها، مُجَّاعة بن مُرارَة الحنفي (ت: نحو ٤٥هـ) - وكان أسيرًا بأيدي المسلمين - وذلك لاستنقاذ ما بقي من قومه، لئلا يعمهم الفناء، بعد أن استحر القتل فيهم في معركة عقرباء، على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه.

والواقع أن الجيش الإسلامي تكبّد خسائر فادحة، على الرغم من انتصاره الحاسم، فسقط منه نحو ألف ومئتي شهيد، فضلاً عن الجرحى الذين لم يعد بإمكانهم حمل السلاح مرة ثانية، إلا بعد أن يبرؤوا من جراحاتهم، وذلك يحتاج إلى وقت ليس بالقصير. ومن ثم فإن الجيش الإسلامي لم يكن في وضع يسمح له باستئناف القتال على الفور، بالدرجة نفسها من النشاط

والحيوية التي كان عليهما من قبل، لاستئصال جيوب المقاومة من فلول جيش مسيلمة الكذاب.

ومن الواضح أن مُجّاعة بن مُرارة، قد أدرك ذلك كله، بحكم ظروف أسره، واطلاعه عن كثب على أوضاع المسلمين. فما كان منه إلا أن أرسل إلى قومه: «أن ألبسوا السلاح للنساء والذرية والعبيد، ثم إذا أصبحتم فقوموا مستقبلي الشمس على حصونكم حتى يأتيكم أمري»(٢).

لقد رأى مجّاعة، أنه بهذا التصرف قد يثني خالد بن الوليد عن مواصلة القتال، لو كان يخطط لذلك؛ لأن جيشه استنزف جهده، واستفرغ طاقته في معركة عقرباء، ومن ثم فإنه سوف يقتنع بقبول الصلح من بني حنيفة.

والواقع أن خالداً كان ظن أن معظم زعماء بني حنيفة وسادتهم، قد أفناهم السيف، وحصدتهم الحرب، فلم يبق منهم إلا من ليس عنده غناء، لكنه فوجئ عندما بيّن له مُجّاعة أن الحرب لمّا تضع أوزارها بعد، وأن بني حنيفة مستعدون للقتال، حتى بعد مقتل زعيمهم مسيلمة. فنظر خالد إلى الحصون، فرأى المدافعين عنها وبأيديهم السلاح، فاغتمَّ لذلك، لكنه تجلّد، ودعا بسلاحه، فقال له مجّاعة عندئذ: «أيها الرجل، إني لك ناصح. إن السيف قد أفناك وأفنى غيرك، فتعال أصالحك عن قومي».

وقعت دعوة مجّاعة من نفس خالد موقعاً طيباً، فمال إلى قوله، وصالح بني حنيفة على «الصفراء والبيضاء، ونصف السبي، والحلقة، والكراع، وحائط من كل قرية ومزرعة، على أن يسلموا»(٣).

وسرعان ما تبيّن لخالد أن المدافعين عن الحصون، لم يكونوا في الواقع، إلا من النساء والذرية. فغضب حينئذ، وقال: «ويلك يا مُجّاعة خدعتني في يوم مرتين؟»؛ فقال مجّاعة: «قومي فما أصنع؟ وما وجدت من ذلك بداً، قد حضني النساء!». ثم أنشده مجاعة قول امرأة من بني حنيفة(٤):

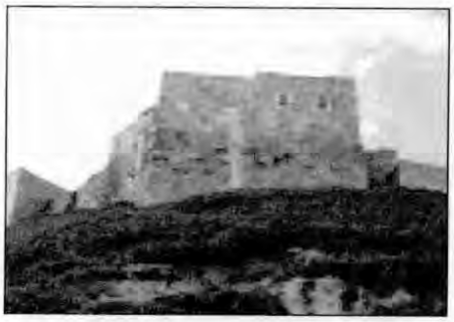
مُسيلمَ لم يبق إلا النساء
سبايا لذي الخف والحافر
وطفل تُرشحه أمه
حقير متى يربُ يستاجر
فأما الرجال فأودى بهم
حوادث من دهرنا العاثر
فليت أباك قضى نحبه
وليتك قد كنت في الغابر
سحبت علينا ذيول البلاء
وجئت بهن حُمى الباتر
أمُجّاعة الخير فانظر لنا
فليس لنا اليوم من ناظر
سواك فإنا على حالة
تُروّعنا هزّة الطائر

وعلى هذا النحو، مضى الصلح بين خالد بن الوليد رضي الله عنه، وأهل اليمامة، وذلك بفضل الخطة المحكمة التي رسمها مجّاعة بن مرارة، مما يشهد له ببعد النظر، وحسن التدبير، وسلامة الحس.

تشابه في حصافة الرأي ووحدة الهدف

لقد وقعت تلك الحادثة في صدر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، وما إن اقترب هذا القرن من نهايته، حتى وقعت حادثة أخرى مشابهة، ولكن في الأندلس. فقد استفاضت الروايات التاريخية في شرح الفتح الإسلامي للأندلس سنة ٩٢هـ/٧١٠م، وحرص المؤرخون على التمييز بين مناطق الأندلس التي افتتحها المسلمون عنوة، وتلك التي افتتحوها صلحاً. وتصنّف منطقة قرطاجنة الحلفاء CARTAGENA، أو كورة تدمير TODMIR ضمن الصنف الأخير، أي المناطق المفتوحة صلحاً. ويعزو المؤرخون أسباب الصلح بين أهالي تلك المنطقة والجيش الإسلامي بقيادة عبدالعزيز بن موسى بن نصير، إلى دهاء حاكم تلك المنطقة وفطنته، الذي تسميه الرواية الإسلامية تُدمير بن غندريس(٥).

فبعد الهزيمة التي حلّت بجيش تدمير، إثر مقاومته لاندفاع المسلمين تجاه منطقته، لجأ تدمير في شرذمة قليلة من أصحابه إلى حصن أوريولة ORIHUELA، وحين رأى عدم جدوى مواصلة القتال، بعد أن فقد قسماً لا يستهان به من جيشه؛ «أمر النساء بنشر الشعور، وحمل القصب، والظهور على السور في زي القتال، متشبهات بالرجال»(٦)، وأظهر أنه ينوي مواصلة القتال. فلما رأى المسلمون كثرة المدافعين عن المدينة، أمسكوا، وعرضوا عليه الصلح، فلم يتعجل بقبول العرض، مع حاجته الماسة إليه، وإنما اكتفى بإظهار الميل إلى الصلح. ثم كتب إلى المسلمين أنه سيبعث رسولاً إليهم للمفاوضة، لكنه أخفى شخصيته، وتنكر، وخرج بنفسه إليهم بعد أن استأمنهم على حياته، بصفته رسولاً من تدمير. فاستطاع أن يظفر بالصلح والأمان





التباين الجغرافي لم يمنع من التماثل التاريخي

له ولأهل بلده(٧). وأما نص الاتفاق بين الطرفين، فها هو ذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من عبدالعزيز بن موسى بن نصير، لتدمير بن غندريس. أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يقدم له ولا أحد من أصحابه ولا يؤخر، ولا ينزع من ملكه، وأنهم لا يقتلون ولا يُسبون، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهون على دينهم ولا تحرق كنائسهم، ولا تنزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدّى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح على سبع مدائن؛ أو ريولة وبلنتله ولقنت ونوله وبلانة ولورقة وألّه. وأنه لا يؤوي لنا آبقاً، ولا يخيف لنا آمناً، ولا يكتم

خبر عدوّ، وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً عن كل نسمة، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساطلا، وأربعة أقساط خلّ، وقسطي عسل، وقسطي زيت. وعلى العبد نصف ذلك، وكتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة»(٨).

فلما أبرم الاتفاق كشف تدمير شخصيته، واعتذر إلى المسلمين بأنه أراد الإبقاء على قومه. لكن المسلمين أدركوا أنه احتال عليهم، وذلك بعد أن دخلوا المدينة، فلم يجدوا فيها إلا النساء والذرية. إلا أنهم استرجحوا عقله، ومضوا على الوفاء له(٩).

فكم بين حادثة اليمامة في جزيرة العرب، وحادثة تدمير في جزيرة الأندلس من التماثل الكبير، في جوهر الخطة التي أفضت إلى صلح، استنقذت به فلول الجيش المعادي للمسلمين، وحال بين المسلمين وقطف ثمار انتصاراتهم بصورة كاملة!

وكم بين مجاعة بن مرارة، وتدمير بن غندريس من التشابه الشديد، في حصافة الرأي، وطريقة التفكير، ووحدة الهدف!

لا تكرار ولا تشابه

ولعل هناك نظائر أخرى، لهاتين الحادثتين التاريخيتين. وإنما الذي يعنينا هنا، هو محاولة فهم أسباب التوافق في تفاصيل بعض الحوادث التاريخية. فهل نقبل المسألة ضمن فلسفة (التاريخ يعيد نفسه)؟ أم في إطار المعيار العلمي الصارم لضبط الحوادث التاريخية (وهل آفة الأخبار إلا رواتها)؟ أم نضعها في حيّز آخر، لا يمت بأدنى صلة إلى هذا، ولا إلى ذاك؟

والحق؛ أن التاريخ لا يعيد نفسه تماماً، لاختلاف الأزمنة والأمكنة. كما أن تشبيه الليلة بالبارحة، يبقى مجرد تشبيه، لا استنساخ! فمثل هذه الشعارات تحول بين المرء والنفاذ إلى العلل المنطقية التي أفرزت مثل هذا التشابه في بعض الحوادث التاريخية، بالإضافة إلى كونها - أي تلك الشعارات - تهيئ الأذهان لقبول فكرة المصادفة، ليس إلا، في تعليل وقوع مثل هذه الحوادث.

وما لنا لا ننظر إلى الظروف التي نبتت في ظلها مثل هذه الحوادث التاريخية، مما يصح عدّها شروطاً للتماثل التاريخي. إذ إن

اتصال الشعوب بعضها ببعض لا ينعكس على مستواها الثقافي وخبراتها المعرفية فحسب، وإنما يؤثر أيضًا في صياغة بعض حوادثها التاريخية على نحو متشابه

كلاً من مُجّاعة بن مرارة، وتدمير، لم يضطرا إلى الاستعانة بنسائهم وصبيانهم إلا بعد أن وقفت منطقتاهما تحت وطأة عدد من العوامل المتشابهة.

فمن الناحية السياسية، نلاحظ أن القيادة الإسلامية التي كانت تقف وراء هذه العمليات الحربية، كانت تسعى إلى توحيد المنطقة، ونشر تعاليم الإسلام الحنيف في ربوعها، سواء في جزيرة العرب، أو في جزيرة الأندلس. ومن الناحية العسكرية؛ فإن الجيش الإسلامي كان يعيش في فورة انتصاراته التي حققها، قبيل مجيئه إلى هاتين المنطقتين، فمعنويات جنده مرتفعة، وأرواحهم متوثبة للجهاد، لا سيما وأنهم يقاتلون من أجل فكرة دينية سامية، ومبادئ واضحة، لا لبس فيها ولا التواء. وعلى العكس من ذلك تماماً كل من جيش اليمامة، وجيش تدمير بالأندلس. فقد كانوا يقاتلون داخل أراضيهم، وقلّما يأتي محصور بخير كما يقال. ثم إن كلاً منهم خسر زهرة جنوده المدافعين عن منطقته بعد اشتباكهم الأول مع الجيش الإسلامي، علاوة على كونهم يقاتلون منفردين، من دون دعم إستراتيجي أو حربي من جيرانهم، ممن هم في حالة عداء مع المسلمين. ولذا فإنه لم يبق أمام كل من مجاعة وتدمير إلا اللجوء لمثل هذا الحل، لتفادي المزيد من الضرر.

ويلوح لنا احتمال ثان حينما نتأمل مثل هذا التماثل التاريخي؛ فلعل الرواة الذين حكوا خبر افتتاح كورة تدمير بالأندلس، قد وجدوا في هذه الحادثة بعض التفاصيل التي تشبه ما وقع لخالد بن الوليد مع مجاعة بن مرارة في اليمامة، فصاغوا الحدث على نحو مشابه، لا سيما وأن الأندلسيين كانوا شديدي التعلق بالمشرق الإسلامي، ويحاكون المشارقة في نواحٍ عدة من مجالات الفكر والأدب والتاريخ وما إليها.

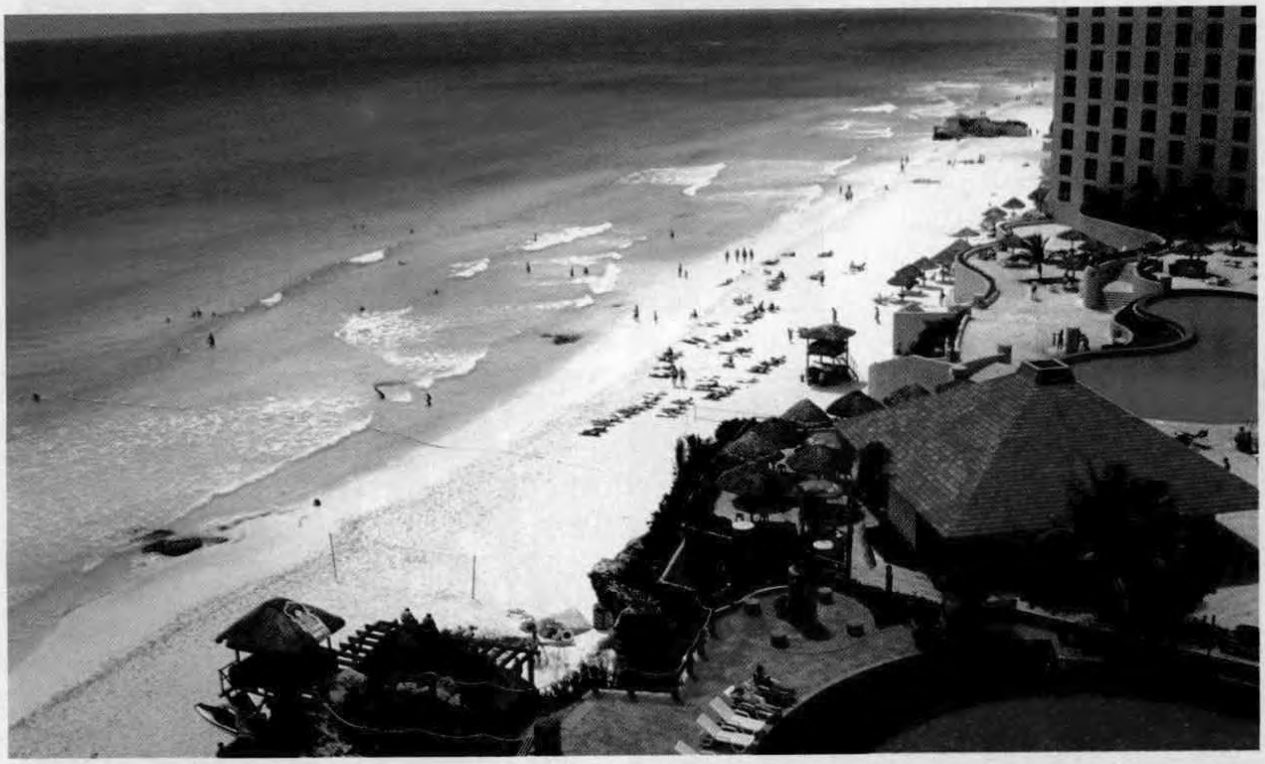
ومن يدري! فلربما كان تدمير قد بلغته أنباء الحادثة التي وقعت لخالد بن الوليد رضي الله عنه في اليمامة، في صدر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي، ووقف على تفاصيلها، ثم استفاد منها بدوره في أواخر ذلك القرن لمقاومة الفتح الإسلامي. ولئن صح هذا الافتراض إنه سيكون بمنزلة دعوة للباحثين، لاستكشاف آفاق العلاقات بين الجزيرة العربية وشبه جزيرة إيبيريا قبل الفتح الإسلامي.

الهوامش والمراجع:

١ـ الخشني، محمد بن حارث، أخبار الفقهاء والمحدثين، تحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، (مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، ١٩٩٢م)، ص ٩٥، ٤٣٨.
٢ـ الكلاعي البلنسي، تاريخ الردة ـ من كتاب الاكتفاء ـ اقتباس وتهذيب خورشيد أحمد فارق، ط٢، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د.ت)، ص ١٠٤.
٣ـ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، (بيروت: دار التراث، د.ت)، ج٣، ص ٢٩٨.
والصفراء: الذهب؛ البيضاء: الفضة؛ السبي: الأسرى؛ الحلقة: السلاح والدروع، الكراع: الخيل. انظر: عبدالله السيف، الثابتون على الإسلام في مواطن بني حنيفة أثناء ردة مسيلمة، مجلة جامعة الملك سعود (الآداب)، الرياض، جامعة الملك سعود، المجلد العاشر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ١٣٧.
٤ـ الكلاعي، تاريخ الردة، ص ١٠٦.
٥ـ العذري، أبوالعباس أحمد بن عمر، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبدالعزيز الأهواني، (مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، ١٩٦٥م)، ص ٦، ابن عذاري، أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق جورج كولان وليفي بروفنسال، (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ج٢، ص ١١.
٦ـ المقري، أبوالعباس أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ج١، ص ٢٦٤.
٧ـ الحميري، محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م)، ص ٤٦٢، المقري، نفح، ج١، ص ٤٦٢.
٨ـ الحميري، الروض، ص ١٣٢.
٩ـ المقري، نفح، ج١، ص ٢٦٤.

صناعة السياحة مقومات ومعوقات!

سعد بساطة



يقـال: «من الأفضل أن تـسافـر ملؤك الأمل من أن تصل»، وهذا بحد ذاتـه يعني أن التخطيط للرحلة أو الإجازة قد يكون في كـثير من الأحايين مفعماً بـشوق أو أمل أو متعة أكـثر بكثير من تنفيذ الرحلة بحد ذاتهـا، وهذا يفتح علينا ملفًا عميقًا حول هذه الأمـور المتعلقة بالسفر والسياحة.

من الإحـصـاءات نجد أن المسافرين قـامـوا خلال عـام ١٩٩٦م بإجـراء ٥٩٥ مليـون رحلة خارج بلادهم الأصليـة، كما تقـول منظمة السيـاحة العالميـة، أي بزيادة قدرها ٥٥,٥٪ عن عام ١٩٩٥م و٧٧٪ عن الأعوام العشرة السابقة لذلك العام (١٩٩٦م).

إلى أين أنت ذاهب؟

بلغت قيمة البضائع والخدمات المقدمة للسياحة في عام ١٩٩٦م مثلاً ما ينوف على ٣,٦ تريليون (مليون المليون) من الدولارات، أي أكثر بقليل من ١٠٪ من الإنتاج العالمي الكلي. وتضيف الإحصاءات أن وظيفة واحدة من أصل عشر تتعلق بشكل أو بآخر بالسياحة، أي إن هذا القطاع المهم يقدم العمل لـ ٢٥٥ مليون شخص ويستطيع إيجاد ١٣٠ مليون فرصة عمل أخرى مع حلول عام ٢٠٠٦م.

انطلاقًا من هذه الأرقام، فإن المنظمة تحاول إقناع الحكومات بإنفاق المزيد من الأموال على قطاع السياحة، وبشكل أخص على البنية التحتية، مما يسمح للناس بحرية الحركة، وقد تم إقناع بعض الدول بتنفيذ هذه الإصلاحات فوراً.

إن التقنية التي تؤمن السياحة بشكل كثيف هي الطائرة النفاثة، فقد فتح الطيران أبواب العالم. ففي عام ١٩٧٠م انطلقت (البان أمريكان) من نيويورك إلى لندن، وبعدها قامت خطوط الطيران المبرمجة بنقل ٣٠٧ مليون راكب، وبعدها بخمس وعشرين سنة ارتفع الرقم إلى ١.١٥ مليار من الركاب. وهكذا نلاحظ أن النقل بوسائل أسرع وأكفأ كان وراء التطور الملموس الذي طرأ على السياحة منذ البداية.

إن الأعمال التي تنطوي على تأمين سرير للسائح قد بلغت سن



تفتن الدول في صناعة السياحة



السائح يهمه كفاءة الخدمات



المحافظة على المواقع الأثرية همٌ يقلق القائمين على صناعة السياحة

الرشد. فالفنادق التي تشكل أعمالاً واستثمارات مستقلة، تستثمر بالاندماج بعضها مع بعض؛ لضمان مستويات ثابتة ومتماثلة في أي مكان من العالم. هذه السلاسل، مثلها كمثل شركات الطيران، تستخدم وسائل الحجز بواسطة الحاسوب (الكمبيوتر) بتوزيع المعلومات إلى شبكة معلومات متكاملة.

صناعة لها معوقاتها

والسياحة، شأنها شأن أية صناعة أخرى في العالم تعاني من الصدمات الخارجية. وفي الواقع، فإن السياحة أكثر تعرضاً لها من غيرها، ومن ثم فإنها تعاني أكثر عند الفترات الاقتصادية الصعبة. فمثلاً أعاق الكساد الاقتصادي الذي مرّ في بداية التسعينيات نمو هذا القطاع، وتسبب في الحد من نموه، ولكنه لم يؤد إلى توقف هذا النمو بشكل تام.

ومن الواضح أن السياحة مدينة بالكثير للسفر الجوي الرخيص، الذي غير وجهها. فأربع وعشرون ساعة يقضيها المسافر مستلقياً على ظهره تكفيه الآن ليجد نفسه في الطرف الآخر من الكرة الأرضية، في حين أن جده كان سيستغرق شهرين للقيام بالرحلة ذاتها. أضف إلى ذلك أن «بوينغ» التي تشكل أغلب الأسطول الجوي العالمي تتوقع زيادة في الاستهلاك لا تقل عن ٤.٩٪ سنوياً، وذلك للأعوام العشرين القادمة. وهناك عدة شركات طيران قد وطدت نفسها على أساس أنها شركات حاملة للبضائع والركاب على كرتنا الأرضية ومنها «BA» (اختصار اسم شركة الطيران البريطانية)، فقد قامت هذه مثلاً بتبديل كثير من فعاليتها على أساس عالمي، وتعاونت مع شركات مرموقة أخرى مثل: (يونايتد - لوفتهانزا وغيرهما)، وذلك لإجراء بعض التحسينات الاقتصادية فيما يتعلق بضغط الكلفة في مجالات التدريب، والخدمات التي يمكن التشارك فيها، والاستفادة القصوى من الثغرات الزمنية في الإقلاع والهبوط، وهذا يتم بوصل أنظمة الحجز والبرامج أو دمجها.

تجدر الإشارة إلى أن السفر جزء مهم من أعمال بعض الناس، ويؤمن المتعة لبعضهم الآخر، ويمكن أن يكون مكلفاً. ولكن في أوساط الأغنياء، فالسفر من أجل المتعة لا يعني أكثر من اقتناء جهاز تلفاز جديد؛ لأن تمضية إجازة أسبوع


المواصلات بأنواعها من أهم المقومات السياحية


المعدة قد تكون طريق الوصول إلى قلوب السياح

وشراء تلفاز جديد يكلفان المبلغ ذاته تقريباً.

باختصار، تعد الإجازة سلعة معروضة على المستهلك، وقد ارتفعت نوعيتها وكلفتها، بارتفاع كفاءة النظام الذي يزود السائح بتلك الخدمات. ففي صناعة التسلية والترفيه تقوم السياحة ببيع الخبرة، ومنح الناس طرائق جديدة من أجل الاستمتاع بوقت الفراغ.

الفندق في قلب الإجازة

يظل الموقع المعادلة القديمة والثابتة للنجاح في أعمال الفندقة. إذا استطعت تأمين ذلك فالباقي أيسر كثيراً. إن الزبون بعد أن يختار وجهته أو المكان الذي سيقصده، فإنه يبدأ في السؤال عن الجهة التي ستقوم بالعناية به عند وصوله إلى وجهته. وعلى ما يبدو، فإن ثلاثة أرباع المسافرين لأجل الاسترخاء والمتعة يبحثون عن اسم تجاري معروف عند قيامهم باختيار فندقهم، كما استنتجت دراسة حول ذلك قامت بها مؤسسة الدراسات الاستشارية «أرثر أندرسين» في نيويورك، في عام ١٩٩٦م. ومما لا شك فيه أن اسم الشركة أو سلسلة الفنادق تحظى بكثير من التقدير؛ لأنها تستطيع المساعدة في الإجابة عن السؤال الذي تتضح أهميته يوماً بعد يوم، خصوصاً عندما يزداد اتساع الخيارات: كيف سيكون عليه الوضع عندما أصل إلى هناك؟ أما أصحاب الفنادق، فإنهم يعملون جهدهم لإبراز أنفسهم كشركات هدفها تأمين الخدمات، وذلك للتوثق من تأمين ليلة نوم هادئة. إن موضوع العلامة الفارقة هو موضوع مستوف للشروط في أمريكا؛ لأن ثلاثة أرباع الفنادق هناك هي جزء من سلسلة أكبر. أما في القسم الباقي من العالم، فالنسبة تنخفض إلى أقل من الربع. وفي هذا السياق يطرح السيد كوهلمان مدير فنادق إنتر كونتيننتال المثال التالي: «لديك فندقان متحاذيان في منطقة (ماي فير) اللندنية الأنيقة، وتعرفة الغرفة فيهما متماثلة، ويتساويان في الخدمات التي يقدمانها، أحد الفندقين ينتمي إلى سلسلة شهيرة بينما يعمل الثاني بمفرده، نلاحظ أن الفندق الأول يربح المعركة دوماً».

والتفسير بسيط فكلما زاد عدد الغرف لديك، انخفضت الكلفة لكل





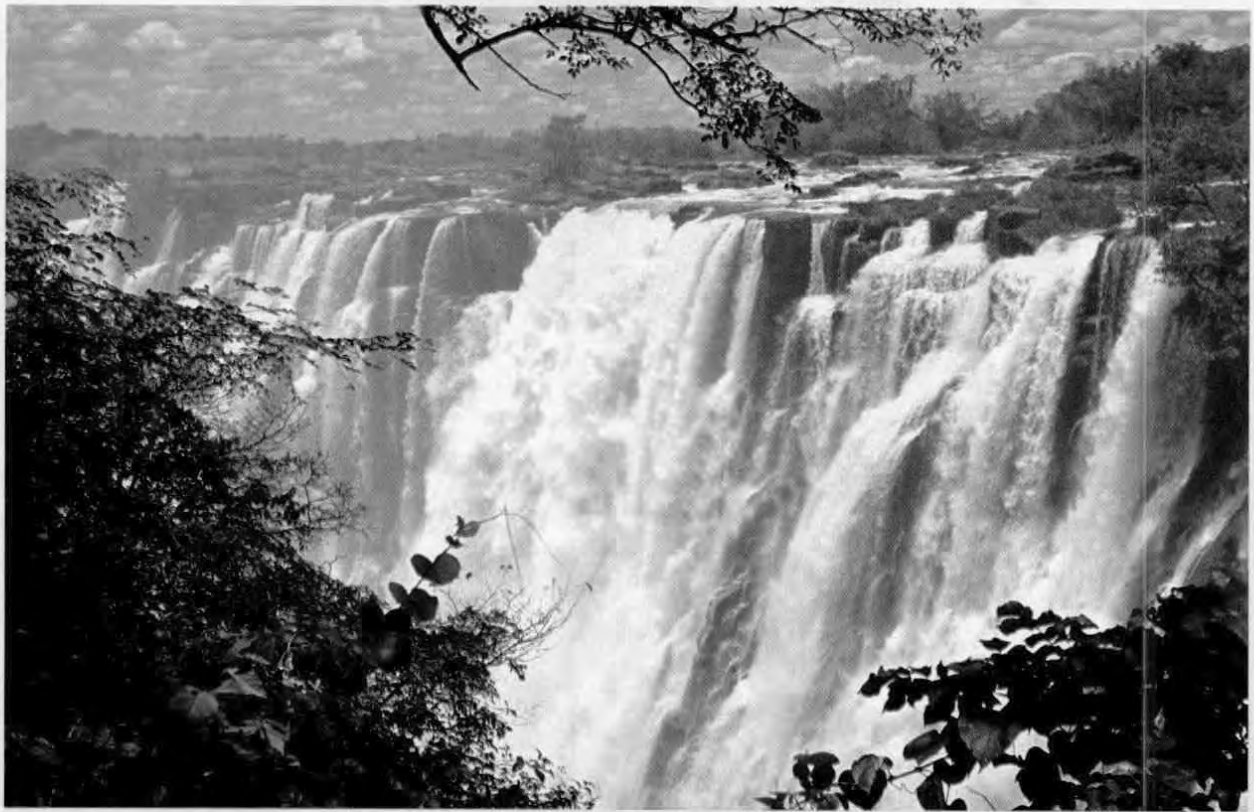
من المشروعات الجديدة في منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية

غرفة على حدة، وذلك بما يتعلق بالأثاث، وانتهاءً بالدقائق المهدرة لترتيب وسادة كل نزيل. أما الحواسب المستخدمة في أنظمة الاتصالات للقيام بالحجز وتحضير الفواتير فقد أضحت أيضاً مفيدة كثيراً كلما كبر حجم فعاليتها وذاكرتها.

وبواسطة نظام الحجز الحاسوبي المتطور (سي - آر - إس)، أضحت شركات الفنادق قادرة على البحث في ممتلكاتها وأكثر اهتماما بقيمة الزمن الذي يقضيه النزيل المتكرر لديها، ومن هنا نفهم اهتمام الفنادق بالسياح المتكررين، وذلك بترتيب الغرفة بالشكل الذي يريحهم، وبمنحهم حسومات مغرية، أو باقتراح برامج إجازات بعيداً عن البيت.

وقد تبين نتيجة الخبرة أن الأساليب المستخدمة للتمييز بين أنواع السياح غير مستقرة ولا محددة. فالسيّاح اليابانيون الذين يقومون بزيارة لندن ويحلون في أغلى فنادقها، تتم محاسبتهم عادة بأعلى سعر للغرفة؛ لأنهم نادراً ما يطلبون شيئًا أكثر من السرير والفطور الصباحي، بينما يحصل السيّاح من منطقة الشرق الأوسط على أسعار مخفضة؛ لأنهم ينفقون مبالغ كبيرة مقابل خدمات الغرف والاتصالات الهاتفية، ومن ثم فالنظام القادر على معرفة مثل هذه البيانات ومعالجتها يمكن أن يكون مكلفًا جداً، ولكن المكافآت التي تترتب على ذلك مجزية أيضًا.

إن السفر يمثل عملية بيع وشراء يدفع فيها المسافر الثمن مقدماً قبل أن يتسلم البضاعة. لذا فمبيعات السفر تعتمد بشكل رئيس على تزويد المسافر بالمعلومات عن المزاج (أي المتعلقة بالعادات)، لأن الإجازة تبقى



«حافظوا على البيئة» شعار يرفعه صنّاع السياحة

مادة دسمة لأعمال المخيلة والأحلام. لذا فالنصائح والإرشادات قد لا تؤتي ثمارها.

هناك كثير من السيّاح الذين لا يسعون خلف المشاعر الطيبة فحسب، بل يبحثون كذلك عن كفاءة الخدمات. إنهم يشكلون أهدافًا مستقبلية لأجل الاتصال المباشر مع المشتغلين بالسفر والقادرين على تأمين أسعار ذات حسم كبير، وذلك بحذف الحلقة المتوسطة من السلسلة.

وتوضح الإحصاءات أن عدد السياح في تزايد دائم، كما أن الأماكن السياحية المتنافسة من مدن وبلدان وحتى قارات في ازدياد مطّرد، وهي تتنافس لكسب ود السائح، والحصول على العوائد المجزية والمغرية التي تنتج من المبالغ التي ينفقها.

وكي تشعر بحرارة المنافسة ما عليك إلا القيام بزيارة لأحد معارض هذه الفعاليات المعنية بالسياحة مثل سوق السفر الدولي، الذي كان يعقد سنوياً في لندن في السنوات الثماني عشرة الماضية. في شهر نوفمبر من عام ١٩٩٧م ، أمضت ٤٤٠٠ شركة من ١٥٨ دولة مختلفة أربعة أيام وهي تعرض كل ما لديها في مركز المعارض بمنطقة «إيرلز كورت» اللندنية العريقة. وكانت كل منطقة تحاول بذل ما بوسعها مستخدمة كل حيل التسويق الحديث، كما كان كل مكان يحاول الاستفادة ما بوسعه من المزايا التي يتحلى بها.

من أجل حفنة دولارات

ليس جديداً القول: إن السياحة تعني المزيد من الأعمال. ففي الكاريبي تمثل السياحة نسبة ٧٥٪



الحيوانات والطيور النادرة قد تتضرر من رعونة السياح

من مـجـمل الاقـتـصـاد الـقـومي، خـصـوصـًا أنهـا توجـد فـرص عـمل جديدة، بشكليها المباشر وغير المباشر. ويمكن تفسير ذلك بالتسلسل التالي:

عند تـوسع السـيـاحـة، فـإن المزارع سيبيع المزيد من المحاصيل، والصياد سيقدم المزيد من الأسماك للفنادق والمطاعم، وسيقوم السباكون بإصـــلاح المزيد من أنـابيب الميـــاه ومـصـارفـهـا. وتحقق السيـاحة دخـلاً كـبيرًا من الضـرائب على (المبيعات والغرف والمغـادرة ـ ..إلخ)، وبذا، فإن السكان المحليين سـيـحـصلون على خدمات أفضل.



العناية بالآثار من عوامل الازدهار السياحي

إن المناطق المتـميزة بـاجتـذاب السياح يجب أن تحدد صفاتهـا المميزة بوضـوح، وهذه المزايا تختلف من بلد إلى آخـر، فـبـريطـانيـا تخـتـلف عن إيطاليـا، وهمـا غيـر إسبـانيـا، وعلى سبيل المثال نذكر أن إيرلندا اليوم بدأت بفضل مـجلس السيـاحــة الإيرلندي بإزالة الغـبـار عن المـاضي الأدبي في تلك البـلاد، مـسـتـخـدمـة «أوسكار وايلـد»، و«جـــيـــمس جـــويس»، و«ييـتس»، لإغـراء الـسـيـاح الأغنى والأكبر سنًا لصرف المزيد من النقود في دبلن.

من ناحية أخرى، فالمهرجانات وسيلة أخـرى لتحقيق الشـهرة، إذ إن كـثيـرًا من المدن تسـعى وراء الشهـرة مقتفية أثر خطا ستراتفورد من أعمال أونتاريو التي تحولت من مجرد مدينة أبناؤها من ذوي اليـاقات الزرقـاء إلى مـركـز ثقـافي مـتـمـيـز. وهناك مـدن أخرى دخلت مـجال الشهـرة في عالم السياحـة بواسطة حماماتهـا المعدنية، أو كازينوهاتها، أو طبيعـتها الملائمة لمراقبـة الطيـور النادرة والحـيـوانات البرية.. إلخ.



البحث عن التاريخ في المتاحف

وفي بـعض الأحــيــان يمكن رؤية أثر القـول المعـروف: «مـصـائب قـوم عند قـوم فـوائـد»، فـالأوضـاع السـيـاسـيـة تـؤدي دورًا ملمـوسًا في تقريب السائح أو إبعاده، كما حـدث عند انـتـقـال عـمـليـات الـقـمـار والكازينوهات الشهـيرة من كوبا بعـيد الثورة الشيوعـية إلى «ناساو» Nassau في جزر الباهاما.

المبدأ المهم الذي نود عرضه هنا على مسؤولي السياحة في الوطن العربي هو: «إذا كنت تفتقر إلى المزايا الطبيعية فبإمكانك دوماً أن توجدها بنفسك، وهذا هو السر خلف النجاح الساحق الذي حققته لاس فيغاس في صحراء نيفادا».

الشيء العظيم الكامن في إيجاد أشياء حلوة من لا شيء أنها يمكن أن تكون أكبر، وأكثر لمعاناً، وموثوقية من الأصل الحقيقي، كما يمكن تجميع المزيد منها في مكان واحد، وإذا ملَّها الزائر فيمكن بعد حين هدمها والسعي إلى بناء غيرها في صورة مبتكرة. وقد قاد ذلك إلى موجة تهتم بصنع «معالم حديثة تقلد أشياء قديمة» ولعل أوسع تركيز من المعالم في مجال تقليد الأشياء الأصلية يتركز في طوكيو وباريس وأناهيم في كاليفورنيا و أورلاندو في فلوريدا، علماً أن حدائق «والت ديزني» الأربع هذه تعدُّ من أهم المغريات في العالم بالنسبة إلى السياحة، مما يؤكد القول السائد: إن بعضاً من أفضل المواقع السياحية في العالم هي في الواقع من صنع الإنسان.!

فيما يلي نوجه الأنظار إلى فائدة أخرى لهذه المواقع، ألا وهي البضائع التي يتم تسويقها من ألعاب وتذكارات وغيرها، وهذا سيتجلى في الحديقة المبتكرة في فلوريدا والمعروفة باسم مملكة ديزني للحيوانات، حيث يختلط فيها زهاء ألف من الحيوانات الحقيقية مع شخصيات من الفيلم الكرتوني الشهير «ليون كينغ» أو ملك الحيوانات، في مساحة فسيحة من الأرض مكتظة بأشجار النخيل، والأكاسيا التي توفر بيئة طبيعية.

مقولة أخرى يستميل بها بعضهم قلوب السياح الذين يمكن الوصول إليهم عن طريق معدتهم، وهي: «إن طباخنا يمكنه أن يتوقع بشكل دقيق الطريقة التي يرغب فيها كل مسافر بتناول شريحة اللحم التي سيطلبها، وبالمقدار نفسه من الدقة أيضًا يمكنه توقع كم من المسافرين سيرغب في تناول السمك أو الجمبري»، كما صرح بوب ديكنسون، رئيس شركة خطوط «كارنفال» الملاحية.

هش سريع الكسر

عالجه برفق Handle with care، هو ما يعنيه قول وكلاء شركات السفر والسياحة عند قولهم: «شاهده قبل أن يفسد أو يتشوه»، وهذا قول لا تعوزه



الطيران فتح أبواب العالم أمام السياح

الدقة، فبعض البقايا التي يخلفها السياح وراءهم قد تلوث الغابة أو تقتل أصنافًا نادرة من الطيور والحيوانات.

التجمعات بحد ذاتها يمكن أن تكون مزعجة، فمن الصعوبة بمكان الاستمتاع بالرسوم الباهرة في «أوفيزي» مثلا بينما ينغرس كوع جارك في أضلاعك، والأسوأ حين تكون التجمعات بالسيارات، كذلك النوع من التجمع الذي يحدث في كل صيف في الحدائق الوطنية الذائعة الصيت في الولايات المتحدة، فالتأثيرات الجانبية لمثل هذا العدد الكبير من السيارات والبشر يمكن أن تكون مدمرة، وخصوصًا على البنية التحتية.

وقد يكون مفيداً في هذا السياق أن نشير إلى أن كثيراً من الشركات تدير عمليات التنظيف الخاصة بها. مثلا تقوم مجموعة فنادق ومنتجعات «إنتر كونتيننتال» بتزويد موظفيها بمرجع يبلغ حجمه ٣٠٠ صفحة حول عمليات إدارة النفايات وتدويرها، والتخفيف من الضجيج، والطرق الأخرى للاحتياط، ضد تلويث البيئة.

على كل، ومع كل الاحتياطات، ومحاولات تكرير المياه الفاسدة الناتجة من السياحة «فإن الفندق، أي فندق، لا بد أن يعدّ مسؤولاً عن التلويث الذي يسببه للبيئة، وفي رأي مجلة الإيكونوميست البريطانية، فإن هذا التلويث ناتج - بكل بساطة - من موقع الفندق منذ البداية». والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما السبيل إلى المحافظة على المواقع الأثرية السياحية مع تلافي الآثار السلبية الناجمة من تجمع السيّاح؟

الحل يكمن ببساطة في إحداث تغيير جذري في عادات الناس المتعلقة باستخدام الموارد والإمكانات المتاحة لهم وأسلوب استثمارها.

إن البضاعة الوحيدة التي يعرضها أنصار البيئة والمدافعين عنها هي:

الهواء النقي والمياه النظيفة والمشاهد الطبيعية الجميلة، وكل هذا أساسيّ وجوهري وضروري للسياح، ولضمان نجاح صناعة السياحة واستمرارها.

هناك أيضًا الأنواع النادرة من الحيوانات، والطيور، والكائنات الأخرى التي أضحت مهددة بسبب رعونة السياح، أو اندفاعهم غير المسوغ للإضرار بها. ولعل هذا يسوغ سرعة انتشار الشعار الشهير في مجال السياحة «حافظوا على البيئة».

طُوَيْلع ذو النَّبْكِ الأحمر

عبدالله بن محمد الشايع

إن تتبع مسارات الطرق القديمة التي كان يسلكها الآباء والأجداد على ظهور الإبل قبل مجيء وسائل النقل الحديثة؛ خير وسيلة للعثور على الأماكن التاريخية والجغرافية التي لم يتطرق أحد إلى تحقيقها، أو تلك التي استعصى تحديد مواقعها على علماء البلدان في وقتنا الحاضر، فجاء تحديدهم لها غير دقيق، لذا سلكت هذا المنهج لتحقيق الأماكن الواقعة على مسارات الطرق القديمة.



منظر القويرة المشرفة على طويلع

من هذه الأماكن ماء «طُوَيْلع» الذي ورد ذكره كثيراً في معاجم البلدان، وردد الشعراء اسمه في أشعارهم؛ ومع كثرة هذه النصوص فإن مكانه بالتحديد غير معروف.

وقد تطرق إلى الكلام عنه كلٌّ من الشيخين محمد بن بليهد، وحمد الجاسر، فقال الأول: إنه ما يعرف الآن بـ «قرية»، وقال الثاني: إنه ما يعرف الآن بآبار «الضُبْعيات».

وبما أني لست مع أيٍّ منهما فيما توصل إليه من رأي؛ لكون أوصاف القدماء لطويلع وماحوله لا تنطبق على المكانين اللذين حدداهما - ولا أُخفي بأني لم ألق مشقة في الوصول إلى تحقيق أي مكان حققته حتى الآن مثلما لقيته من طويلع هذا - فقد قمت من أجله بأربع رحلات شاقة قاطعاً في كل رحلة رمال الدَّهناء وأجواء الصَّمَّان من مدينة «الرياض» إلى مدينة «قَرْيَة». وفي الرحلات الثلاث خذلتني أعلام الطريق الذي تتبعته إلى «طويلع»، وهو الطريق التجاري من «حَجْر اليمامة» إلى «البصرة»، لأني كنت أفقد هذه الأعلام عند ملتقى الصَّمَّان بمرتفعات الصُلْب في كل رحلة، ممَا جعلني أحتار وأتساءل:

هل اتجه الطريق إلى طويلع إلى المكان الذي حدده الشيخ محمد بن بليهد وهو «قرْية»، أم إنه اتجه إلى ماء «الضُبْعيَات» الذي قال عنه الشيخ حمد الجاسر: «إنه طويلع»، والمسافة بين المكانين أربَعون كيلاً؟

مع هذه الحيرة لم يتطرق اليأس إلى نفسي نظراً لانتظام أعلام الطريق من الرياض حتى نهاية أرض الصمان، مما يدل على أن الطريق اتجه إلى مورد ماء «طويلع» الذي لم نهتد إلى مكانه بعد.

ومتى تم التعرف إلى «طويلع» سأتمكن بعون الله من ربط أعلام الطريق لينتظم المسار.

وعندما أزمعت القيام بالرحلة الرابعة إلى مدينة «قَرْية» وما حولها قررت التخطيط لهذه الرحلة حتى لا يكون مصيرها مصير سابقاتها، لذا رسمت الخطة التالية:

- حصر أوصاف «طويلع» التي وردت في المراجع القديمة.

ـ إمعان النـظر في أقوال من تطرقوا للكلام على «طويلع» في وقـتنا الحاضر، ومدى تطابقها مع أقوال القدماء.

ـ الاستعانة بمن له خبرة ودراية بمعرفة موارد تلك الناحية ومراعيها ولا سيما كبار السن منهم.

وحتى يكون لـدى القارئ تصور عن «طويلع»، هذا المـورد الذي اشتهـر ذكره وخفي مكانه، فسأبدأ بإيراد أقوال قدماء علماء المنازل والديار.

وأسوق فـيما يـلي ما اطلعت عليـه من أقوالهم، وتعليقـي على كل قول أرى أن للتعليق عليه فائدة تقربنا من ماء «طويلع».

أولاً: قال صاحب كـتاب «بلاد العرب» وهو يصف مسـار الطريق من «حَجْر اليمامة» إلى «البصرة»:

«... ثم تجوز المعا فتـمضي حتى ترد طُوَيْلعاً. وهو ماء عليه قـباب مبنية. وهو المنصف بين حجر وبين البـصرة. وهذا الماء أفواه كثيـرة بعضها لضبَّة، وبعـضها لفُقَيْم وفيها لسعد مياه.

وفيـه تجَار، وهو قرية وقباب مبنية، وفـيه شجرات من أثْل ونخـلات وحصن، وربما تحصنوا فيه من اللصوص.



منظر من حصن طويلع

قال الراجز:

قواربًا طُوَيْلعًا وربما

وَرَدْنَهُ جَوَازِيًا وهُيَّما

وقال آخر:

طُويلعًا ذا النَّبك المُحْمَرّ

يعني بالنبك قرونًا من الجبال منقطعة محمـرّة، لأن طينه أحمر وقبابه حمر. ثم تجوز طويلعاً إلى واد يقال له الشَّيِّط، وهو واد لتميم بين جَبلين، وهما الشَّيِّطان.

فإذا انحـدرت من عقبة الـشيِّط وقعت في طرق سهلـة بين جبال شبـه القرون، والقرن الجُبَيْل المنبتر المنفرد الدقيق.

وبينهـمـا طرق في رياض سَـهْلة يُدعى المُتـأمَّل. فـتـأتي الوريعـة وهي لسـعـد وضبَّة. والوريعة جبل معترض... وبين الوريعة وطويلع ليلة»(١).

وقال في صفحة (٢٥٢) وهو يعدد منازل بني تميم ومياههم:

«وأما كعب بن العنبر: فمنزلهم اللِّهابة، وهي قريبة من طويلع».

وفي صفحة (٢٩٦) قال:

«ثم لبني ضـبة دون الصَّمَّـان ماء يقـال له طويلع، قريب من نصـفه، ونصـفه الآخر لبني فُقَيم بن جرير بن دارم، ولبني مناف بن دارم به رَكِيَّة.

ولبني ربيعة بن مالك بن دارم ركيَّتان.

فـإذ جزت طويلعـا وأنت تريد البصـرة وقعت فـي بلد يسمى الشَـيِّطين. وبهمـا كانت وقعة الشيِّطين لبني بكر بن وائل على تميم، وهو مرعى لأهل طويلع».

وقال في صفحة (٣٤٨):

«ثم لبني مالك من ناحية طويلع قريتان يقال لهما ثَيْتَل والنِّباج».

وفي صفحة (٣٥٤) قال:

«وفي ناحيـة الدَّوِّ ماءة عظيمة يقـال لها «الرَّمادة» لبني فقيم بن جرير، ولبني مناف بن دارم. ثم بين طويـلع والرمـادة ماءة يقـال لهـا قنور وهي لـبني مناف بن دارم. وماءة ملحـة تسمى ثبـرة، قريبـة من الشَيِّطين لهم أيضـًا. ولبني فقـيم ماءة قريبة من طويلع يقال لها الجرباء وفيها يقول الشاعر:

ظَلَّتْ على الجَرْباءِ ذاتَ القُود

وقال ذو الرُّمة في الرَّمادة:

أخرقاءُ هل قيضُ الرَّمادة راجع

لياليه أو أيّامُهُنَّ الصَّوالحُ

والقَـرعاء واللِّهـابة ولصـاف وطُويلع ومـا حولهن يسـمين الشـاجنة وهي دون الصمان في أسافله..»، انتهى ما أورده صاحب كتاب «بلاد العرب».

التعليق:

ـ من أوصاف مؤلف كتاب «بلاد العـرب» سنستدل على «طويلع» متى وقفنا على أرضه، لأن حوله قرونًا من الجبال حمرًا، وطـينته حمراء، ولهذا كانت قبابه القـائمـة آنذاك حمـرًا. ومن المحـتـمل أن لا نرى أثرًا لتلك المبـاني الطينيـة أو أثرًا للأثيـلات والنخلات، ولعل مـا تبقى لنا من أثر نسـتدل به على مـاء «طويلع» هو ذلك الحصن الذي يتحصنون به عندما يخافون من اللصوص، لكون الحصن يبنى ـ عادة ـ من الحجارة، ومثله ليس من السهولة فقد أي أثر له.

ـ بما أن الطريق الذي نتتبع مساره قادم لطويلع من الجهة الجنوبية فإن طويلعًا كذلك يقع جنوبًا من الشيطين، يدل على هذا قـوله: «ثم تجوز طويلعًا إلى واد يقال له الشيِّط»، كـما أن هذا القـول يدل على أن الآبار غيـر واقعة في الوادي، ولـكنها قريبـة منه، لكونه قال بعد ذلك عن الشـيطين: «إنهما مـرعى لأهل طويلع، وأنهم إذا اجتازوا طويلعًا ينحدرون من عقبة الشيط».

ـ ذكر أن بين الوريعة وطويلـع مسير ليلة للإبل. والأمر كـذلك فمن ينحدر من مرتفعات الشيِّط يشاهد مرتفع الوريعة غير بعيد منه.

ـ قوله عن «اللِّهـابة» بأنها قريبـة من «طويلع»، وواقع الأمر أن اللِّهابة بعـيدة عن المكان الذي يقع فيه طويلع، فالمسافة بينهما تقرب من أربعين كيلاً. وهذه عادة العرب في براريهم يقربون البعيد، بخلاف سكان القرى والمدن.

ـ قـوله عن قريتـي «ثَيْتَل» و«النباج» إنهـما تـقعـان ناحيـة طويلع. هذا قـول صحيح لأن ثيتل هو ما يسمى الآن: «قرية السفلى» أما النباج فهو: «قرية العليا» التي أصبحت الآن مدينة كبيرة.

والنباج هذا غير النباج الواقع على طريق الحج البصري شرقي منطقة القصيم المسمى الآن «الأسياح».

ـ قـوله عن القـرعـاء، واللِّهـابة، ولصـاف (اللصـافـة)، وطويلع: إنهـمـا دون الصمان في أسـافله، هذا الوصف لمن كان في العراق، أمّا من كـان جنوبًا أو غربًا من الصَّمَّان فيقال عن هذه المواضع: إنها من وراء الصمان في أسافله.

وكل هذه المياه وإن تباعدت تسمى قديمًا الشاجنة أو الشواجن.

ثانيًا: قال الهمْداني وهو يُعدد المناهل القديمة:

«... طويلع بين الصـمـان والدَّو. قال بعض العـرب ـ وسُـئل عن طويلع ـ عند الثابة المشرفة أما والله ما علمت إلا أنه الطويل الرِّشـاء بعيد العشاء مشرف على الأعداء وفيه يقول بعض بني تميم:

ولو كنتَ حَرْبًا ما وردتَ طويلعًا

ولا جوْفَهُ إلاّ خميسًا عرمرمَا..»(٢)

ثالثًا: قال صاحب كتاب «النقائض ـ نقائض جرير والفرزدق»:

«قـال أبو عُـبـيدة: كـانت اللِّهابة خـبراء بالـشاجنة وحـولها مـياه بني مـالك بن حنظلة: القـرعاء ولصـاف والرمادة وطويلع، فـاختـفتهـا بنو كعب بن العـنبر (أي

أظهرتها) فوقع بين بني فقيم وبين بني كعب شرٌّ، حتى ارتفعوا فيها إلى مروان بن الحكم، وهو يومئذ عامل معاوية على المدينة، فاختلفوا فيها وجعل رجل من بني كعب يرتجز ويقول:

إنّ لُهابًا واردُ اللُّهابَهْ

وواردُ الجمَّة والحطّابهْ

ثم إلى طويلع مآبه

فقال مروان: من يبتدئ بأن يدع المنهل، فقال بنو فقيم: نحن فابتدؤوا وتركوا الماء لبني كعب فلما مروا بأضاخ راجعين اشتروا بِرامًا وطُرَفًا فعدلوها فقدموا بها على أهلهم فقال الفرزدق:

آب الوفدُ وفدُ بني فُقيم

بأخيب ما يؤوبُ به الوفود

فآبوا بالبرام معدّليها

وفاز الجدُّ بالجد السعيد

وزاحمت الخصوم بني فقيم

بلا جدٍّ إذا زحم الجدود» (٣).

التعليق:

اعتاد المتقدمون ذكر هذه المياه مجتمعة، ويطلقون عليها مياه الشاجنة، وهي: اللهابة، واللصافة، والقرعاء، والرمادة، وصاحبنا طويلع.

والذي أظهر منها بنو كعب بن العنبر «اللهابة» فحصل الخلاف حولها. وجميع هذه المياه قديمة فكانت موارد العرب في أسافل الصمان قبل ظهور الإسلام وبعده.

رابعًا: ذكر أبو عبيد البكري صاحب «معجم ما استعجم» طويلعًا بقوله:

«طويلع: بضم أوله وفتح ثانيه، على لفظ تصغير طالع: ماء لبني أسيد بن عمرو بن تميم بالشاجنة من ناحية الصمان. وهو مذكور في رسم اللّهابة وقد شفيت من تحديده في رسم توضح، قال ضمرة بن ضمرة:

فلو كنت حربًا ما وردت طويلعًا

ولا ماءه إلا خميسًا عرمرما

وهناك قتلت بنو أسيد وائل بن صُريم اليشكري، وكان عمرو بن هند بعثه ساعيًا على بني تميم، فقذفوه في بئر وصبوا عليه الحجارة وهم يرتجزون:

يا أيها المائحُ دلوي دونكا

فقتلهم أخوه باغت بن صريم أبرح قتل، وآلى أن يقتلهم على دم وائل حتى يمتلئ دلوه دمًا ففعل. ففي ذلك يقول نصر بن عاصم اليكشري:

ومنا الذي غشّى طويّ طويلع

ذبائحَ من غالي الدم المتفاضل

وقال آخر:

وأيّ فتى ودّعتُ يوم طُويلع

عشيه سلّمنا عليه وسلّما» (٤)

وفي رسم توضح ذكر البكري قصة اجتماع أشياخ من بني تميم قد أدركوا الجاهلية بشيخ مسن قد كف بصر وذلك في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسألوا هذا الشيخ عن مياه بالبادية، فقال: هل وجدتم توضح التي يقول فيها امرؤ القيس:

فتوضح فالمقراة لم يعف رَسْمها

لما نسجتها من جنوب وشمأل

وهي بين رمل السبخة وأود، التي يقول فيها مالك بن الريب:

دعاني الهوى من أهل أود وصحبتي

بذي الطّبَسَيْنِ فالتفتُّ ورائيا

قلنا: لا والله. قال: أما والله لو جئت في ليلة مظلمة لوقفت على فم طويّها... قال: فهل وجدتم طويلعًا؟

قلنا نعم. قال: أين؟ قلنا: بين الصمّان والدّو، عند القامة الشرقية.

قال: نعم ذاك طويلع. أما والله إنه ما علمت لطويل الرّشاء بعيد العشاء مشرفٌ على الأعداء.

وطويلع هو الذي يقول فيه ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل:

لو كنت حربًا ماوردت طويلعًا

ولا جوفه إلا خميسًا عرمرما

التعليق:

في رسم «توضح» أورد البكري كلمة «ولا جوفه» في عجز البيت:

لو كنت حربًا ماوردت طويلعًا

ولا جوفه إلا خميسًا عرمرما

بينما نجده في رسم «طويلع» أورد كلمة «ولا ماءه» ويبدو أن الصحة كلمة «ولا جوفه»، لأن الورد أصلاً لماء طويلع.

وهذا يعطينا وصفًا لماء طويلع بأن له جوفًا يسمى « جوف طويلع» وهو صفة من صفات «طويلع» الذي ما زلنا نتحرى عن مكانه.

وفي رسم الشّاجنة قال:



بئر طويلع وقد خربها السيل وبقي الجانب الجنوبي من الطي

«الشّاجنة: موضع قد تقدم ذكره في رسم اللّهابة، وهو بناحية الصمان لبني أسيد بن عمرو بن تميم. وهناك طويلع ماءة لهم».

وفي رسم اللّهابة ذكر طويلعًا بقوله:

«اللهابة... وهي ماء لعبشمس من بني تميم، وهي خبراء من الشاجنة، وتتصل بها مياه بني مالك بن حنظلة وهي القرعاء وطويلع، وكانت لبني كعب بن العنبر. أيضًا هنالك مياه الرمادة، ولصاف، وهي كلها من الشاجنة...» انتهى ما نقلته من كلام البكري.

خامسًا: قال ياقوت الحموي في معجمه بعد أن تكلم عن معنى كلمة «طويلع» لغويًا:

«... وطويلع ماء لبني تميم ثم لبني يربوع منهم. وطويلع: هضبة بمكة معروفة عليها بيوت ومساكن لأهل مكة، قال أبو منصور: هو ركيّة عاديّة بالشواجن عذبة الماء قريبة الرّشاء، قال السكوني: قال شيخ من الأعراب لآخر: فهل وجدت طويلعًا؟ أما والله إنه لطويل الرشاء بعيد العشاء مشرف على الأعداء، وفيه يقول ضمرة بن ضمرة النهشلي:

فلو كنت حربًا ما بلغت طويلعًا

ولا جوفه إلا خميسًا عرمرما

وقال الحفصي: طويلع منهل بالصمّان، وفي كتاب نصر: طويلع واد في طريق البصرة إلى اليمامة بين الدّوّ والصمّان، وفي جامع الغوري: طويلع موضع بنجد، وقال أعرابي يرثي واحدًا:

وأي فتى ودَّعت يوم طويلع
عشيَّة سلّمنا عليه وسلّما..»(٥)

وقال ياقوت في رسم «الجوف»:

«... وجوف طويلع بالتصغير، وقد ذكر طويلع في موضعه، قال جرير يذكر يوم الصَّمد:

نحن الحماةُ غداة جوف طويلع
والضاربون بطخفة الجبّارا..».

وفي رسم «الشيِّطين» قال:

«... قال نصر: الشيطان: واديان في ديار بني تميم لبني درام أحدهما طويلع أو قريب منه..».

وقال في رسم «الصَّمْد»:

«... ويوم الصمد، ويوم جوف طويلع، ويوم ذي طلوح، ويوم بلقاء، ويوم أود، كلها واحد...».

التعليق:

يسمي المؤرخون المعارك التي جرت بين العرب أيامًا، وهذا اليوم الذي قال عنه: إن له خمسة أسماء من بينها يوم «جوف طويلع» يجعل القارئ ـ ولا سيما من له دراية بالأماكن ـ يتساءل: كيف يسمى هذا اليوم بجوف طويلع مع بعده عن الأماكن الأخرى. وقد وقف الشيخ حمد الجاسر عند هذا القول وعده إشكالاً، فأوجد له مخرجين، فانظر إلى ما قاله بهذا الشأن في صفحة: (١٠٤٦/٣) من «معجم المنطقة الشرقية».

وقال ياقوت في رسم «اللِّهابة»:

«... خبر بالشواجن في ديار ضبَّة فيه ركايا عذبة تخترقه طريق بطن فلج، كأنه جمع لهب، كله عن الأزهري، وحولها القرعاء، والرمادة، ولصاف، وطويلع...».

هذا ما تسنى لي الاطلاع عليه من أقوال المتقدمين من علماء المنازل والديار، ومن هذه الأقوال مجتمعة ومتعاضدة يمكنني أخذ أوصاف مقتضبة لطويلع عسى أن أتمكن على ضوئها من الوقوف عليه، وهذه الأوصاف هي:

ـ طويلع: يقع بجوار الشيِّطين من جهة الجنوب، ومن يصدر منه قاصداً البصرة ينفذ مع عقبة الشيِّط.
ـ أرض طويلع حمراء، وحوله قرون من الجبال أسافلها لونها أحمر (النّبك).
ـ يقع طويلع في مكان مرتفع يشرف على ما حوله.
ـ لطويلع جوف منسوب له يسمى «جوف طويلع»، والجوف مكان منخفض.
ـ بئر طويلع بعيدة القعر، يدل على ذلك أنها طويلة الرشاء، وهي موصوفة بعذوبة الماء، وبجوارها آبار أخرى، وحصن.
ـ بالقرب من ماء طويلع حصن كان أهل طويلع يتحصنون به إذا خافوا.

إن مجمل هذه الأوصاف نادراً ما تتوافر في موضع إلا قادت إليه، فهل أصاب من تطرق للكلام عن «طويلع» وحدد مكانه من علماء عصرنا الحاضر؟

فلننظر ماذا قالوا عنه:

أقوال البلدانيين في زمننا هذا ومناقشتها

أولاً: قال الشيخ محمد بن بليهد وهو يتكلم عن الطريق من «الرياض» إلى «الكويت» مروراً برماح ومعقلاء:

«طويلع: ثم تصل قرية وهي التي تسمى طويلعًا... وعندي دليل واضح على أن طويلعًا هو الذي يسمى «قرية» اليوم، كنا في بلدنا ذات غسل سنة ١٣٢٢هـ وأنا حديث السن، فنزل عندنا أعراب من عتيبة، وفيهم شيخ كبير السن من ذوي زياد من قبيلة النفعة، يقال له «طويلع»، فسأله والدي وأنا حاضر: لماذا أسماك أهلك طويلعاً؟

قال: كنا مع مطير وأنا في بطن والدتي، وتربعنا الصَّمّان، ووضعتني في وادي قرية، وذلك الوادي يقال له طويلع، فسموني باسمه، فبعد ماكبرت وفهمت سألت والدي عن هذا الاسم، فقال: ولدت في وادي طويلع الذي يصب في قرية فسميناك باسم ذلك الموضع، وفي هذا العهد لم أكن سمعت له ذكراً...»(٦). انتهى قوله باختصار.

مناقشة هذا الرأي

مع أني أعرف أن ما يسمى الآن «قرية» كانت تسمى «النّباج»، وكثيراً ما يقرنها القدماء بقرية أخرى قريبة منا اسمها «ثيْتل» وتسمى الآن «قرية السفلى» بينما النباج أصبحت الآن تسمى «قرية العليا»، إلاّ أني حاولت في رحلاتي الثلاث أن أصرف الطريق باتجاه قرية لعل طويلعاً يصبح قريباً منها، ولكن أعلام الطريق لم تنقد معي، ثم إن الأوصاف التي وردت عن طويلع لا تنطبق على «قرية» وما حولها.

وقد يكون هذا الرجل المسمى «طويلع» ولد في واد غرباً من قرية، وأن طويلعاً كان له ذكر عند البادية آنذاك. أضف إلى ذلك أن وادي قرية يأتي سيله من الجهة الشمالية من ناحية جبل «فواق» وقرية وواديها منحازان جهة الشرق عن الشيِّطين ومضان مكان طويلع، لهذا أقول: إن «قرية» ليست هي طويلعاً لكون أرض قرية بيضاء وليس حولها جبال حمر بينما طويلعنا نبكه أحمر وتربته حمراء.



فوهة بئر طويلع

أما عن قوله رحمه الله في صفحة (١٧٥/٢) وهو يتكلم عن مياه «الشواجن»: «... وقرية، واسمها في الزمن القديم طويلع، قال: ومن مياه الشواجن منهل طويلع، وهو قريب المنزع، عذب الماء، وليس هناك منهل قريب المنزع عذب الماء إلاّ ماءة قرية» انتهى.

أقول: لعل وصف الأزهري لطويلع بأنه قريب المنزع بالنسبة لمياه الشواجن الأخرى مثل: اللّهابة، واللّصافة، والرمادة؛ لكون هذه المياه بعيدة المنزع، وقد ورد معنا في النص المتقدم بأن طويلعاً طويل الرِّشاء بعيد المتعشى، وهذا يدل على أنه بعيد المنزع.

ثانياً: رأي الشيخ حمد الجاسر، وتحديده لماء طويلع.

اعتدت عند تحقيقي للأماكن التاريخية والجغرافية ـ عندما يتراءى لي أن في تحديدها نظراً ـ أن أرجئ الاطلاع على أقوال مؤلفي عصرنا الحاضر إلى ما بعد حصر أقوال قدماء المؤرخين وعلماء المنازل والديار، وما قيل في الموضع المراد تحقيقه من شعر ونثر، وذلك حتى لا أتأثر بأقوال من سبقوني.

وعندما أخمّن الحيِّز الذي يقع فيه الموضع أنظر في تحديد علماء عصرنا، فإن اتفق ما قالوه مع ما خمنته فذاك، وإلاّ اضطررت إلى عرض ما توصلوا إليه على منطوق النصوص القديمة، فإذا حصل تعارض بينها وبين ما توصلوا إليه شمرت عن ساعد الجد وأعددت راحلتي حتى أعثر على المكان المراد. وبهذه الطريقة تمكنت بعون الله من تحقيق الكثير من المواضع

التاريخية والجغرافية. ومن هذه المواضع «طويلع» ذو النبك الأحمر.

والواقع أن شيخنا حمد الجاسر اقترب من ماء طويلع حتى كاد يشرف عليه ولكن حالت دونه أكمات غُبْر، فظن طويلعاً آبار «الضبعيات».

والحق أن شيخنا حمداً اعتصر المراجع القديمة حتى أفرزت له كل ما قيل عن طويلع من شعر ونثر، فراح يحاور هذه النصوص ويوفق ما وقع بينها من تعارض، ويطرح علامات الاستفهام، ويجيب عنها.

ولا غرابة في ذلك فهو شيخ البلدانيين في زمننا هذا «ولاعطر بعد عروس»، ولكن العبرة بالنتائج، إذ لست مع شيخنا فيما توصل إليه من رأي.

وفيما يلي الخلاصة التي خرج بها بعد استعراضه للنصوص القديمة، ومناقشته بعض الأمور التي وردت فيها:

قال الشيخ حمد الجاسر:

- إن طويلعا وادٍ أو ماءٌ في أسفل الصمّان، ولا تخالف في ذلك، فالاسم قد يطلق على الوادي وعلى الماء الذي يكون فيه وهذا كثير في كلام المتقدمين.

- إنه بقرب وبرة واللهابة ولصاف وثيتل والنباج - اللذين رجّحت، بل أكاد أجزم بأنهما القريتان قرية العليا وقرية السفلى.

- وصف الموقع صاحب «بلاد العرب» بأنه ذو قرون من الجبال متقطعة محمرة، لأن طينه أحمر.

- إنه هو وادي الشَّيِّط أو بقربه فكلام صاحب «بلاد العرب»:

«ثم تجوز طويلعاً إلى واد يقال له الشيط». وكلام نصر: «أن طويلعاً أحد الشيِّطين أو قريب منه».

- ويبقى وصف آباره بطول الرشاء، وهذا يدل على أنه من المياه الأعداد. وكذا القول بأنه قرية، إذ القرى لا تنشأ إلا على المياه الثابتة القوية.

- وقوعه في بلاد بني تميم وبني ضبة، ومنازل القبيلتين مختلطة.

- أما القول بأنه بعيد العشاء، فذلك أنه واقع على أطراف فلوات طويلة عريضة فشرقه الدَّو (الدبدبة) و (القرعة) وجنوبه الصمان ثم الدهناء، فالإبل التي ترده ثم ترعى حوله تجد مراتع بعيدة عنه.

- وإشرافه على الأعداء وقوعه في جانب من بلاد بني تميم قريب من بلاد بكر بن وائل، ومعروف مابين القبيلتين من الحروب قبل الإسلام وعند ظهوره.

وكل هذه الصفات المتقدمة تنطبق على مكان يدعى الآن الضبعيّات، وقد يدعى الضبعيةَ بصيغة الإفراد.

وتقع (الضبعيات) هذه في الشمال الغربي من وبْرة (ثبرة قديماً) في أسفل وادي الشَّيِّط الريان، في متسع منخفض من الأرض تحيط به الآكام من أكثر جهاته الشمالية والجنوبية، وهي آكام حُمر دقيقة متفرقة في جو كثير النبات من الثمام ونحوه من الشجر، وفيه آبار كثيرة قريبة الماء ولكنها مهجورة، وكثير منها مندفن، يحف به من الغرب آكام حمر تدعى حُمر أبي سُخيل، وأبوسخيل دحل شمال تلك الآكام ويمر درب الميحيص للمتجه غرباً بعد قرية العليا (النباج قديماً) بمنهل (ثبرة) وبرة الواقعة جنوبه على مسافة قريبة... وقد اتضح لي عند زيارة هذا الموضع انطباق جميع أوصاف المتقدمين عليه سوى القول بأن آباره طويلة الرِّشاء، فالذي شاهدته آبار ضيقة الأفواه قريبة الماء، وهي مهجورة، ومعروف أن الماء لا يثبت على حالة واحدة بل يتأثر بنزول الأمطار وانحباسها.

وقد تكون الآبار البعيدة القعر مندرسة ولم أشاهد في ذلك الجو الواسع الذي يمر به وادي الشيط الجنوبي آثار عمران، مع قصر الوقت الذي أمضيته فيه، ويشرف على هذا الجو جال مرتفع سلسلة من الآكام متقاودة تفصل بينه وبين وادي الشَّيِّط الشمالي (العطشان) يعلوها الطريق المتجه إلى الحفر (حفر أبي موسى).

لا يخالجني أدنى شك في أن هذا الجو المعروف باسم الضبعيات - والضبعية - هو ما يعرف قديماً باسم طويلع، الوارد ذكره في النصوص التي أوردتها(٧). انتهى قوله.

وقال الشيخ حمد الجاسر عن «الضُّبعيَّة»:

«الضبعية ... - ويقال الضبعيات - آبار قديمة تقع في جو منخفض في أسفل الشيط الريان، غرب وبرة ببضعة أكيال، وتبعد عن أم الشَّفَلَّح تسعة عشر كيلاً، وعن الوريعة نحو ٢٥ كيلا وعن الجرارية(؟) ٦٤ كيلاً.

وقد مررت بتلك الناحية عصر يوم الثلاثاء السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٨هـ للبحث عن موقع طويلع، وبعد روضة وبْرة اتجهنا يميناً نحو الشمال الغربي، فشاهدنا آكاما حمراً ذكرتنا بقول الراجز:

طويلعاً ذا النَّبك المُحَمَّرْ

ثم هبطنا في جوف الوادي فشاهدنا آباراً كثيرة ضيقة الأفواه، ولكنها مهجورة منذ زمن، وبعد تطبيق النصوص التي أوردها صاحب كتاب «بلاد العرب» عن تحديد طويلع، اتضح لي بما لايدع مجالا للشك أن تلك الآبار هي آبار طويلع..)(٨) انتهى قوله باختصار.



منظر من آثار حصن طويلع

مناقشة رأي الشيخ حمد الجاسر

أولاً: بعد أن استخلص الشيخ حمد صفات «طويلع» من النصوص القديمة، رأى أن هذه الصفات تنطبق على آبار «الضبعيات» أو «الضبعية» كما تسمى أحياناً. والواقع أن المكان الذي يمكن أن يتحرى فيه أي باحث عن «طويلع» هو هذا الحيز الذي تقع فيه آبار «وبرة» وآبار «الضبعيات».

وبوقوفي أثناء الزيارة الأولى لآبار الضبعيات وما حولها لم أقتنع بانطباق أوصاف المتقدمين على كل من وبرة والضبعيات، لأن آبار وبرة واقعة في منخفض يغطيه الماء عندما يمتلئ الجو بسيل وادي «الشيط الريان» الذي يستقر فيه ولا ينفذ منه. أما آبار «الضبعيات» فهي منزوية في منخفض من أرض الوادي محصورة بين مرتفعات جبلية لونها يميل إلى البياض أكثر منه للحمرة، إضافة إلى هذا، فإن أرض الآبار لونها أبيض يشبه الجص، ولذا استبعدت أن تكون هي «طويلعاً».

وقد حاولت جاهداً العثور على أي أثر يدل على مساكن قديمة حول الآبار، وخاصة ذاك الحصن الذي كان يتخفى فيه أهل طويلع عند الخوف، فلم أجد أي أثر لشيء من ذلك.

ثانياً: لعل من الأمور التي دعت الشيخ حمداً إلى القول بأن آبار «الضَّبعيات» الواقعة في أسفل وادي الشَّيِّط الريان هي «طويلع» قول نصر:

«إن طويلعا أحد الشيِّطين أو قريب منه»، فإن كان الأمر كذلك، أقول: إني لم أقرأ لأحد من المتقدمين قولاً يدل على أن أحد الشيِّطين يسمى طويلعاً سوى ما روي عن نصر. وقوله هذا لا يعتد به لأنه يحمل الشك فقد يكون

طويلع أحد الشيطين، وقد يكون قريباً منه.

والصواب عندي أن طويلعاً قريب من الشيط الريان وليس إياه أو واقعاً فيه.

ثالثاً: قوله: ويحفُّ به من الغرب آكام حمر تدعى حمر «أبي سُخيل» وأبو سخيل دَحل شمال تلك الآكام.

أقول: إن دحْل أبي سخيل وما حوله يبعد عن «الضبعيات» قرابة عشرين كيلاً جهة الغرب، فلذا لا يسوغ القول بأن حمر أبي سخيل من حمر طويلع، فحمر طويلع قرون من الجبال تحتضن آباره، وتتميز بأن أسافلها حمراء.

رابعاً: قال الشيخ حمد: إنه اتضح له عند زيارة آبار «الضبعيات» انطباق جميع أوصاف المتقدمين عليه سوى القول بأن آباره طويلة الرِّشاء، وأن الذي شاهده آبار ضيقة الأفواه قريبة الماء... وقد تكون الآبار البعيدة القعر مندرسة.

أقول:

اسم طويلع يطلق على بئر واحدة متميزة بين آبار أخرى تجاورها تابعة لها، نظراً لعذوبة مائها ووفرته، وكذا إشرافها على ما حولها.

وعندما سأل الرجل المتقدم في السن - كما مر معنا في أحد النصوص - عن طويلع قالوا له: إنه عند المثابة المشرفة.

وقد صدق شيخنا حمد في وصفه لآبار الضبعيات فهي آبار كثيرة متجاورة ضيقة الأفواه، فقد عددت منها في زيارتي الأولى خمسين بئراً مطوية بالحجارة فما بالك بما فاتني عدّه على عجل وما كان منها مطموراً.

فلذا أقول: إن وصف طويلع لا ينطبق على أي بئر من آبار «الضبعيات».

خامساً: قال الشيخ إنه لم يشاهد في جو آبار الضبعيات آثار عمران مع قصر الوقت الذي أمضاه فيه.

أقول:

عند زيارتي تلك الآبار قضيت وقتاً طويلاً في التجول حول الآبار وسألت كثيراً عن أي أثر لساكن، ولكن لم أعثر على شيء، مما جعلني أتحرى عن هذه الآثار في أماكن أخرى.

سادساً: في آخر كلامه في رسم «الضبعيات» قال:

«اتضح لي بما لا يدع مجالاً للشك أن تلك الآبار هي آبار طويلع».

ولست مع شيخنا فيما توصل إليه من رأي، فليست الضبعيات هي ماء «طويلع» ذي النبك الحمر. وهذا القول يعني أني ألزمت نفسي بتحديد مكان «طويلع»، وإليك نتائج رحلتي الأخيرة للبحث عنه.

الرحلة الأخيرة للبحث عن «طويلع»

على إثر صدور أي كتاب من كتبي يتصل بي بعض الإخوان ممن وافق ما جاء في الكتاب رغبة في نفسه، فلا يتمالك إلا أن يتصل بي، منهم المثني أو المشجع أو المستفسر، فجزاهم الله عني أحسن الجزاء، فقد استفدت منهم كثيراً، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على حبهم لوطنهم وما يتعلق بتاريخه وآثاره.

من هؤلاء الأخ الفاضل الأستاذ عبدالرحمن بن سعد المبارك الموظف بوزارة التعليم العالي، الذي عرفت فيما بعد أنه ممن عشقوا أرض الصمان وهاموا في رياضها وأجويتها، فما يكاد يرى الغيث نازلاً حتى تراه يتجول في أرضه ليتأكد أن بعض الأجواء والرياض فيها قد جادها السيل ليختار أحسنها نبتاً، ليخيم فيها عندما تلبس حلتها الخضراء وتتفتح أزاهيرها.

وقد علمت أن له أقارب ومعارف في مدينة «قرية» يتصل بهم ويتصلون به فقلت له: إن بالقرب من «قرية» موضعاً من المواضع صعب عليّ العثور عليه، ولن أتمكن من معرفته إلا بالتعاون مع من لهم معرفة ودراية بمراعي مياه تلك الناحية ومواردها، فأفادني بأنه يعرف رجلاً مسناً يعرف المنطقة التي أبحث فيها معرفة تامة.

وعندما قررت القيام بهذه الرحلة ورسمت خط السير الذي سأسلكه عبر الصمان إلى جهات «قرية» اتصلت به وسألته عما إذا كان ينوي التخييم خلال إجازة عيد الأضحى لهذا العام، فقال: لقد اخترت المكان، وسأكون موجوداً فيه ابتداءً من اليوم الثالث من أيام التشريق، وقد زودني بدرجة الموقع وهو «رديفة جو عوجان» الواقعة بالقرب من نهاية خط الصمان عندما يقطع الدهناء مشرقاً.

و من المصادفات العجيبة أن يكون هذا المكان بالقرب من بداية خط سيري عبر الصمان الذي رسمته لتتبع مسار أحد الطرق القديمة الذي كنت أعمل على تحقيق مساره منذ فترة ليست بالقصيرة، وهذا الطريق يلتقي بطريق «حجر اليمامة» إلى «البصرة» بالقرب من «طويلع» الذي سنشد الرحال لتحقيقه.

ابتدأت الرحلة صباح يوم الإثنين ١٤١٩/١٢/١٣هـ وكان بصحبتي في هذه الرحلة رفيق الرحلات السابقة الأستاذ سعد بن عبدالعزيز السالم.

وعند الظهر وصلنا إلى تلك الروضة الفيحاء التي تنادي رائحتها العطرية من كان بعيداً منها، فألفينا الأخ عبدالرحمن وعنده ثلاثة من سكان مدينة «قرية».



الشيخ حمد الجاسر

أحدهم الأستاذ جزاء بن ناصر المطيري، وكان الأخ عبدالرحمن قد رتب معه بأن يجمعنا - عندما نصل إلى قرية - بالرجل المسن ليكون دليلنا في أرجاء تلك الناحية.

وبعد الغداء استأذنا لمواصلة الرحلة، فاقترح الأستاذ عبدالرحمن أن نبيت عنده هذه الليلة وفي الصباح نستأنف رحلتنا. فاعتذرت لكون وقت رحلتنا محدوداً بأربعة أيام فقط، وأن أمامنا الشيء الكثير الذي سنعمله، وكذا الأرض العريضة الوعرة التي سنقطعها ذهاباً وإياباً.

وكان علينا أن نعود جهة الشمال الغربي قرابة عشرة أكيال لننطلق من عند أحد أعلام الطريق لنتجه منه باتجاه الشمال الشرقي، وهكذا فعلنا وعندما شارفت الشمس على المغيب كنا موازيين لمنزل الأخ عبدالرحمن على بعد أربعة أكيال ونصف الكيل فقط. فاضطررنا إلى التعريج عليه والمبيت عنده، وما أجمله من سمر على ضوء حطب السَّمر.

وبعد صلاة الفجر وانبلاج النور واصلنا رحلتنا من آخر علم عثرنا عليه بالأمس. ومع وجوب صلاة العصر وصلنا إلى جو «وبرة» وأدينا الصلاة عند بئرها التي سبق أن تعرفنا عليها في الرحلات السابقة، وهي تبعد غرباً عن مدينة «قرية» ستة وثلاثين كيلاً. ومنها واصلنا المسير إلى قرية، فاتصلنا بالأخ جزاء بن ناصر الذي عرفنا مشكوراً بدليلنا العم: «علي بن عليان المطيري» حيث اتفقنا معه على الذهاب إلى «وبرة» و«الشيطين» وما حولهما بعد صلاة الفجر.

وفي الصباح الباكر غادرنا مدينة قرية. وفي جو وبرة كانت لنا جلسة مع العم علي حيث شرحت له الهدف الذي جئت من أجله وأنني أبحث عن بئر في هذه الناحية اسمها القديم «طويلع» صفتها كيت وكيت.

كان الرجل رغم كبر سنه على جانب كبير من المعرفة ودماثة الخلق وخفة الظل، إلى جانب كونه رعى الإبل والغنم في هذه الأرض، ولهذه الأمور مجتمعة في الرجل تفاءلت خيراً.

إن الدليل المادي المحسوس على وجود ماء «طويلع» هنا هو العثور على أنقاض الحصن الذي كان أهل طويلع يتحصنون به إذا خافوا.

وقد سبق أن حاولت في الرحلات السابقة العثور على أي أثر لهذا الحصن، ولكن محاولاتي باءت بالفشل. وقبل القيام من هذه الجلسة أحب أن أتكلم بإيجاز عن هذه المحاولات.

القلعة القديمة

عندما زرت جو وبْرة أول مرة تذكرت ما سبق أن قرأته في كتاب «رحلة إلى الرياض» وهي الرحلة التي قام بها المقيم البريطاني في «بوشهر» الليفتنانت كولونيل «لويس بلي» على ظهور الإبل من الكويت إلى الرياض سنة ١٢٨٢هـ الموافق ١٨٦٥م لمقابلة الإمام فيصل بن تركي آل سعود ـ رحمه الله ـ، قال بلي فيما كتبه عن رحلته تلك:

«... انحدرنا إلى الوادي الذي كانت تقع به آبار وبْرة التي تشكل المركز الرئيس لمكان تجمع واستراحة للقبائل، وهي في طريقها إلى ساحل الخليج ذاهبة إليه وفي طريقها عائدة منه. لقد كان هناك ما يزيد على مئه بئر تتزاحم جميعاً في مساحة تبلغ ٤٠٠ ياردة مربعة.

وتمثل وبرة نقطة تتجمع عندها طرق كثيرة. فإذا كنت عند الآبار فهناك طريق يؤدي إلى المجمعة في سدير يتجه جنوباً بغرب، ومن ثم للغرب عبر تلال من كتل الصخور الرملية الخشنة القاسية. والطريق المباشر للرياض يخرج من منطقة الآبار باتجاه الجنوب والغرب، وسرعان ما نجد بعد دخول هذه المنطقة التحاتية وعلى ربوة إلى اليمين قليلاً آثار قلعة جبلية صغيرة. ويقال إنها موغلة في القدم، لكنني حكمت من الفخاريات التي التقطتها ومن المظهر العام لخرائب القلعة أنه على الرغم من أن موقعها قد يكون قديماً فإن أطلالها الحالية لا ترجع قدماً إلى مئات كثيرة من السنين.

وبعد مغادرة القلعة بدت منطقة الصمان مكشوفة أكثر من ذي قبل»(٩). انتهى كلام بلي.

لقد حرصت كثيراً على العثور على هذه القلعة التي قيل عنها إنها موغلة في القدم، وهي التي مر بها لويس بلي والتقط منها قطع الفخار قبل مئة وثلاثين سنة من الآن «١٤١٩هـ».

وسألت كثيراً عن وجود مثل هذه القلعة في هذه البقعة من الأرض الخالية من أي أثر للمساكن المبنية بالطين أو الحجارة، وكل من سألته في الرحلات السابقة لا يذكر إلا ما يسمى بـ «رِجْمِ الميل» الواقع جهة الجنوب الغربي من جو وبْرة على بعد عشرة أكيال.

وقد وقفت عليه وبصحبتي الأستاذ سعد السالم في الرحلة «الثالثة» فألفيناه بنية صغيرة مصمتة فوق جُبَيْل، وهو على طريق قديم بنيت حجارته بمادة بخلاف الأعلام الأخرى، ومع أنه لا جوف له لم يسلم من تخريب الباحثين عن الكنوز الوهمية، حيث نقب من ناحيته الشمالية الشرقية، ويقال عنه حكايات متفاوتة مما يوحي بأنها لا أصل لها.

أما في هذه الرحلة فقد أخبرت العم عليًا بما شاهده «لويس بلي» في رحلته عندما صدر من ماء «وبرة».

فقلت: قد يكون هذا الأثر هو بغيتنا، فاتجهنا للمكان فوجدناه أثراً لمبنى قديم تناثرت حجارته فوق المرتفع، ومن يمر من حوله يلفت نظره لارتفاعه عن منسوب الأرض. ويبدو أن «درب المبيحيص» الممهد قبل صعوده من جو وبرة أخذ جزءاً منه.

وهذه الأنقاض تقع على حافة الطريق الشمالية، كما يوجد بناء أصغر منه، أساساته الحجرية واضحة في الجهة الجنوبية من الطريق.

وآثار هذه المباني الحجرية واقعة على خط العرض ٣٢ ٢٥ ٢٧ وخط الطول ١٣ ٢٠ ٤٧.

وكما التقط منه لويس بلي بعض القطع الفخارية قبل ١٣٧ سنة تمكنا من التقاط بعض كسر الفخار الملون والزجاج القديم.

وقد لاحظت أن المبنى الواقع على الحافة الجنوبية لم يسلم من العبث فيه. وياليت وكالة الآثار تهتم بهذه الآثار القديمة وتحيطها بسياج مع وضع لوحة تحذيرية، حتى تحين الفرصة للبحث فيه آثارياً.

أستبعد أن تكون آبار «الضبعيات» هي «طويلعاً» لأنها منزوية في منخفض من أرض الوادي محصورة بين مرتفعات جبلية لونها يميل إلى البياض أكثر منه للحمرة، وأرض الآبار لونها أبيض يشبه الجصّ



النبك الأحمر حول طويلع

بعد مشاهدتي لهذا الأثر وفي هذا الموقع بالذات لم يبق لدي أدنى شك في أنه أنقاض حصن طويلع القديم.

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: أين بئر أو آبار «طويلع» مادام هذا هو الحصن؟

لقد سألت العم علياً عن أقرب آبار قديمة إليه، فأشار إلى آبار تقع في سفح قارة ليست بعيدة عن هذه الآثار.

ومن يلق نظرة من عند هذا الأثر باتجاه الشمال يشاهد بالقرب منه النبك الأحمر الذي ورد في النصوص القديمة، لكون أسافل القور المواجهة كلها حمراء.

من موقع الحصن توجهنا إلى الآبار. إنها عدة آبار منها المطمور ومنها العامر المطوي بالحجارة طياً محكماً ولكنها جافة، نظراً لعدم الحاجة إليها، ولأن الاستهلاك الجائر للمياه في المزارع الحديثة في المنطقة سبب شح المياه في هذه الآبار وغيرها، خاصة بعد حفر الآبار العميقة.

ويوجد في شرقي «جو وبْرة» بئر من هذه الآبار لا تحتاج إلى آلة لرفع الماء فما عليك إلا فتح المحبس لترتوي.

لقد وقفنا على إحدى هذه الآبار وهي عامرة مطويّة بالحجارة طيّاً محكماً وفوهتها واسعة، كان عليها اثنتا عشرة قامة عندما كان العرب يردونها. وهي واقعة على خط العرض ٤٧ ٢٥ ٢٧ وخط الطول ٥٣ ٢٠ ٤٧.

من هذه الآبار المنتشرة جنوب شرق القارة التففنا من الناحية الشمالية للقارة فاعتليناها، ويوجد فوق سطحها المستوي العديد من أعلام الطريق القديم. وقد لفت نظري وجود قويرة حمراء ذات منظر بديع فسألت العم علياً، هل هذه القويرة الجميلة تطل برأسها علينا أم أنها قارة فوق هذه القارة التي نحن فوقها؟ قال: بل إنها فوق هذه القارة.

لقد تزاحمت المؤشرات، وتتابعت الأمور المقربة لـ «طويلع»، مما جعلني أتساءل مع نفسي، ألا تكون هذه القويرة الحمراء الغريبة الشكل هي «المثابة المشرفة»» التي ورد ذكرها في النصوص؟

كانت الخواطر تتسارع ويجر بعضها بعضاً، فسألت دليلنا، ألا يوجد بئر من هذه الآبار التي وقفنا عليها آنفاً كانت عذبة الماء؟

فقال: بلى، ولكنها منعزلة عنها، وغير صالحة الآن حيث خربتها السيول.

فقلت له: أين هي؟ قال وهو يشير إلى القويرة الحمراء: لو انحدرنا من هذا الجانب وجدنا البئر التي تسأل عنها في سفح القارة مرتفعة عن الآبار الأخرى. فانحدرنا باتجاه المكان، فإذا هي بئر عميقة جوانبها حمراء اللون. وقد خربتها السيول فلم يبق من طيها سوى الجهة الجنوبية منه، حيث إنه ما زال على حالته، وهذه البئر واقعة على خط عرض ٥٠ ٢٥ ٢٧ وخط الطول ٢٥ ٢٠ ٤٧.

إن الواقف عند فوهة هذه البئر يرى آثار الحصن أمامه باتجاه الجنوب على بعد ستمئة متر فقط، وهذه البئر هي أقرب الآبار إليه.

كما يوجد شرقاً من البئر على بعد مئتي متر أثر لمبنى مدور الشكل صغير المساحة أساسه الحجري واضح.

ولعل هذا المبنى الصغير أنموذج لقباب طويلع التي قيل إن لونها أحمر، فقد يكونون يؤسسونها بالحجارة، ويبنون حيطانها من طينة طويلع الحمراء، ومع مرور الزمن ذاب الطين وبقيت الأساسات الحجرية.

إن الدليل المادي المحسوس على وجود ماء «طويلع» هنا هو العثور على أنقاض الحصن الذي كان أهل طويلع يتحصنون به إذا خافوا

ولعل متخصصي الآثار يجدون أكثر مما رأيته في هذه العجالة إذا امتدت أيديهم إلى هذا الموقع.

بعد وقوفي على هذه البئر ومكانها من موقع الحصن لم يعد يخالجني شك في أنها هي بئر «طويلع» وأن الآبار المجاورة لها تابعة لها.

ويحق لنا هنا أن نتساءل ونقول:

ما السبب الذي جعل الرجل المسن يسأل من قابلوه ويقول لهم «فهل وجدتم طويلعاً»؟

أقول: لعل السبب أن البئر الأم من آبار طويلع، التي سميت الآبار باسمها كانت في زمنهم مهجورة لا تورد، وإنما تورد الآبار المجاورة لها.

فظن أنهم أضاعوا مكانها مثلما أضاعوا بئر «توضح» التي قال فيها امرؤ القيس:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمال

إذ حينما سألهم عنا لم يعرفوا مكانها لكونها منطمرة فوصف لهم مكانها.

ولعل بئر طويلع هجرت بسبب ما ألقي فيها من جثث القتلى حيث مر معنا ما فعله باغث اليشكري انتقاماً لقتل أخيه، حيث قتل ممن قتلوه خلقاً كثيراً حتى ملأ دلوه دماً براً بيمينه. وفي ذلك قال نصر بن عاصم اليشكري:

ومنا الذي غشّى طويَ طويلع
ذبائحَ من غالي الدم المتفاضل

أقول:

لعل هذه البئر هجرت في حقبة من الزمن، فأصبح يستدل عليها بمثابتها العالية المتميزة بها عن سائر الآبار، وقد تكون أصلحت بعد ذلك، يدل على هذا حالتها الراهنة مع تخريب السيول لفوهتها.

خاتمة لغوية

عندما سأل الشيخ المسن عن «طويلع» قيل له: «إنه عند المثابة المشرفة».

فقال: ذاك طويلع. فما هي المثابة في اللغة؟

لقد حرصت على أن أعثر ولو على قول واحد يستشف منه أن مثل تلك القويرة الحمراء المطلة على البئر تسمى «مثابة» ولكني لم أجد فيما قرأت ما يدل على ذلك.

ولكوني أعتمد كثيراً على معاني الكلمات في اللغة العربية الفصحى وما جاء في الشعر العربي للاستدلال على الأماكن، فإنه لا يسوغ إطلاق القول على عواهنه.

والرواية التي أوردها البكري في معجمه جاء فيها عبارة «عند القامة الشرقية»

بينما وردت العبارة في صفة جزيرة العرب للهمداني «عند المثابة المشرفة».

ويبدو لي أن الأمر الذي ماجاء عند الهمداني، لأنه لا معنى لكون البئر عند القامة الشرقية، الأمر الذي يستتبع ـ والحالة هذه ـ أن هناك قامة غربية أو أكثر من قامة على البئر.

والأرجح أن صحة العبارة «عند المثابة المشرفة» فما هي المثابة؟

قال ابن منظور:

«مثاب البئر وسطها، ومثابها مقام الساقي من عروشها على فم البئر... ومثابتها: ماأشرف من الحجارة حولها يقوم عليها الرجل أحياناً كي لا تجانف الدلو والغرب، ومثابة البئر طيها عن ابن الأعرابي.

قال ابن سيده: لاأدري أعنى بطيّها موضع طيها أم عنى الطيّ الذي هو بناؤها بالحجارة.

والمثاب: صخرة يقوم الساقي عليها يثوب إليها الماء، قال الراعي:
مشرفة المثاب دحولا...»(١٠) انتهى.

وكأني بالراعي النميري يصف لنا بئر طويلع حينما قال:

سُدماً إذا التَمَسَ الدِّلاءُ نطافَهُ
صَادَفْنَ مُشْرِفَةَ المثَابِ دَحُولا
جَمَعُوا قُوىً مما تَضُمُّ رِحَالُهُمْ
شتَّى النِّجَارِ ترى بهِنَّ وُصُولا
فسقَوا صَوادِيَ يَسْمَعُونَ عشيَّةً
للماءِ في أجوافِهِنَّ صَلِيلا(١١)

وظني أن هذه البئر عندما كانت عامرة في سالف عصرها كانت متميزة عن الآبار المجاورة لها لعلو مثابتها، ولهذا وصفت بها.

وما أرى البئر التي وقفت عليها وحددت مكانها إلاّ بئر طويلع ذات المثاب، والله أعلم بالصواب.

الهوامش:

١ـ بلاد العرب: ص٣١٤ ـ ٣١٧.
٢ـ صفة جزيرة العرب: ص٢٧٠.
٣ـ كتاب النقائض ١/٢١٤.
٤ـ معجم ما استعجم: ص٨٩٩.
٥ـ معجم البلدان: ص٤/٥١.
٦ـ صحيح الأخبار: ص٢/١٧٦.
٧ـ معجم المنطقة الشرقية: ص٣/١٠٤٣ ـ ١٠٤٦.
٨ـ معجم المنطقة الشرقية: ص ٣/١٠١٨.
٩ـ رحلة إلى الرياض: ص ٣٥ ـ ٣٦.
١٠ ـ لسان العرب: ص١/٣٨٢.
١١ـ ديوان الراعي النميري: ص٢٢٣. وانظر القصيدة في جمهرة أشعار العرب فهناك شرح لمعاني الكلمات اللغوية.

شاعر مظلوم

منوّر صمادح صوت الكفاح التونسي

محمد عبدالكافي

كانت البلاد تئن تحت عبء ثقيل من الاستعمار. الشوارع ممتلئة بالدبابات والجنود، والسجون المحتشدات مملوءة بالمناضلين، والزوايا والأركان ملأى بالمنظمين المدبرين لعمليات النضال، وتطغى على الكل ضوضاء المظاهرات وأناشيد المتظاهرين ورصاص المستعمرين. كان ذلك في تونس الخضراء، وفي أوائل الخمسينيات عندما انتفضت البلاد انتفاضتها الأخيرة التي انتهت بتحقيق الاستقلال، ودحر الاستعمار الفرنسي الذي قبع على صدرها نيّفاً وسبعين عاماً.

خرجت ذات ليلة برفقة صديق زميل من أحد الاجتماعات التي كانت تعقد سراً أو جهراً في كل حي وفي كل ركن، وما إن ابتعدنا بضعة أمتار عن مكان اجتماعنا حتى استوقفني صديقي، وإذا نحن أمام شاب في سننا، نحيف القامة، أسمر الجبهة، لمّاع النظرات التي توحي بالذكاء والحزن. وقال صديقي: هذا هو منوّر صمادح، ثم قدمني له، وإذا نحن يحتضن أحدنا الآخر كصديقين أو قريبين التقيا بعد فراق طويل. ومن تلك اللحظة أصبحنا صديقين وزميلين يعملان ككل شباب تلك الفترة من أجل خلاص تونس، منهم من يعمل باللسان، ومنهم من يعمل بالقلم، ومنهم من يعمل بالنضال المسلح والفداء.

ودارت الأيام دورتها، وقبل أن تدخل الستينيات باعدت بيننا الديار، فسمعت عنه الكثير، وتابعت أعماله أكثر، ثم خمد صوته، وزالت ذكراه إلى أن كانت بداية السبعينيات فقربت المسافات بيننا، وها أنذا ألتقيه من دون وعد سابق بأحد شوارع العاصمة التونسية، فأحييه، وأحتضنه، ويحتضنني، لكني شعرت وكأني احتضنت خيالاً أجابني بصوت خافت ونظرة شاردة. وبعد فترة صمت: ستنطلق الحمامة ولا بد لها أن تسرح في الفضاء الطلق. وابتعد تاركاً إياي مشدوهاً متألماً، والدموع تترقرق في عيني علماً مني بأن صديقي الذي لم يسكته أزيز الرصاص لما سكت كل الشعراء أمثاله قد أخمد صوته «وقع النصر» فها هو ذا يعاني أزمة نفسية.

من هو؟ شاعر تونس المكافحة، وصوتها المدوي أيام النضال والصراع من أجل الحرية والاستقلال. إنه العصامي منوّر صمادح سليل آل صمادح، وأميرهم محمد المعتصم بن صمادح الذي ملك المرية بجنوب الأندلس. ولد بمدينة نفطة بالجنوب التونسي في السابع عشر من شهر أيلول/سبتمبر عام ١٩٣١م، وكما يقول هو نفسه: في التاسعة من عمري فارقت الكُتّاب (مدرسة لتحفيظ القرآن) بعد ما فارقني أبي إلى الأبد... وكان رحمه الله من العلماء الجلّة. تخرّج في الأزهر الشريف بمصر، وباشر مهنة التدريس بجامع القرويين بمدينة فاس، ودرس بالجزائر، وقضى بقية حياته في خدمة العلم وإفادة الناس حتى مات سنة ١٩٤١م في نفطة. وكان لي إخوان ثلاثة لا بد أن يترسموا خطا الوالد العلمية، ولكنه لم يترك لنا المال الكافي، فاضطرت والدتي إلى

التخفيف من حملها، فأرسلتني إلى خالي محمد الناصر الحشاني الذي كان خبازاً آنذاك، بقرية سيدي عمر بوحجلة من ولاية القيروان، فوجدت فيه حنان الأب وعطف الأم، وتعلمت عنه صناعة الخبز حتى أتقنتها، وأخذت عنه صناعة الفطائر والحلويات، وأشرفت معه على المخبز والحانوت من عام ١٩٤٤م إلى ١٩٦٤م.

تأزمت أوضاع الخال المادية، فاضطر ومن معه إلى الانتقال إلى عدة أماكن من البلاد طلبًا للرزق وفي ٣ آذار/مارس ١٩٨٤م خرجت مع خالي إلى البادية وعلى ظهرينا الفراش والملابس حيث التقينا بجماعة من العرب الرحل، واصطحبناهم إلى بلدة مكثر من ولاية الكاف سيراً على الأقدام.

وفي هذه الفترة كان أول عهد صمادح بتصفح بعض المجلات التونسية والشرقية التي كان يطالعها خاله، ولم يكن إذاك يحسن سوى قراءة العناوين الضخمة. والظاهرة اللافتة في منوّر صمادح، كما يقول الأديب والمفكر الجزائري الجنيدي خليفة: إنه باستثناء تأثير أبيه في نطاق العموميات والمعارف ما قبل الأولية، فأبوه لم يعلمه، ولكن الابن استمع منه عن غير قصد بعض الأحاديث والعبارات التي ربما لم تكن لتفيده أو ليفهمها بطريقة مباشرة، وعمل «الكتّاب» اقتصر على تعليمه التهجي، وتحفيظه قرابة نصف القرآن. وعلى كل فإن صمادح يؤكد أنه لم يتلق بأية حال من الأحوال تعليماً في قواعد العربية أو في العروض.

لكن منوّر صمادح موهوب، وخاله - كما يقول عنه - أديب، له شعر فحل، ونثر كثير الدر... فكنت أستمع إلى محاوراته في الأدب والفن والسياسة والاجتماع، وأتلقف من أصحابه معلومات مختلفة إلى أن وجدتني أميل إلى المطالعة، ثم إلى فهم الموضوعات، ثم إلى خط كلمات لفتت نظر خالي، وأعلمني بأنها شعر... وساعدني في بدء الطريق إلى أن وُفِّقت إلى نظم قطعة شعرية، ألقيتها في اجتماع وطني، فنالت استحسان الحاضرين.

كان صمادح صوت تونس المدوي، وضمير شبابها الطموح، وباعث إقدامهم في زمن كمّت فيه الأفواه

ويلقي الشاعر الفتى قصيدة في اجتماع وطني عام أمام رئيس الحزب الوطني، فيعجب به، ويشير عليه بالذهاب إلى العاصمة، والاتصال بإدارة الحزب لمساعدته على الانتماء إلى مدرسة ما. وهذا - كما يقول - «ما جعل آمالي في الثقافة تلمع في عيني لمعان الماء للظمآن...» ولكنه عاد بخفي حنين، كما يقول، غير أنه قويّ الإرادة، ثابت العزيمة، شديد التصميم، فها هو ذا يطرق كل الأبواب إلى أن التقى الوطني الغيور والأديب والصحفي الكبير المناضل الأستاذ زين العابدين السنوسي صاحب صحيفة «تونس» الذي نشر له بعض القصائد، وكلفه بمهمة جمع الاشتراكات للصحيفة في جميع أنحاء البلاد، فقام منوّر بالمهمة خير قيام، وأضاف إليها مراسلات كان يبعث بها إلى الجريدة، فتنال الاستحسان، ويدخل عليها مدير التحرير بعض الإصلاحات، وينشرها. لكن ما هي إلا بضع مراسلات حتى أصبح ما يكتبه لا يحتاج إلى إصلاح، بل كان ينشر كما يجود به قلم صاحبه.

هكذا دخل الشاعر مجال الصحافة محرراً متجولاً، ثم تحول إلى مشرف على صفحات أدبية في عدد من الصحائف. لكنه اضطر قبل ذلك إلى العودة إلى المخبز وصنع الفطائر دون الانقطاع عن كتابة الشعر ونشره، حتى إن الرواد الذين كانوا يقبلون - كما يقول - «على تناول فطائري، و تعجبهم صناعتي، كم يكون ابتهاجهم عظيمًا عندما تفاجئهم الصحافة اليومية والأسبوعية بنشر صورتي وقصائدي، فتراهم لا يكادون يصدقون أنهم يقرؤون في المساء أدب من اشتروا منه الفطائر في الصباح».

وفي أوائل الخمسينيات عاد إلى العاصمة، وعاوده الحنين إلى الصحافة، فعمل بها، وبقي يعمل، ويكتب الشعر، فكان صوت تونس المدوي، وضمير شبابها الطموح، وباعث إقدامهم في زمن كُمَّت فيه الأفواه، فسكت الكثيرون إلا صمادحاً، فقد بقي مزمجراً على الرغم من دخوله السجن والتعرض إلى اعتداءات المستعمر الظالم.

ضمير حي

برز منوّر صمادح في أول الخمسينيات، وسرعان ما سيطر اسمه وشعره في المجالين الأدبي والوطني؛ لأنه - كما يقول - لم يكن يرى أنّ الشعر ضرب من ضروب الترف والمتعة الفنية، ولم يعد الشاعر العربي ذلك الحالم الخيالي الذي يعيش في عالم



لا عذر بعد اليوم، فلنضمن لهم عيشًا كريمًا، فافتحوا الأشغالا

غير منظور. لقد وجد نفسه، واكتشف وجوده، وأحس بما يدور حوله من أحداث وطنية وقومية وعالمية، وشعر بواجبه المفروض الذي يؤديه نحو الأمة بوصفها الركن الأساسي الذي يعتمد عليه لخدمة قضايا الإنسان العامة، والواجب ينتظره في البيت والشارع والحومة... ويناديه من خلال الحياة اليومية المتشعبة وجزئياتها التي كانت في الماضي لا يؤبه لها، وأصبحت اليوم نقطة الانطلاق إلى العمل الفكري في الميادين الحياتية الكبرى.

كان منور صمادح يرى أن الشاعر عضو عامل بل لازم لدفع عجلة الحياة؛ إذ هو المنبه والموجه والمرشد:

هيّا أخي نبني الحياة ونرتدي الـ
ثوب الجديد ونحرق الأسمالا
هيا أخي نفني الجهالة إنها
ليل الحياة بأفقنا قد طالا
هيّا أخي نسدي إلى المرضى يدًا
حسبُ المريض بكوخه إهمالا
وامنحْ لجيش العاطلين كرامةً
وافسحْ لهم في العالمين مجالا
لا عذر بعد اليوم، فلنضمنْ لهم
عيشًا كريمًا فافتحوا الأشغالا

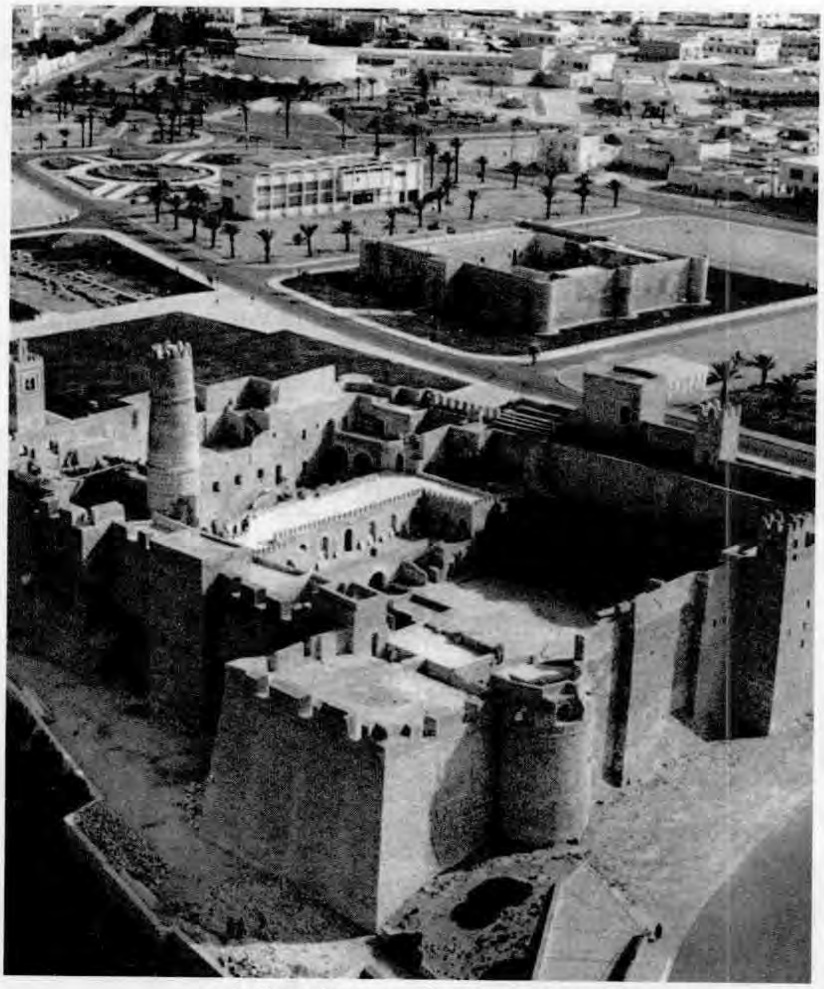
هذا لأن الحياة عمل لا قعود ورجاء، والكرامة كنز تحت الثرى مدفون وجب إخراجه:

إن الكرامة درة مكنونة
تحت الثرى مودوعة مدفونة

فبالعمل والجد تبنى الحياة، والشاعر يرسم سبلها ودروبها، ولو صعبت مسالكها وذلك لأن:

زمن التسامح قد ذهب
الأمر جدٌ لا لعبٌ
هذي الحوادث مجلي
ت ما تبرقع وانتقب
والخصم يا قومي عنيـ
د ليس تردعه الخطب
سنشنها حمراء تقـ
ذف بالمنايا والشهب
والعقل رائدنا به
كم قد توقينا العطب

يملأ صمادح إذًا سماء تونس بل المغرب العربي بأكمله نداء إلى العمل



منظر عام لتونس العاصمة يجمع بين القديم والمعاصر

وتغيير أوضاع ثقلت على الشعوب، فلا بد من الخلاص، ولا سبيل له إلا بالتضحية والفداء لأن:

ثمن العز فداء ودما
وجهاد ونضال مستمرْ
أيُّ عز إن بقينا هكذا
أي تحرير ألا فلْنعتبر
إن للعقل مصابيحَ بها
يهتدي المرءُ إذا الأمرُ اعتكرْ

ناضل منوّر صمادح أنبل نضال وأسماه في سبيل الحرية والانعتاق إلى أن نالت تونس استقلالها وحريتها، وتسلم أبناؤها مقاليد أمورها، فانفتحت أبواب الأمل، وظن الكثيرون - وفي مقدمتهم منوّر صمادح - أن بلوغ المقاصد والمرامي أصبح على ملمس اليد، فأخذ الشاعر يعمل مع صحبه العاملين في سبيل تلك المثل والغايات.

خيبة الأمل

لكن الفرحة لم تدم طويلاً، وما كان مؤملاً لم يحقق، وعلى محبته القائد، وإعجابه به أيام الكفاح ككل أبناء ذلك الجيل، لم يستطع التملق ولا النفاق، في زمن كثر فيه المتملقون والمنافقون، بل بقي على عهده، موجهاً حيناً، وناقداً حيناً آخر:

بالأمس ذللتَ الصعابَ وقدتَه
شعبًا أعاد لأرضه استقلالا
وأثرتَ في روح الشباب حميةً
وبعثتَ فينا عزةً ونضالا
واليوم أنت أبٌ لنا ورئيسُ دو
لتنا وحزبك مجده لا زالا
فارفع لواء العدل بين ربوعنا
واشمل بعطفك شُرَّدا وثكالى
أنقذ ألوف البائسين من الشقا
إن الشقاء بأرضنا قد صالا
وازجر طغاةً ليس يرجى خيرهم
فلقد قضى زمن الطغاة ودالا

قال منوّر: فارفع لواء العدل ولم يقل رفعت، وأنقذ ألوف البائسين ولم يقل أنقذت، فشذ بذلك عن الجمع خصوصاً وأنه تعرض لشعار الحزب آنذاك وهو «الصدق في القول والإخلاص في العمل» فقال:

شيئان في بلدي قد خيبا أملي
الصدق في القول والإخلاص في العمل.

ولا غرابة في أن يخيب أمله وأمل الكثيرين من أمثاله في تلك الآونة، فكانت صدمة كبرى هزت كيانه المرهف الحس، وأضيف إليها صدمة أخرى تمثلت بإخفاقه في حب عنيف هزّه، فلم يقو جسمه، وإن قوي قلبه وروحه، فاختلت صحته. وبعد العلاج والنقاهة عمل منوّر صمادح بمقولة تونسية مشهورة وهي: «وافق أو نافق أو اخرج من البلد». وحيث يصعب على نزيه مخلص مثله الموافقة على الظلم والانحراف، كما يصعب عليه النفاق والتملق، آثر الخروج والهجرة متجهًا إلى الجزائر التي قبلته بترحاب وكرم، فبقي هناك سنوات يعمل بدار الإذاعة وينتج:

هُزم الخصوم وذلّت الأقزام
وإلى الجزائر خرّت الأصنام

لكن الجزائر هذه ستمر هي الأخرى بمرحلة صعبة مظلمة يبدو أنها لم تكن لترضي طموحات هذا الشاعر البعيد المرامي، المخلص الوطنية، العروبي المشاعر فهو يقول:

سلام على العرب في كل مصر
وعــون لوحــدتـهم وصــلاتْ
فنسـر ونصر على الغـاصبين
إذا الشــعب يومًـا أراد الحــيـاة

ويقول:

قالوا هجرت؟ فقلت تونسُ قبلتي
قـالوا الجزائر؟ قلت مـفخرة الأمم
أهلي هنا، وهناك نـبع صـبـابتي
من قـال إنّا أمّـتـان فـقـد ظلم.

عـاد الشـاعـر إلـى تونس دون أن يعـرف سـبب العـودة، وسـيـبـقى منهك القوى معتل الصحة عسى أن يرحمه الله بشفاء قريب.

الشاعر الموسيقيّ

لقد عشق منوًر صمادح الموسيقا عشقه الشعر والحرية، وكما تعلم الشعر بلا معلم حذق الموسيقا، وعزف على العود بالسليقة تقريبًا وبالاختلاط؛ إذ انتسب إلى المعهد الرشيديّ ـ معهد المحافظة على الموسيقا التقليدية والتراث ـ وكان عضوًا في لجنته الأدبية، فساعد ذلك على أن يصبح الشاعر ملحنًا لعدد من أغانيه. يقول عنه، بهذا الخصوص، الدكتور صالح المهدي رئيس مجمع الموسيقا العربية: وقد كانت مفاجأتي الأولى في إحدى سهرات الاتحاد التونسي للمؤلفين حين تقدم الشاعر الظريف بمشروع تلحين لإحدى قصائده، فإذا رقة شعوره تنبثق من خلال نغمات لحنه، وإذا بمن استمع إلى قطعته، معي، يسأل: هل الشعر هو مصدر التأثير أم إن الحلية النغمية كسبت قصب التأثير؟ أذكر أني زكيت هذا المجهود، وتنبأت للأخ صمادح بالتقدم في ميدان التلحين، إن هو ثابر، وكان بحمد الله عند حسن الظن كما عهده موجهوه في طريق الأدب.

هذا ما قاله عنه الدكتور صالح المهدي. أما الأديب التونسي الكبير الفقيد محمد الحبيب فهو يقول: لقد سبق في التاريخ الإسلامي أعلام جمعوا بين غرض الشعر وأدب تلحين النغم، فكانوا من ذوي الأدبين، وصدرت عنهم الألحان المعجبة كإسحاق الموصلي، وأمة بن عبدالعزيز الذاني، ومحمد الطريف التونسي، وابن باجة، وابن زهر الأندلسيين وغيرهم كثير. لكن في عصرنا هذا لم يتقدم شاعر ـ بعد شيوع الطباعة والترقيم والموسيقا ـ بديوان إلى المطابع يحمل شعرًا ملحنًا مرقومًا بالترقيم الموسيقي المضبوط، إلى أن جاءنا الشاعر التونسي الملهم منوّر صمادح بديوان لطيف من الشعر الغنائي المركز على النبرات بهذا الابتكار الطريف... ويكتب عنه كذلك الأديب والمفكر الجزائري الأستاذ الجنيدي خليفة، فيقول: كل ما أعلمه أن منورًا قد أولع ابتداءً من سنوات بعد الاستقلال ١٩٥٦م ولعًا ظاهرًا بالموسيقا والغناء، وما زال إلى الآن كذلك يعزف على العود، فيؤلف الألحان، وينشد الأغاني. أتكون هذه الهواية الجديدة قد امتصت نوعًا من هواياته القديمة فجعلته ينصرف على الأقل عن طبع نتاجه؟ لكنّ صمادحًا لا يفتأ يؤكد أن الموسيقا والشعر يكونان عنده وحدة منسجمة متكاملة بحيث إن أحدهما يساعد الآخر لا يعارضه.

إذا ما العودُ حنّ على ضلوعي
ورنّ تركت للوتر الكلاما
حـياتي فيه والهةٌ تغني
وقلبي منه يضطرم اضطراما

اشتراك في الألم والتكريم

هُمِّش منوّر صمادح ولم يمت، واعتلت صحته ولم ينس. فها هي ذي الأوضاع في تونس تتغير وها هو ذا رئيس الدولة الجديد يكرم الشاعر بالجائزة التقديرية في الآداب. ومن لطيف الأقدار أن يتزامن هذا التكريم مع إسناد الصنف الأكبر من وسام الاستحقاق الثقافي لابن تونس الآخر الشاعر الخالد أبي القاسم الشابي، فتشابه الشاعران في الألم والأحاسيس ومواجهة الظلم وتحمل ضرباته، واتحدا في استلام التقدير والتكريم.

إن هذا ليثلج صدور كل الذين عرفوا منوّر صمادح عن قرب، وتلا عليهم فرددوا شعره الثائر. ومما يزيد في سرورهم وسرور محبي الشعر النقي هو العمل الكبير الذي أقدم عليه شقيقه الأديب المفكر الأستاذ عبدالرحيم صمادح الذي ـ على الرغم من صعاب النشر ـ أقدم، فأخرج للقارئ العربي الأعمال الشعرية الكاملة لمنوّر صمادح في ديوان أنيق منظم مبوب بمنهجية وترتيب تماشيًا ومتطلبات العصر في نشر مثل هذه الأعمال التي تفوق ٢٥٠ قصيدة. وقد تم ذلك عن طريق بيت الحكمة بتونس، والدار التونسية للنشر. ويقول الأستاذ عبدالرحيم صمادح في مقدمة الطبعة الأولى لهذه المجموعة: ولد منوّر الإنسان وقد أنهى هذا القرن ثلثه

عشق صمادح الموسيقا عشقه الشعر والحرية، وكما تعلم الشعر بلا معلم حذق الموسيقا بالسليقة

الأول، وولد منوّر الشاعر مع منتصف القرن قائلاً لشعبه البائس «ابتسم يا شعب» ومنذ ذلك الحين قال كلماته جلية جلاء الصدق مدة عقدين بتمامهما، ثم وضع قلمه، وأسكت قيثارته. ترك الناس، ولم يغادر عالمهم، وبقي وكأنه ضمير يهجس أو عين تحدق في هذا الشعب الذي منحه الكثير من قلبه وعقله، ومر عقدان آخران نسيه فيهما الناس، وكانا كافيين لتعتيق الخمرة. فبعض الأدب لا يقوى على امتحان سنتين لا

لم يكن يرى الشعر ضرباً من ضروب الترف والمتعة، ولم يكن ذلك العالم الخيالي الذي يعيش في عالم غير منظور

عقدين، وبعضه يبدأ عمراً جديداً بعد امتحان النسيان، تلك سنة الطبيعة التي لا تبقي إلا على من يقوى على مصارعة الزمن... ونختصر فنقول: كانت الخمسينيات والستينيات سنوات الإلهام والإبداع، والسبعينيات والثمانينيات سنوات الجحود والنسيان، أما التسعينيات التي بدأ يعود فيها الدرّ إلى معدنه، فستشهد مسيرة جديدة لأدب شاعرنا بانطلاق عمليات البحث والجمع والتحقيق.

شعره

إن ما يتصف به شعر منوّر صمادح هو السلاسة والخفة والثراء اللغوي والنغم، وقوة الشعور والإحساس اللذين يتسربان إلى القارئ، فيشعر ويحس بما خالج الشاعر إضافة إلى التلذذ والمتعة:

هو ذا قلبي غدا ملك يديك
خاشعًا في هيكل الحب لديك
في ابتهال وخجل بين يأس وأمل
مضّه الوجد فأضناه وذابا
وَهْو في حبك يلتذ العذابا
كالفراش المضطرب همه أن يلتهب

ليس من المبالغة القول إن منوّر صمادح ينطق بالشعر كما ينطق بالكلام، ثم إن شعره متنوع الأغراض، متنوع الوزن، متنوع المعاني، ولو أنه تغلب عليه الوطنية والإنسانية، وهو مملوء بالحكم والمقولات، فهو يقول مثلاً:

كلما أبصرت يومًا مشهدًا
كان ذكرى قبل تحويل البصر
ثمن العز فداء ودمًا
وجهاد ونضال مستمر
إن للعقل مصابيحَ بها
يهتدي المرء إذا الأمر اعتكر

ثم إن الشاعر منوّر صمادح يجيد التشبيه في شعره، ويقدمه في كساء عذب مستلذ من ذلك قوله:

قد كان مثل الليث يربه الظلام إذا سرى

أو ما هو أبلغ وأعمق:

يا صبح لا تطلع فملء جوانحي
نور الحقيقة لا ضبابَ ولا سدمْ

إنسانيته

لما أبى صمادح ركوب حافلة المطبلين للحاكم المزمرين له همّش ووصف بالكثير مما ليس فيه، وذلك لا لشيء إلا لخروجه عن القافلة التي كانت تناهض التيار الوحدوي العربي. ومنوّر يؤمن به، ويطمح إليه كأغلبية الشعب التونسي آنذاك، ومنهم الشاعر والصحفي الشهير الأستاذ الهادي العبيدي الذي يحييه منوّر، فيقول:

ومن للعروبة في تونس
وقد عهدت فيك أوطارها
فحُثَّ الخطا ألهم المؤمنين
لتجمعَ تونس أجوارها
فإني أرى الوحدة المرتجاة
وربك يجمع أنصارها

اتهم منوّر بالشيوعية في فترة اشتد فيها الصراع والحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي بقيادة الاتحاد السوفياتي، والغربي بزعامة الولايات المتحدة، فأبى لسان منوّر أن يطاوعه على مدح الغرب الذي كان يفتك بالشعوب التي أقربها إلى الشاعر وأمثاله الشعب الجزائري المقاوم، فيقول بصدد هذا:

قالوا التوحش زالا
فأجبتهم من قالا؟
من ذا الذي بقر البطون وقطّع الأوصالا؟
من ذا الذي سفك الدماء وقتّل الأطفالا؟
درسٌ من الغرب الصديق يُعلِّمُ الجُهالا
ذاك الذي نعتوه بالحر الأبيَّ ضلالا
ما زال في أسر المطامع يحمل الأثقالا
عبداً لقوته التي
عادت عليه وبالا
الحر من عشق الوجود وكان فيه كمالا
الحر من صنع السلام وأمّن الأجيالا
الحر من ساد الغرائز واصطفى الأفعالا
وعصى الهوى وجنونه
واستعبد الآمالا

كيف يكون منوّر شيوعيًا، وهو سليل عائلة مسلمة متدينة، وهو المربى

تربية دينية بدأت بحفظ القرآن الكريم؟
لا لم يكن منوّر صمادح شيوعيًا بل كان مسلمًا مؤمنًا حتى إن ذلك الإسلام وذلك الإيمان قد صيرا مشاعره وأحاسيسه وأفكاره إنسانية عالمية لا فرق عنده بين هذا وذاك إلا بالتقوى التي هي العمل والصراع وخدمة المجتمع في سبيل ازدهار الناس أجمعين تحت مظلة العدل والحق.
أليس هو القائل:

هي ثورة الإنسان حطم قيده
ورمى به وجه المغير الأجنبي
هي ثورة الإيمان بالله العظيـ
ـم وبالكتاب وبالسلام وبالنبي.

لا، لم يكن كما قالوا وادّعوا بل كان إنسانيًا يحب الإنسان للإنسان:

أيها الشاعر يا صحو الضمير
في المغيرين على الشعب الصغير
أنت روح ثار في أعصابنا
زلزل الأرض على كل مغير
دمتَ للإنسان تُعلي صوته
عشت للرايات والنصر الأخير

النصر على الجوع والفقر والتمييز لأن:

حياة العصر تفقد محتواها
وروح الحق تسقط من علاها
عمينا ليس ندري أين كنا
ولا تدري الطريق بمن مشاها
بحار بيننا قد عمقوها
وقد حفروا الشواطئ والمياها
قسمنا الفكر فهو على انشطار
وبعنا روحنا لمن اشتراها
مدينتنا قبور بعثروها
ونحن الميتون على ثراها

لكن ما ضاع حق وراءه مطالب فلا بد من تغير الأوضاع و:

سيشرق الضياء في القلوب
ويبسم الأمل
ويخلد السلام للشعوب
ويثمر العمل

تشابه مع أبي القاسم الشابي في الألم والأحاسيس ومواجهة الظلم، واتحد في التقدير والتكريم



أبو القاسم الشابي

وكل هذا لأنه:

حرام أن تعيش بغير حب
فإن أحببت لا تخف الحراما

ثم ها هو ذا شاعرنا يخاطب القمر الصناعي «لونيك» الذي أرسله السوفييت سنة ١٩٦٦م:

كن للسلام رسوله
لا للتراشق بالكلم
واخفق بأجنحة المحبـ
ـة فوق ذاك المنتظم

لقد ظلموا منوّرًا أكبر ظلم، واتهموه بما ليس فيه، لكن صراحته في عهد النفاق والتزلف لم تكن مستساغة وكيف تستساغ؟ وهو يقول:

أنا من حييت عن الهوى أتعالى
وأجيد في الحق الصراح مقالا
من روح هذا الشعب أستوحي الهدا
ية والتُّقى أستصغر العذالا
ما زلت أحدو ركبه ألقي عليـ
ـه من المحبة والإخاء ظلالا
ولسوف أبقى صوته الداوي الذي
لا يختشي أبد الزمان زوالا
هيّا أخي وامدد يديك تعاضدا
واهتف معي بين الورى جوالا
باسم الجياع الهائمين على الوجو
ـه التاركين منازلا وعيالا
باسم الطفولة في بلادي شُرّدتْ
لا باسم من قد أهملوا الأطفالا
باسمي أنا ولقد عرفت من التشرّ
د شرّهُ ومن الهموم ثقالا
.. فوجدتُ في تلك الشقاوة رفعة
وعرفتُ في بؤسائنا أمثالا
لا باسم من عابوا الفقير لفقره
وهو العظيم، وقدّسوا الأنذالا

هل الذي له مثل هذه المشاعر وهذه الأفكار، وأحب الضعيف، وناصر الحق، وثار على الظلم والجوع لا بد أن يكون شيوعيًا؟ إن هذا ليس سوى إنسانية شاملة، وجد في القرآن الكريم والدين الحنيف منابعها وأصولها، فأحب الخير، وسعى للإصلاح:

ولكن أعود ويا حسرتي
إلى عالم مُثْقَل بالذنوبْ
ودنيا من الشر في سكرة
يفاخر سكانها بالحروبْ
ولا شيء يفني بذراتهم
سواهم فبعض لبعض خطوبْ
شعوب على الأرض تبني الحياة
وتهدم تلك الحياة شعوبْ

شبيه الشابي

إن منوّر صمادح شاعر آمن بدينه وبوطنه الصغير والكبير وبعروبته وبإنسانيته، فثار، وحارب، وقاوم الاحتلال، والظلم والجور، والفقر والجوع، والتعسف والجهل، وكان يطمح إلى عكس هذه العيوب

والنقائص، ويظن أن الاستقلال سيكون فاتحة عهد يقضي فيه على كل هذه العاهات الاجتماعية أو جلها لكن - ويا للأسف - لم ير إلا عكس ما كان يطمح إليه، ويطالب به، ويدعو إليه، فتألم كما تألم الشابي من قبله، وقاوموه كما قاوم الشابي قوم آخرون. والغريب أن وجه الشبه بين الشابي وصمادح كبير ملحوظ من عدة وجوه، ويتجلى ذلك في شعر صمادح من حيث موسيقاه وعباراته وألفاظه وصوره وتشبيهاته، علاوة على التألم للغير،

لم يكن صمادح يائسًا على ما كان عليه من ألم وشقاء، بل كانت ثقته بالناس والمستقبل كبيرة

والمناداة بالثورة والعمل. فها هو ذا مثل الشابي يسير إلى الغاب، ويقول:

وسرت إلى الغاب علّي به
أخفف من ثائرات الضجر
هنالك في الجبل الوعر في
ظلال الغصون وتحت الشجر
بعيدًا عن الناس في وحدة
تعاورها حائرات الفكر
ويبحث في عمقها باحثي
عن الروح والروحُ مجدُ البشر

إن قراءة مثل هذه الأبيات لا بد أن تذكر القارئ بالشابي، فلغتها ووزنها وروحها وفلسفتها قريبة مما عودناه شاعر تونس الآخر الذي قال:

ومن يتهيّب صعود الجبال
يعش أبد الدهر بين الحفر

فيحاكيه شاعرنا صمادح بعد أكثر من عقدين بقليل، ويقول:

إني امرؤ عرف الحياة فلم يجد
أهلاً لها غير الفتى المقدام
من يركب الصعب المخيف ويعتلي
قمم الفخار بكل عزم ظامي
الجهد والرأي الجسور سلاحه
والهزء بالعقبات والآلام

ويحاكيه في موضع آخر فيقول:

ها أنا كالسيل أجتا
ح الروابي والحُزونْ
أجرف الجذع ولا أبـ
قي على ميت الغصونْ
أنا موت الموت، في ظلـ
ـي يعيش الخالقونْ

فيذكرنا بالشابي، وهو يقول:

ليتني كنت كالسيول إذا سا
لت تهد القبور رمسًا برمس

لكنّ صمادحًا على رغم الألم والشقاء لم يكن يائسًا، بل كانت ثقته في الناس والمستقبل كبيرة، فها هو ذا يصيح:

افتح فؤادك للحياة وخلّه
للفجر يرشف من سناه ويستحم
للأفق يحتضن الوجود ويجتلي
سر الجمال مرددًا حلو النغم
حتام تحيا في الظلام مصفّدًا
ولديك هاتيك المفاوز والقمم؟
ما لذة الدنيا وعيشك خانع
والفكر مضطهد وقلبك في صمم؟

عذب كل هذا، ويدعو إلى الاسترسال، ولكن لا بد أن ألجم القلم؛ لأن هذه الخواطر ليست دراسة، ولا هي تدّعي ذلك، إنما هي نبذة عن شاعر عصامي عبقري ثائر، صادق الشعور والأحاسيس، تكلم باسم شعبه وأهله، وعبّر عن آلامهم وآمالهم، فقوبل بالنكران، فلا بد من إنصافه خدمة للحق، وللأدب والشعر المعاصرين. فهذه العجالة ليست تأدية واجب نحو صديق ورفيق درب أكثر منها نداء إلى ذوي الاختصاص كي يعيروا شعر منوّر صمادح ما يستحقه من الدراسة والتحليل والتدقيق والتعميق فيه، خاصة، وقد تكرم أخوه الأديب عبدالرحيم صمادح، فأخرج مجموعة أعمال الشاعر من شعر ونثر وغناء وتلحين في ديوان موحد يسهّل العمل والدراسة - لا دراسة شعر شاعر فحسب - بل دراسة صورة، ورسم واضح لفترة حاسمة من حياة تونس المعاصرة. فحبذا لو انكب المختصون وقرؤوا تاريخ نضال الشعب التونسي في الخمسينيات وآلامه في الستينيات ومستهل السبعينيات من خلال ما نظم منوّر صمادح - شفاه الله - الذي جعل من شعره سجل تاريخ لأحداث تونس والعالم العربي والعالم بأسره على مدى أكثر من عقدين:

هذه الدنيا رموز وصورْ
ودروس وعظات وعبر
يصدر التاريخ فيها حكمه
رغم أحلام وآمال البشْر
آيةُ الدهر ولاد وفنى
دولة تعلو وأخرى تنحدر

جزاك الله يا منوّر عن أهلك وذويك وأمتك خير جزاء، وجازى كل من أخذ قلمه بعد الآن، وشمل شعرك بالمشاعر والأحاسيس نفسها التي كتبته بها؛ لأنه كما قلت:

ثمن العز فداء ودما
وجهاد ونضال مستمر

المراجع:

١- منوّر صمادح، الأعمال الشعرية الكاملة: الدار التونسية للنشر - بيت الحكمة.
٢- أعداد متفرقة من جريدة الأخبار ١٩٥٣ و ١٩٥٤م.
٣- بعض أعداد مجلة الفكر (تونس) سنتي ٥٧ و ١٩٥٨م.
٤- أعداد من جريدة الصباح ٥٥ و ٥٧ و ١٩٥٨م.
٥- جريدة البلاغ عامي ٥٤ و ١٩٥٥م.
٦- ديوان الشاعر «الفردوس المغتصب» عام ١٩٥٤م.

علوم

الزلازل والأعاصير والفيضانات أسباب في الفضاء وأخرى في الأرض

سعد شعبان


الكوارث الطبيعية: كيف يمكن التنبؤ بها؟

الزلازل والأعاصير والفيضانات كوارث طبيعية، وليست كل أسبابها تأتي من باطن الأرض، أو مما يحدث فوق سطحها، فكثيرًا ما تكون هناك أسباب أخرى. وعندما يتحدث علماء الجيولوجيا عن الزلازل، يعزون أسبابها إلى تحرك ألواح القشرة الأرضية تحت تأثير المواد المنصهرة، والغازات المحتبسة تحتها. ويكتفون بالقول: إنها تتلمس أضعف الأجزاء في هذه القشرة لتحركها فتحدث الزلازل، أو لتنفذ منها فتحدث البراكين. هذه هي الأسباب البديهية، لكنّ هناك أسبابًا أخرى، أكثر أهمية، هي تأثير جاذبية الأجرام الكونية على كوكب الأرض، سواء ما على سطحها، أو ما تحت هذا السطح.

وأبسط الظواهر التي تثبت ذلك، هي ظاهرة المد والجزر، التي نرى آثارها على شواطئ البحار والمحيطات والأنهار المتسعة، ونعرف أن سبب حدوثها هو تدرج ظهور القمر. والسبب الحقيقي هو اختلاف قوة الجذب بين القمر والأرض، فتشد هذه القوة الكتلة المائعة على الأرض وهي المياه التي تكسو ٧:٥ من سطحها. ودعونا ننظر كيف تؤدي

الأجرام الكونية دورها في كوارث الزلازل، والبراكين، وكذلك السيول والفيضانات، وكيف أن العامل الرئيس لها يأتي من أعالي الغلاف الجوي ومشارف الفضاء.

مسلسل غضب الطبيعة

لقد ضرب زلزال قوي بعض مدن اليابان في منتصف يناير/كانون الثاني عام ١٩٩٥م، وهو تاريخ يوافق (١٤ شعبان سنة ١٤١٥هـ)؛ ولأنه زلزال قوي يبلغ (٧ر٢) بمقياس ريختر فقد تجاوز عدد ضحاياه ٥٣٠٠ قتيل، و٧٠٠٠ جريح، و١٥٠ ألف مشرد. وتقوضت المباني والمنشآت والكباري (الجسور) وكأنها علب كبريت.

وبعد أيام شهد كثير من مدن أوربا سيولاً، وفيضانات حولتها إلى صورة متكررة من مدينة البندقية. وانتقلت الهزات الزلزالية في النصف الأول من فبراير/كانون الثاني عام ١٩٩٥م إلى أمريكا الجنوبية في كولومبيا بقوة (٤ر٦) بمقياس ريختر. ومن قبل ذلك ببضعة أشهر اجتاحت سيول عارمة كثيراً من قرى صعيد مصر، وسببت كارثة قومية، كان ذلك في الأسبوع الأول من نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٤م. إن ما نشهده من كوارث طبيعية في عصرنا الحديث، لا يختلف كثيراً عما كان يحدث منذ خلق الله الأرض، إلا في قوتها ومعدلات تكرارها. ولهذه الفروق أسباب، جدير بنا أن نتأملها. فبعضها من صنع الله، وبعضها من سفه البشر.



علاقة قوية بين حدوث الكوارث وتزايد البقع الشمسية

قران في الفضاء

منذ عهد نيوتن، عرفت وحسبت الجاذبية المتبادلة بين الشمس والكواكب ومنها أرضنا. كما عرفت أيضاً تلك التي بين الكواكب بعضها مع بعض، وبين الأرض والشمس والقمر. ولكن لأن كل كوكب يدور حول الشمس في مدار مختلف، فإن هذه القوى تتساوى وتتضاد في الاتجاه، ولذلك يبقى كل على مداره، قال تعالى: *وكل في فلك يسبحون*. **يس: ٤٠** لكن لاختلاف سرعة دوران كل كوكب واختلاف أبعادها عن الأرض، يحدث أحياناً وجود واحد أو أكثر منها على استقامة واحدة مع الشمس والأرض.

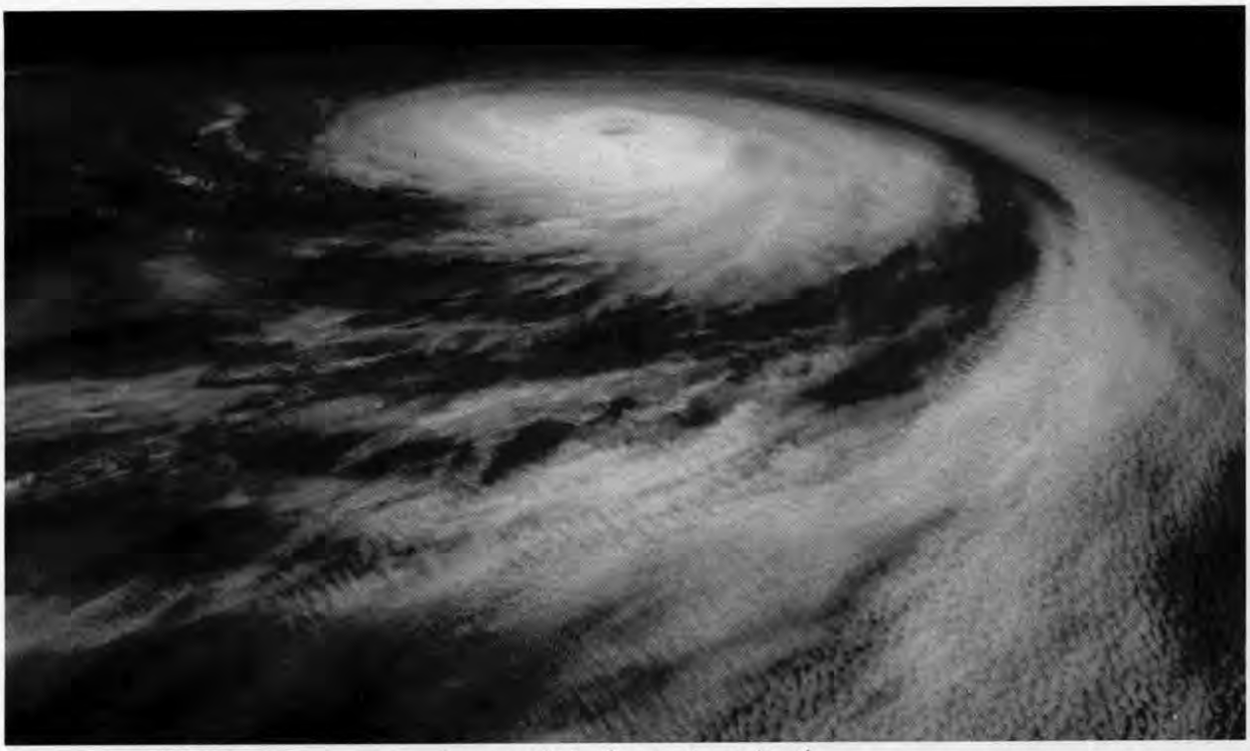
وهذا الوضع المؤقت يطلق عليه الفلكيون (الاقتران). ووقت حدوثه تزداد قوى الجذب مع الأرض؛ لأنها تصبح محصلة لعدة قوى، وخصوصاً إذا كان الاقتران شاملاً أكثر من كوكب واحد. ومن ثم تصبح كتلة الأرض يابسها وماؤها تحت تأثيرات جاذبية غير عادية، وخصوصاً إذا كان أحد كواكب الاقتران، هو كوكب المشتري؛ لأنه أكبر الكواكب حجماً، إذ يزيد (١٣٣١) مرة على حجم الأرض.

ولقد حدث الاقتران بوجود ثلاثة كواكب هي: الزهرة والمريخ والمشتري، على خط مستقيم واحد مع الشمس في عام ١٩٨٢م. ووقتئذ ثارت عدة براكين، ووقعت عدة زلازل، كان من أشهرها زلزال اليمن.

كما حدث اقتران الكواكب الثلاثة نفسها يوم ١٨ حزيران/ يونيو عام ١٩٩١م. وبالطبع فإن آثار الاقتران لا تقع في يوم وليلة، بل تستغرق عدة أسابيع قبل استقامة الكواكب على خط



الإنسان سبب رئيس في كوارث الزلازل والأعاصير



تأثير الأعاصير قد يفوق تأثير قنبلة هيدروجينية

واحد مع الشمس وبعدها. وخلال الفترة من أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٩٢م إلى أغسطس/آب عام ١٩٩٣م حدثت في المنطقة العربية الزلازل التالية، بغزارة لم تشهد من قبل:

- ١٢ أكتوبر / تشرين الأول عام ١٩٩٢م (١٥ من شهر ربيع الآخر) زلزال مصر بقوة (٢ر٥) ريختر.
- ٤ يونيو / حزيران عام ١٩٩٣م (١٤ ذو الحجة) زلزال في الكويت بقوة (٣) ريختر.
- ٣١ يوليو / تموز عام ١٩٩٣م (١١صفر) زلزال في خليج العقبة بقوة (٥ر٤) ريختر.
- ١ أغسطس /آب عام ١٩٩٣م (١٢ صفر) زلزال في الأردن بقوة (١ر٤) ريختر.
- ١ أغسطس / آب عام ١٩٩٣م (١٢ صفر) زلزال في السودان بقوة (٦ر٥) ريختر.
- ٢ أغسطس / آب عام ١٩٩٣م (١٣ صفر) زلزال في إسرائيل بقوة (٢ر٤) ريختر.
- ٣ أغسطس / آب عام ١٩٩٣م (١٤ صفر) زلزال في لبنان بقوة (٦ر٤) ريختر.
- ٣ أغسطس / آب ١٩٩٣م (١٤ صفر) زلزال في سيناء بقوة (١ر٥) ريختر.
- ١٤ يونيو / حزيران ١٩٩٥م (١٦ المحرم) زلزال في اليونان.

ونظرة إلى تواريخ هذه الزلازل ونوعها، يتضح لنا أنها كلها وقعت قرب منتصف الشهور العربية عندما يقترب القمر من أن يكون بدراً. وسبب ذلك أن جاذبية القمر تكون أكبر ما يمكن عند اكتمال القمر في منتصف كل شهر عربي. لأن بعد القمر عن الأرض في هذا الوقت يكون أقل بمقدار (٥٠) ألف كيلو متر عنه في نهاية الشهر العربي. ومن ثم تزداد قوة الجاذبية بينه وبين الأرض. فإذا كانت الكواكب مقترنة فإن جاذبية القمر تضاف إلى محصلة جاذبية الكواكب المقترنة، وتصبح كأنها القشة التي تقصم ظهر البعير، فتتحرك بسببها ألواح القشرة الأرضية، وتحدث الزلازل؛ نتيجة لتأثير هذه الجاذبية على ما في جوف الأرض من مواد منصهرة.

بل إن تأثير جاذبية القمر ليس قاصراً على تحريك المياه التي فوق الأرض، بل تؤثر الأرض في البشر أيضاً وفي الهوام والحشرات. فعلماء طب الأعصاب يعرفون أن السوائل في جسم الإنسان التي تبلغ نسبتها ٨٠٪ من وزنه، تتأثر بجاذبية القمر وبخاصة سائل الجمجمة. وبناء على ذلك يتغير مزاج الإنسان وحالته النفسية تحت هذا التأثير في الليالي المقمرة. وفي الريف يربطون بين ظهور العقارب والثعابين وأوجه القمر، بل أيضاً بين هياج المصابين بأمراض عصبية والصرع.

ولذلك فليس عبثاً، أو بمحض المصادفة، أن تحدث أغلب الزلازل وقت اقتران الكواكب مع الأرض، ووقت كون القمر بدراً.

بقع على قرص الشمس

ثبت منذ القرن السابع عشر أن قرص الشمس تظهر عليه بقع معتمة ذات أقطار متفاوتة، بعضها يبلغ عدة آلاف من الكيلومترات. وقد أظهرت تحاليل الطيف أنها أقل حرارة عما حولها. وثبت أن بها دوامات حلزونية تعبر عن فوران للغازات، وأنها مراكز جذب مغناطيسي أقوى ملايين المرات من المجال المغناطيسي حول الأرض. وقد أحصى العلماء هذه البقع الشمسية، ووجدوا أن عددها يتزايد وفقاً لدورات تتكرر كل (٢ر١١) سنة، ولذلك رجح بعضهم أنها نتيجة للجاذبية بين كوكب المشتري والشمس؛ لأنه يتم دورته حولها كل (٩ر١١) سنة.

ولقد تأكد وجود علاقة بين حدوث بعض الظواهر الطبيعية مع تزايد عدد البقع الشمسية، مثل حدوث السيول والزلازل واشتداد العواصف، واضطراب المجال المغناطيسي حول الأرض. وبرهان ذلك أنه في



البراكين.. أسبابها ليست فقط في تحرك القشرة الأرضية بسبب تأثير المواد المنصهرة والغازات المحتبسة تحتها

عام ١٨٨٣م ثار بركان في أندونيسيا، ودمر جزيرة بكاملها، وفي عام ١٩٦٦م دمر زلزال عنيف مدينة طشقند، وبين عامي ١٩٨٠م و ١٩٨٢م توالت الزلازل في إيطاليا واليابان وروسيا. فقد كانت البقع الشمسية في هذه الأعوام في ذروتها. وفي الفترة الأخيرة بدأت دورة هذه البقع في عام ١٩٧٤م، وكانت ذروتها في عام ١٩٨٠م. ومعنى ذلك أن عام ١٩٩٢م كان عام ذروة أيضا، وفيه حدث زلزال الفيوم والقاهرة. ولم يتوقف بركان «بيناتوبو» في الفلبين عن قذف الأحجار والحمم حتى ارتفاعات بلغت عشرة كيلومترات. وتعرضت مناطق واسعة في أفغانستان والهند واليابان لسيول عواصف مدمرة.

وفي أمريكا أحدث إعصار «أندرو» خراباً يفوق تأثير قنبلة هيدروجينية. واضطر الرئيس بوش وقتئذ إلى إعلان أن الحالة كارثة قومية. وشهدت مناطق متفرقة في العالم أعاصير لها أسماء مختلفة، منها هوجو، وهاريكان، وجلبرت، وأومار الذي دمر جزيرة بكاملها.

وبلغت سرعة الرياح أحياناً ٢٤٠ كيلومتراً في الساعة. وهزت هذه الكوارث الاقتصاد العالمي.

العدوان على الغلاف الجوي

ما أوضحناه من مسببات لكوارث الطبيعة، أمور كونية من صنع الله، ولا يستطيع إنسان ردها أو التدخل فيها، بيد أن هناك مسببات أخرى لبعض الكوارث من صنع البشر. فهي نتاج عبث يجري على الأرض في سفه، وتصاعدت آثاره إلى أعالي الغلاف الجوي ومشارف الفضاء. من أوضحها تلك السيول التي اجتاحت صعيد مصر في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٩٤م. وكذلك السيول التي عمت شمال أوروبا وغربها في (شباط / فبراير عام ١٩٩٥م) والتي أطلق عليها «فيضانات القرن». إن أصابع الاتهام تشير منذ عدة سنوات إلى أن هذه السيول نتاج عبث طرأ على الغلاف الجوي، فأحدث تحولاً في المناخ الذي عهدناه منذ الأجداد متكرراً في انتظام عاماً بعد عام.

وقد تعددت صور العدوان مؤخراً، فزادت ضراوة كوارث الطبيعة وتعددت. ويتخذ العدوان على الطبيعة صوراً كثيرة، نمارسها في حياتنا اليومية من دون أن يفطن غير العلماء إلى آثارها المدمرة؛ ولذلك أصبحنا نعيش عصراً تعاظمت فيه مشكلة «تلوث البيئة» إلى حد أصبح مهدداً لاستمرار الحياة نفسها. وهذا ما عبرت عنه وزيرة شؤون البيئة في ألمانيا مؤخراً، بأننا ظللنا (نغتصب) الطبيعة سنوات طوالاً، وعلينا أن نتحمل النتائج اليوم. ومن المؤسف أن التدخل في الطبيعة يتم بصور شتى، أغلبها بسبب كثير من الصناعات الحديثة، وبعضها بسبب مستحدثات في طرق الزراعة، أو بسبب الاتجاه المتزايد لاختلاق حلول للانفجار السكاني على حساب الأرض الزراعية أو حرق الغابات. ومن أهمها أيضاً حرص البشر على زيادة الرفاهية، والإغراق في مظاهر الترف، والاستمتاع بإسراف. فكل وسائل المدنية الحديثة من سيارات وفيديو وكومبيوتر وتلفزيون وثلاجات وفاخر الأثاث المزود بالحشايا الإسفنجية، والمرذذات سواء



ظاهرة المد والجزر سببها اختلاف قوة الجذب بين القمر والأرض

معطرات الغرف أو المبيدات الحشرية أو مثبتات الشعر، يديرها دولاب صناعات عالمية ضخمة.

ويجب أن تكون نظرتنا شاملة، على مستوى العالم، ونتصور بلايين السيارات التي تقذف بها المصانع إلى الأسواق. وهي تمرح فوق الطرق في كل الدول، لتنفث غازات هي في حقيقتها سموم ليس للبشر فحسب، بل للغلاف الجوي أيضاً. وأيضاً البلايين من كل وسائل الرفاهية التي ذكرناها، وكلها يدخل في تصنيعها غازات ذات آثار ضارة في الغلاف الجوي، ضرراً لم يعهده أجدادنا.

الغازات الملعونة

أول هذه الغازات هو ثاني أوكسيد الكربون، وهو غاز يمثل ٠٣ر٠٪ من تكوين الهواء منذ خلق الله الأرض. وزيادة نسبته في الهواء أحد العوامل المهمة في إحداث الخلل في الطبيعة. فهذه الزيادة تكون غلالة تعمل على عكس الحرارة المنبعثة من الأرض والتي تكتسبها تربة الأرض من الشمس نهاراً، ومعنى ذلك أن الحرارة في أثناء الليل لا تتسرب إلى الفضاء بل ترتد ثانية، وهذا ما يسميه العلماء «ظاهرة البيوت الزجاجية» أو «التأثير الضوئي» أو «الدفيئة».

وترجع زيادة غاز ثاني أوكسيد الكربون إلى بلايين السيارات، ومداخن المصانع التي تقذف بآلاف الأطنان من الغازات في الغلاف الجوي كل ساعة، وخصوصاً عندما تدب النيران في غابة، ليظل احتراقها شهوراً طوالاً، وأحياناً سنوات. ولقد أصبح حرق الغابات لعبة شيطانية منتشرة في كثير من الدول وخصوصاً في أمريكا اللاتينية، بسبب الانفجار السكاني، فكثيراً ما تشعل النيران عمداً، لتتحول الأرض إلى مساكن، وتقدر منظمة البيئة العالمية أن نسبة زيادة غاز ثاني أوكسيد الكربون خلال قرننا قد بلغت ٢٥٪ عن القرن السابق. كما وجدوا أن هذا نتج منه ارتفاع في حرارة الغلاف الجوي بين درجة ودرجتين مئوية.

أما ثاني الغازات الملعونة فهو «غاز الميثان»، وتشير الإحصاءات أن أثره يزيد ٢٥ مرة على غاز ثاني أوكسيد الكربون في رفع درجة حرارة الغلاف الجوي. ويتصاعد هذا الغاز من آبار النفط، ومناجم الفحم، وحقول الغاز الطبيعي، ومن زراعات الأرز، ومخازن الأسمدة العضوية المعروفة في مصر باسم السباخ، وباسم «الكومبوست» في أوروبا، «والترميت» في أستراليا. وقد أجرى لفيف من العلماء دراسات على ثلوج مستخرجة من القطب الجنوبي، فثبت أن غاز الميثان قد تضاعف خلال المئة والستين سنة الأخيرة. وهو يؤدي دور التأثير الصوبي - نفسه - في درجة حرارة الغلاف الجوي.

أما ثالث الغازات الملعونة فهو غاز «الكلورو - فلورو - كربون» الذي اكتشف عام ١٩٢٨م، والذي يطلق عليه الاسم التجاري «الفريون». وهو يتميز بأنه يتبخر عنه درجات حرارة منخفضة، ولذلك فهو مثالي لصناعة التبريد والتجميد في الثلاجات والمكيفات. كما دخل في صناعة العبوات المرذذة وكثير من الصناعات الإليكترونية. فقد أصبح يستخدم في صناعة الحواسب الإليكترونية، والتليفزيون، والإسفنج الصناعي، ورغويات



يتزايد غاز ثاني أكسيد الكربون بسبب الأدخنة المتصاعدة من السيارات والمصانع والحرائق

الإطفاء، والمذيبات الصناعية. وكلها صناعات تنتج بأعداد هائلة في كل بلاد العالم. وهذا الغاز اللعين طويل العمر، إذ يبلغ متوسط بقائه في الجو ما يربو على مئة عام؛ لأنه من فصيلة الغازات الشديدة التطاير، التي تصعد إلى أعالي الغلاف الجوي في بطء شديد. وهو الغاز الذي يتسبب في حدوث «ثقب الأوزون» حيث إن شق «الكلور» الذي في هذا الغاز، يمكن أن يتفاعل مع غاز الأوزون الموجود في الجو، ويحوله إلى أوكسجين على الارتفاعات بين (٢٨ و ٣٠) كيلومتراً. ويؤدي هذا التفاعل إلى حدوث ثقب تتسرب منه الإشعاعات فوق البنفسجية إلى الأرض. وقد ثبت من القياسات في المناطق القطبية، ومن صور الأقمار الصناعية أن فجوة الأوزون تزيد مساحتها على مساحة قارة أمريكا بكاملها، كما ثبت أن الفجوة توجد فوق القطبين الشمالي والجنوبي. وتوصل العلماء إلى أن تسرب المزيد من الأشعة فوق البنفسجية إلى الأرض قد تزايدت معه نسب سرطان الجلد، والشيخوخة المبكرة، وعتامة العيون، وأمراض نقص المناعة.

هكذا يقول العلم: إن أسباب الكوارث الطبيعية ليست تحت أرجلنا أو فوق رؤوسنا فحسب، بل في الفضاء وأعالي الغلاف الجوي أيضاً.

البحث عن حل

هناك محاولات جادة في كثير من الدول لمحاولة التنبؤ بالزلازل قبل وقوعها، ولكن كل ما تجمع لدى العلماء، حتى اليوم، لا يعدو شواهد تعتمد على دقة الملاحظة تشير إلى قرب حلول الزلازل. منها قيام بعض الحيوانات أو الحشرات بحركات مذعورة، تسبق وقوع الزلازل، مباشرة. فالكلاب، والقطط، والخيول، والدببة، والغزلان، لديها حواس تفوق ما لدى الإنسان في هذا الشأن، وكذلك النمل، والعصافير، والتماسيح، والثعابين.

ولكن في السنوات الأخيرة، بدأ العلماء خطوات جادة في توظيف (تكنولوجيا) الفضاء للتنبؤ بالزلازل قبل زمن معقول من حدوثها.

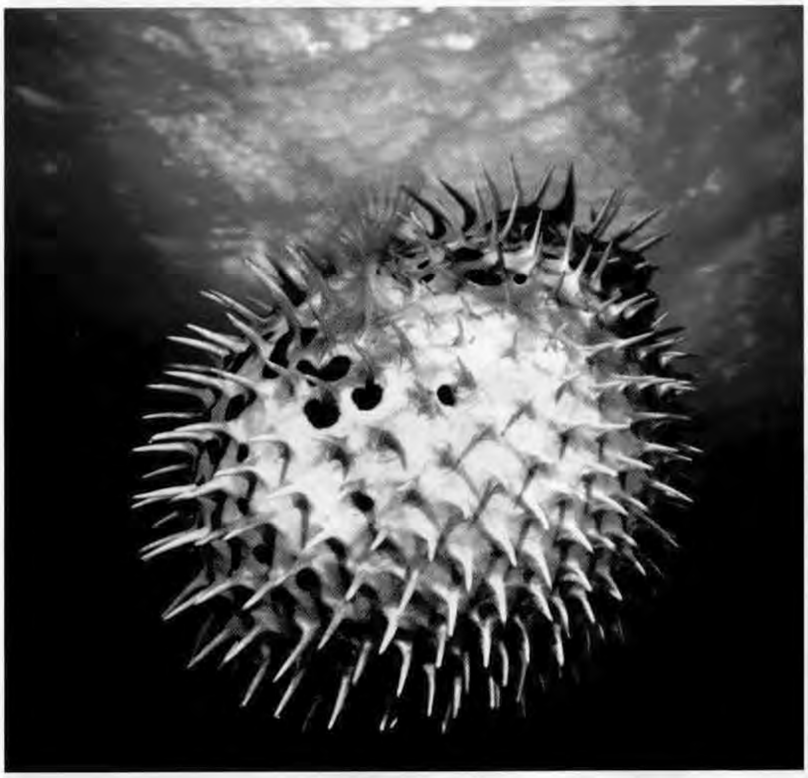
ففي أكتوبر / تشرين الأول عام ١٩٩٢م أطلق القمر الصناعي الإيطالي «لاجيوس -٢» ليكون ثاني قمر إيطالي يعمل لدراسة نشاط الزلازل. وكان القمر الإيطالي الأول قد أطلق عام ١٩٧٦م. وسيبقى القمر الجديد عشر سنوات ليسجل تحركات القشرة الأرضية بواسطة أشعة الليزر، وذلك من خلال ما تسجله (٤٢٦) مرآة مثبتة على سطحه الخارجي، وتتعامل في إرسال أشعة الليزر لهذه المرايا (٤٣) محطة أرضية موزعة على كل قارات الأرض، وتستقبل الأشعة المنعكسة، ثلاث محطات موزعة في أمريكا ورابعة في أستراليا، فضلاً عن أربع محطات أخرى متحركة واحدة منها في أوربا والثلاث الأخرى في شيلي، وبيرو، والمكسيك. ويقوم القمر بتسجيل المسافات بينه وبين هذه المحطات بدقة لا تتجاوز +/- ٤ سنتيمترات. وهي دقة تبلغ واحداً إلى مئة مليون، ويعمل حاسب آلي في جامعة أمريكية لتغذية معطيات القمرين يوماً بيوم. ويتوقع العلماء بهذه الوسيلة الفضائية التوصل إلى طريقة تنبؤ بحدوث الزلازل ، وذلك عن طريق قياس «اتساع الغازات» بتحديد المسافة التي تتسعها البحار والمحيطات التي تفصل بين قارات الأرض. فهي إحدى الظواهر المهمة التي تشير إلى حدوث الزلازل.

أما عن الكوارث التي من صنع البشر، وما أشرنا إليه من تدفق أطنان هائلة من الغازات الضارة بالغلاف الجوي، فإن الجهود ليست قاصرة على العلماء وحدهم، بل انتقلت إلى قادة الدول، والسياسيين. وأصبحت قضايا ثقب الأوزون، والدفيئة تؤثر في رجل الشارع، ولم تعد تصيب بأضرارها دولة دون أخرى. ولذلك تنعقد لها المؤتمرات، وتبرم الاتفاقيات الدولية في محاولة لوجود حلول بديلة. من أهمها حث الدول الكبرى على خفض الإنتاج الصناعي تدريجياً، ولاسيما أجهزة التكييف والمرذذات. وهناك ما يبشر بانصياع كثير من الدول، منها أمريكا والنرويج والسويد وكندا وفنلندا وفرنسا للقرارات التي اتخذت في معاهدة فيينا عام ١٩٨٥م، وبروتوكول مونتريال عام ١٩٨٧م، ولندن عام ١٩٨٩م، وإعلان لاهاي عام ١٩٨٩م، بما يشير إلى قرب تضييق الخناق على أسباب اتساع فجوة الأوزون. وما زالت المؤتمرات الدولية تنبري لوضع حلول لمشكلات المناخ. ووضع مقترحات لخفض مستويات غاز ثاني أوكسيد الكربون بنسبة ٢٠٪ مما يشير إلى إدراك العلماء والشعوب، ما وصل إليه التغير في المناخ من خطورة، نأمل أن يوضع حد لها عن قريب.

وجبة من الفيوجو
مع دعاء بالسلامة!!

رجب سعد السيد

في رواية «دكتور نو» لإيان فليمنج، مؤلف روايات «التجسس» الشهير، يتعرض بطله الأشهر جيمس بوند لحالة مرضية حادة، ويكتشف الطبيب المعالج أنه تناول جرعة كبيرة من سم الـ (فيوجو).



و(فيوجو) هو الاسم الياباني لسمكة بحرية غريبة المظهر، يعرف سكان المناطق الساحلية في معظم بحار العالم ومحيطاته أكثر من مئة نوع منها، ويطلقون عليها أسماء مختلفة؛ فهي «الفهقة» و «السمكة القنفذ»، و«السمكة النفاخة»، و«السمكة المتورمة».

وتختلف هذه الأنواع فيما بينها ظاهريًا، ولكنها تشترك في صفة أساسية هي قدرتها على نفخ جسمها، فتتحول من الشكل العادي لسمكة إلى ما يشبه الكرة، ويتضاعف حجمها ثلاث مرات أو أكثر... ففي مواجهة الأعداء، وعند الاستثارة أو فقدان الأمان، تعب السمكة الماء عبًا ـ وثمة أنواع تنتج غازات ـ فينتفخ بداخلها وعاء مطاطي محيط بالبطن، كما تنتفخ الأنبوبة المطاطية الداخلية لإطار السيارة أو الدراجة. وهكذا، يفاجأ العدو المفترس بأن الضحية المنتظرة صارت أكبر حجمًا منه، أو ـ على الأقف ـ أضخم من أن يسعها فمه، فيتراجع؛ أو قد يصدمه تغير الشكل فيفر خائفًا!. هنا، تسرع الفهقة فتتخفف من نفختها، فتطرد الماء أو الهواء، وتعود إلى صورتها الطبيعية. إنها لا تحتفظ بحجمها المتضخم أطول من اللازم، فهي تبذل جهدًا ضخمًا للحصول عليه والاحتفاظ به، ويهمها أن تقتصد في طاقتها.

قلعة حصينة

ولا يزيد طول أكبر فهقة عرفت حتى الآن على ثلاث أقدام، وكان وزنها ثلاثين رطلاً. وفي كثير من أنواع الفهقات، يغطي الجلد السميك القوي أشواك حادة قصيرة متراكبة؛ فإذا انتفخت الفهقة انتصبت الأشواك لتحيل الجسم القنفذي إلى قلعة حصينة، حتى إنها تستطيع

تحمل ثقل رجل ضخم يدوسها، من دون أن يصيبها كثير أذى.

وللفهقة أسنان ملتحمة، تبرز قوية ذات حواف قاطعة تشبه منقار الببغاء، تحركها عضلات قوية؛ وهي لا تكف - في الماء - عن الاصطكاك، فتعين الأصوات الصادرة عنها الصيادين على رصد موقع السمكة والإمساك بها. وهذه الأسنان هي أداتها لتناول الطعام، فبها تمزق وحدات طعامها من السرطانات والمحارات والمرجانيات وقنافذ البحر ونجومه. وهي تعرف أين تجد هذا الطعام، فإذا كان مختفياً تحت رمال القاع، انتفخت ثم دفعت بتيار الماء أو الهواء المتجمع بها في اتجاه الفريسة المغطاة بالرمال، فتكشفها، لتتسلمها الأسنان وتعمل فيها تحطيماً، ثم تبتلع المحتوى الرخو.

طبق طعام متميز

ولا تخلو هذه السمكة السيئة السمعة من بعض نواحي الجمال، فلها عينان يختلط فيهما الأزرق والأخضر، قادرتان على الدوران في محجريهما. وفي بعض أنواع



سمكة الفيوجو تنتفخ حتى تصبح كالقنفذ

الفهقة، تتأثر ألوان العينين بالضوء، فتحلّك إذا اشتد.

وتسبح السمكة في الماء بهدوء شديد، معتمدة على حركة الزعنفتين الظهرية والشرجية، فتبدو كطائرة مروحية متهادية، ولا يوحي مظهرها بما يمكن بداخلها من خطر وهلاك.

ويتعامل الصيادون مع الفهقات بحذر شديد، وقد يتجنبونها، فهي سمكة سامة. ولكنها - عند اليابانيين - تحظى باهتمام خاص، فهم يشتهون لحمها ويعرفونه طعاماً منذ مئات السنين، ويحتل (طبق الفيوجو) موقعاً متميزاً في قائمة طعام المائدة اليابانية بتقاليدها المرعية. ولليابانيين رصيد كبير من الحكايات والطقوس المرتبطة بتناول وجبة لحم هذه السمكة السامة. ومعظم هذه الحكايات عن أفراد عاديين أو وجهاء يابانيين غامروا، ففقدوا حياتهم مقابل أكلة من لحم سمكة الفهقة. وفي قصيدة قصيرة لشاعر شعبي ياباني، ينعى صديقاً له، يقول:

بالأمس، تناولنا معاً لحم الفيوجو

واليوم، شاركت في تشييع جثمانه!

ويقول شاعر آخر، في قصيدة عن تجربة حب فاشلة:

لن أراها الليلة، فأنا مجبر على هجرها..

لذلك، فإنني سوف أقدم على أكل الفيوجو..!

وإذا لم يعد لحم السمكة إعداداً جيداً، وينتزع السم منه، فإن من يأكل لحمها هالك لا محالة، وتظهر عليه أعراض التسمم قبل أن يغادر المائدة. إنه لا يفقد الوعي حالاً، بل



إعداد لحم الفيوجو يحتاج إلى ٣٠ خطوة من أمهر الطباخين

يشعر بسريان الخدر الشديد في أطرافه الأربعة، فيحاول أن ينقل إحساسه بذلك إلى رفاقه، فلا يستطيع الكلام؛ ثم لا يلبث أن يفقد القدرة على الحركة كلية، وأخيراً، تتوقف عملية التنفس... وتقول الإحصاءات: إن ٦٠٪ من حالات التسمم بالفيوجو انتهت بالوفاة.

فلماذا يحتفظ اليابانيون - وهم المشهورون بحرصهم على الصحة العامة - باحترامهم لهذه السمكة المميتة؟ وما مصدر الغواية أمام سمكة تحمل لهم الموت، ويضعونها بأياديهم في صدارة موائدهم؟

رمز وطني يروح ضحية الفيوجو

إنه أمر يحير غير اليابانيين الذين قد يخف عجبهم - أو لعله يتزايد - إذا علموا أن كهنة الـ (شينتو) - ديانة اليابان الأصلية التي تقدس القوى الطبيعية وأرواح الموتى - يقيمون الصلوات في معابدهم تبجيلاً وتعظيماً لسمكة الفيوجو!. وإذا زرت مدينة طوكيو، فابحث عن حديقة شهيرة ينتصب في مركزها تمثال كبير للفيوجو. وبالقرب من مدينة (أوساكا) أقام اليابانيون نصباً تذكارياً، تحية للفيوجو، وقد يكون تخليداً لأرواح ضحاياها المجهولين!. ثم إن المثل الياباني السائر يقول: ما أحمق هؤلاء الذين يتناولون حساء الفيوجو، أما أولئك الذين لم يعرفوه فهم حمقى.. أيضاً!.

إن حياة هواة لحم الفيوجو معلقة بين أصبع الطهاة في المطاعم التي تقدم هذا النوع الغريب من الطعام، لذلك، فإن التعامل مع هذه السمكة محظور على غير الطهاة المؤهلين، المرخص لهم بأداء هذه المهمة الحرجة، وبعد انتظامهم في دورات تدريبية خاصة تستغرق عامين، واجتياز العديد من الاختبارات.

وعلى الرغم من ذلك، فإن حالات التسمم لا تتوقف، فثمة إحصائية تقول إن عدد ضحايا الفيوجو في الفترة من (١٩٧٤ إلى ١٩٨٤م) بلغ مئتي شخص، قضى معظمهم نحبه نتيجة إقدامهم على أكل السمكة في منازلهم،



لماذا يحتفظ اليابانيون باحترامهم لهذه السمكة المميتة؟

من دون خبرة كافية بالطريقة الآمنة لإعدادها.

وأشهر من قتلتهم وجبة من لحم الفيوجو ميتسوجورو باندو، أحد عظماء الممثلين في مسرح (الكابوكي) الياباني الشهير، وكان يشار إليه رسمياً وشعبياً بأنه «كنز قومي يمشي على رجلين». وقد دعي ذلك الممثل إلى وجبة من كبد الفيوجو، في أحد مطاعم مدينة كيوتو، وقبل أن ينتهي من طعامه، انتابته تشنجات شديدة، وأصيب بالشلل، ومات بعد ساعات قليلة. فكيف يُقبل (رمز وطني) مثل ذلك الفنان الياباني، بإرادته، على طعام ذي سمعة رديئة مثل كبد الفيوجو. ففي هذا الكبد تتعاظم كمية السم، ويصعب - مهما أوتي الطهاة من حنكة - تطهير لحمه، بل إن المطاعم - أصلاً - محظور عليها تقديم كبد الفيوجو. ويبدو أن تلك الوجبة القاتلة كانت استجابة لطلب خاص من ممثل الكابوكي ذي الحظوة، وبإصرار شديد منه، فهو لم يكتف بطلب واحد، فقد أكل أربعة أطباق، غير مكترث بقائمة الحساب التي فاقت قيمتها كل الحدود!

ومن أشهر ضحايا كبد الفيوجو - أيضاً - الرحالة الشهير الكابتن جيمس كوك الذي سجل تجربة مريرة له مع سمكة الفهقة، في إحدى رحلاته حول العالم عام ١٧٧٤م، إذ حصل أفراد بعثته العلمية على سمكة فهقة، وبعد أن أتموا دراستها ورسمها، أعدوا كبدها ومناسلها للعشاء، وأصيب كوك وعلماء بعثته بالتسمم، وقضوا ليلة مزعجة، وكادوا يلقون حتفهم. ولكن لحسن حظهم، تقيّؤوا الطعام في بداية شعورهم بأعراض التسمم، ثم أفرزوا عرقًا غزيراً، ويبدو أن ذلك كان السبب في تحسن أحوالهم في الصباح التالي!

فن لا يجيده كثيرون

ويتدرب الطهاة على إعداد لحم الفيوجو في ٣٠ خطوة تستغرق من أمهرهم زمنًا لا يقل عن ثلث الساعة، لتحويل السمكة السامة إلى شرائح من اللحم الأبيض على موائد المهووسين به. وتبدأ خطوات الإعداد بانتزاع الزعانف واقتطاع الفم والأنف، ثم فتح البطن والتخلص من كل الأحشاء. يلي ذلك سلخ السمكة وتخليص العينين من محجريهما بحرص. هنا تصبح السمكة خالصة من كل مصدر محتمل للسم، ويتأكد ذلك إذا حرص الطاهي على ألا يتلامس أي من تلك الأجزاء المبعدة مع اللحم الذي تجري فيه اليد الخبيرة لتحيله، بواسطة سكين حادة، إلى شرائح، تترك مدة طويلة في تيار مائي قوي متجدد لتنظيفها من الدم وإزالة ما يمكن أن يكون عالقًا بها من آثار للسموم.

وأخيراً، يضيف الطاهي لمساته الفنية النهائية؛ فتتحول شرائح اللحم الأبيض اللامعة، بين أصابعه، إلى قطع رقيقة تشبه فصوص الماس. وتعطي السمكة المتوسطة الحجم مئة قطعة من هذه الماسات!

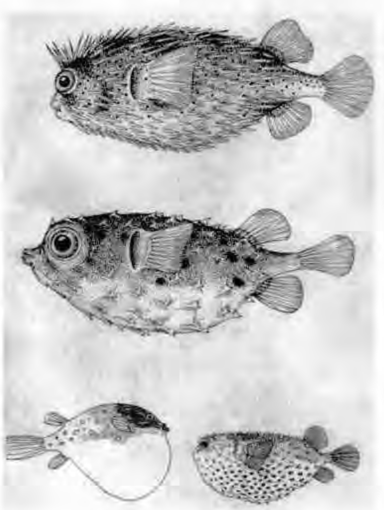
ولا يصل لحم الفيوجو إلى مائدة الآكلين المغرمين، أو المغامرين إن شئت، إلا



تسعة أنواع من أسماك الفهقة

بعد أن يأخذ زينته، فتتشكل قطع اللحم الماسية في هيئة طائر البجع (الغرنوق) محلقًا بجناحيه، أو في هيئة زهرة متفتحة؛ فلليابانيين شغف خاص بإحاطة أمور حياتهم اليومية بأجواء خاصة، أو تحويلها إلى طقوس تكتسب مع الدهر قوة التقاليد والأعراف. وهكذا كان الحال مع لحم الفيوجو. والطريف، أن الغرنوق رمز شعبي ياباني يعني طول العمر. والواضح، أن اختيار الطهاة له من بين كل أنواع الطيور يحمل رسالة للآكلين بأن يطمئنوا... وهي رسالة يجانبها الصدق.. أحيانًا!

ويؤكل لحم الفيوجو نيئًا، مغموسًا في خليط من صلصة فول الصويا والفجل والفلفل الأحمر. ويعد لحم (الفيوجو النمر) الأفضل بين لحوم أنواع هذه السمكة على الإطلاق. ويحكي المجربون أن له مذاق لحم الدجاج أكثر من المذاق المعروفة به الأسماك، كما أنه يخلو من الألياف، فكأنك تمضغ قطعة من الجيلاتين! ويقولون أيضًا: إن نكهة الفيوجو تذكرنا بما يغلف الرسومات



اليابانية التقليدية من غموض وحيرة ورقة، كما أن لها نعومة الحرير الياباني!

لا نجاة!!

والفيوجو أكلة مكلفة، فإذا افترضنا (نجاة) الآكلين منها، فهي ترهق جيوبهم. وتراوح قيمة السمكة الواحدة بين ٥٠ و ١٤٠ دولاراً، ترتفع بعد إعدادها إلى مئتين (بأسعار الثمانينيات). وهي سمكة اقتصادية لها سوق تجارية خاصة في مدينة (شيمونو سيكي) اليابانية التي تشتهر باسم (مدينة الفيوجو)؛ ويبلغ إجمالي المبيعات في تلك السوق في الموسم الشتوي الواحد ٢٠ مليون دولار.

وقد تزايد الطلب على الفيوجو في السنوات العشر الأخيرة، حتى إن عمليات الصيد في المياه اليابانية جارت على المخزون الطبيعي من هذه الأسماك في المصايد (المسامك) البحرية، فاضطر اليابانيون إلى استزراع هذه السمكة المزعجة في مزارع خاصة، لتلبية طلبات المطاعم اليابانية المتخصصة في الفيوجو.

وتلقى السمكة نفسها، أو أنواع مختلفة من المجموعة نفسها، الرواج نفسه في بعض الولايات المتحدة الأمريكية. وثمة نوع غير سام من الفهقة شاع تناوله خلال سنوات الحرب العظمى الثانية، وكان لحمه يباع في أكياس، يطلق عليه الأمريكيون اسم «لحم الزغاليل» أو لحم أفراخ الحمام!

أما فهقات البحر الأحمر، فهي شديدة السمية، وقد عرفها المصريون القدماء في عهد الأسرة السابعة (٢٧٠٠ ق.م)، ورسموها على جدران معابدهم، ولكنهم لم يكونوا يأكلونها، بل تظهرهم الرسومات وهم يلعبون بها، كالكرة!

وأخيراً، وفي جامعة طوكيو، تمكن الدكتور كانيهيا هاشيموتو من استخلاص سم الفيوجو، في المختبر، على هيئة مسحوق أبيض، لم يجد لتركيبه الجزيئي شبيهاً بين المركبات العضوية المعروفة، فأطلق عليه اسم (تترودوكسين) وتعطي سمكة الفيوجو المتوسطة الحجم كمية من هذا السم توازي قرص الأسبرين وزنًا. وتكفي لقتل ثلاثين شخصًا، فلا تزيد الجرعة القاتلة من التترودوكسين على ملليجرام واحد، وهو أقوى من سم السيانيد بمقدار ٢٧٥ مرة!؟ كما أنه يختلف عن معظم السموم المعروفة في أنه مادة غير بروتينية، وليس له ترياق، حتى الآن.

وللتترودوكسين وجه آخر، طيب، لعله يخفف ما سببته لنا الفيوجو من إزعاج، فله استعمال طبي، في مجالات أبحاث الجهاز العصبي، ثم إنه دواء، إذ أنتجت بعض شركات الدواء اليابانية مركبات مخففة منه يصفها الأطباء كمسكنات للألم في حالات التهاب الأعصاب والتهابات المفاصل والحمى الروماتيزمية.

المراجع:

1- National Geographic Magazine. July, 1984.
2- Sea-Fishes of Mauritius. (OCA/PAC), Unep. 1990.
3- Common Fishes of Qatar. Scientific Atlas of Qatar (1), 1982.
4- Fishes of the Sea. John & Gillian Lythgoe. Anchor press. New York. 1975.
5- Fiches FAO D' ;Identification Das Especes pour les Besoins De la peche. Mediterranee et Mer Noire. volume II. FAO & Ecee. 1987.
6- FAO Species identification sheets. Western Indian Ocean. Vol. II. FAO & Denmark Fund - in - Trust. 1984.

طاب نومكم ... طاب يومكم



درويش إبراهيم يوسف

النوم لاغنى عنه للكائنات الحية. فالقطط تلتف كالكرة وتنام، والطيور تصير هادئة وتنام عندما يحل الظلام. والنوم للإنسان ضرورة حياتية. وحرمان الجسم منه يمكن أن يأتي عليه بكثير من المخاطر، حتى إن كثيرين ممن يقل نومهم بسبب الإجهاد والتوتر الناتجين من وتيرة الحياة العصرية، يطلقون هذا التشكي الشائع في أيامنا: «أعطيكم أيّ شيءٍ لقاء نوم مريح لليلة!».

الدور الحيوي للنوم

تقول دائرة معارف الكتاب العالمي: «عندما ينام الشخص ينخفض كل نشاط، وتسترخي العضلات، وتصير سرعة دقة القلب والتنفس بطيئة». وخلال النوم ينتج العقل أيضاً كثيراً من أنشطته الخاصة: الأحلام. ولكن النوم هو أكثر من مجرد فترة راحة.

في أثناء النوم تحدث تغيرات في الجسم تؤثر في جهاز المناعة، فقد اكتشف العلماء ارتباطاً واضحاً بين استجابة جهاز المناعة والنوم العميق. فقد أخبرت مجلة American Health أن «النوم العميق يحرض على إنتاج الإنترلوكين١، وهو عنصر رئيس في الجهاز الدفاعي للجسم».

والنوم يقدم فرصة لأجزاء الجسم كي تسترخي وتستريح، مبطلة مفعول الاستهلاك من النشاط اليومي. وعمل التنظيف العام الذي يواصل عبر الدم الجاري بفعالية ويُسترد التوازن

درويش إبراهيم يوسف

الكيمـاوي. لذلك يمكن أن يوازن النوم بفـريق العـمـال الليليين الذيـن يأتون لإصـلاح الأشـياء وتنظـيفـهـا من أجل اليوم التالي.

ومن أكثر وظائف النوم أهـميـة السمـاح للجهاز العـصبي بأن يتعافى بسبب استـعماله خـلال النهـار. تقـول دائرة مـعـارف الكتـاب العـالمي «يسـتـرد النوم الطاقـة للجـسم، وخصوصاً للدماغ والجهاز العصبي».

الأرامل والمطلقـون والعـاطلون والذيـن يعـانون الوحـدة هم الأكـثـر تعـرضـًا للأرق واضطراب النوم



السفر يؤدي إلى اضطراب الساعة البيولوجية مما يسبب الأرق

الفترة اللازمة للنوم

يحتاج معظم الراشدين إلى سبع ساعات نوم أو ثمـاني ساعـات كل ليلة، تزيد أو تنقص قليـلاً حسب طبيعة الأجسام والسن. فالذين تراوح أعـمـارهـم بين (١٧ و ٢٥ سـنة) يحتاجـون إلى أكثر من ذلك، في حين يتكيف أناس كـثـيـرون مع فترة من النوم أقل مما هم بحاجة إليه فعـلاً، فمن المحـتـمل أنهم يكومـون «دينًا من النوم»، كـمـا يقـول أحـد الاختـصـاصـيين، سيدفعـون ثمنه لاحقًا. وبينمـا يتـأسف بعض الآبـاء لكسل مراهقيـهم الذين ينامـون حـتـى الظهـر في نهـايات الأسابيع، فإن معظم هؤلاء الأحـداث يحاولون فـقط أن يخـفـضـوا بعض دين النوم المتـراكم عليـهـم طوال الأسـبـوع. وبالطبع فـإن الأطـفـال يحـتـاجـون إلى فترات نوم أطول بكثير.

وعندمـا يصيـر الناس أكبـر سناً بشكل خـاص، قد يجـدون أنهم يسـتـيـقظون مـرات عديدة خـلال الليل. وقد يشـعر بعـضهم أن ذلك عـلامـة بدايـة مـشكلات خطيرة في النوم. ولكن، مع أن الأكـبـر سنًا قـد لا يتـمـتـعون بنوعـيـة النوم نفسها التي كانوا يتمتعون بها عندما كانوا أصغر سنًا، فـقـد أظهـرت التـجـارب أن الاسـتـيـقـاظ مـرات قـليلة خـلال الليل ليس سـببـًا للإنذار بـالسـوء. وعـادة يكون وقت الاسـتـيـقـاظ، للغالبـية الذين يحدث مـعـهم ذلك، قصيراً، ربما مـجرد دقائق قليلة، قبل أن يخلدوا إلى النوم مرة أخـرى. ولكن مهمـا كان عمر المرء، فيجب ألاّ يتوقع النوم بالعمق نفسه فترة الليل كلهـا، فالنوم يكون في شكل دورات يتناوب فيهـا النوم الأعمق والنوم الأخف. وقد يمر بـالـشـخص خـلال الليـل عـدد من هذه الدورات. لكن يبدو أن الكـثيرين اليـوم يعانون مشكلة في التمتع بنوم عميق.

مشكلة عالمية

أظهرت دراسـة أخيـرة لهيئة الإحـصاء الكنديـة أن ربع الراشـديـن الكنديين يعـانون مـشكلات في النوم. ويقـدر الخـبراء أن مـئـة مليون أمـريكي لا يحصلون على كفـايتهم من النوم. وفي ألمانيـا كـشف استطـلاع شمل ألفـا وخـمـسـمـئـة شـخص تراوح عـمـرهم بين (١٨و٦٥ سنة) أن تسـعـة عـشـر في المئـة يعـانون اضطراباً في أثناء النوم، مما يجـعلهم منهكين خـلال النهـار، وأن ثلاثين فـي المئـة يعانون مشكلات أقل خطورة في نومهم. بينما وجـد أن نصف العـينـة فـقـط لا يوجـد لديه مشكلات في النوم.

وتبين الدراسـات والاسـتـطلاعـات التي أجريت بهذا الخصوص أن الأرامل والمطلقين (من كلا الجنسين) والساكنين وحدهم هم أكثر الذين يعـانون من النـوم المضطرب كـمـا أن العـاطلين عن العـمل لديهم نسـبة عـاليـة من الأرق على نحو خـصوصي. ولاحظ الدكـتور جفري لبسـتس الاختصاصي في اضطرابات النوم الذي يعايـن أكثر من ألف مـريض جديد سنوياً، «عندما يقلـق الناس أكثر بشأن فـقدان العـمل أو بشـأن المال، يـبـدؤون في مـعـانـاة الأرق».

وللنوم المـضطرب مـسـبـبـات كـثـيـرة كالإجهاد، والاضطراب العاطفي، والمشكلات الصحية والمرض. وعموماً ينام العزّاب أفضل من المتـزوجين، والرجال أفـضل من النسـاء، والصغار أفضل من المسنين

مخاطر النقص في النوم

يزداد قلق البـاحـثين بشـأن عـدد الناس الذين يقل وقت نومهم إلى حد كبير. ويحذرون من أن النقص المزمن فـي النوم يمكن أن تكون

له نتائج مؤذية لنا وللناس حولنا على السواء.

وتذكر دائرة معارف الكتاب العالمي: «الناس الذين يحرمون من النوم يخسرون الطاقة ويصيرون سريعي الغضب. وبعد يومين من عدم النوم، يجد الشخص أن التركيز فترة طويلة يصير صعبًا، وتُرتكب أخطاء كثيرة، وخصوصًا في الأعمال الاعتيادية (الروتينية)، وتنعدم المقدرة على الانتباه أحيانًا.

والأشخاص الذين لا ينامون أكثر من ثلاثة أيام يشعرون بصعوبة كبيرة في التفكير، والرؤية والسمع بوضوح. وبعضهم يمرّون بفترات من الهُلاس (الهلوسة)، يرون خلالها أشياء غير موجودة حقًا».

ووجدت الاختبارات أنه بعد أربعة أيام من الأرق استطاع الشخص الذي أجري عليه الاختبار أن ينجز مجرد أعمال روتينية قليلة. والأعمال التي تتطلب الانتباه أو حتى الحد الأدنى من اليقظة الذهنية صارت لا تحتمل. وانعدام التركيز واليقظة الذهنية لم يكن أسوأ الأمور، فبعد أربعة أيام ونصف اليوم، ظهرت علامات الهذيان، وصار العالم الذي يراه الشخص مغايراً تماماً للواقع. يقول الدكتور دنيس مارتينس، رئيس الجمعية البرازيلية للنوم: «إن أولئك الذين يحصلون على نوم قليل، إذ يعملون، مثلاً، في ثلاثة أماكن هم ببساطة يبيعون صحتهم لسوق العمل». ويُقتبس قوله «إن خمس حوادث العمل هنا ناجمة من عدم نيل نوم كاف في الليل».

ويمكن أن يؤدي النقص في النوم إلى مشكلات خطيرة. فكثيرون هم الأشخاص النُعس الذين ناموا على عجلة القيادة بينما كانوا يقودون سيارة وتورطوا في حادث مميت. ففي جنوب إفريقية بينت دراسة أنّ ما يبلغ رُبع حوادث السير في البلد يسببه السائق النعسان. وخطر النعس عند القيادة هو أن السائقين قد لا يدركون حالتهم إلا بعد فوات الأوان، والموسيقا، والقهوة، أو الهواء المنعش ربما لا تعالج المشكلة حقًا. وفي الواقع أن محاولة مقاومة النعس لا يمكن إلا أن تخفض

الذين يعملون فترات طويلة من غير راحة يبيعون صحتهم لسوق العمل



النوم العميق في الليل مهم جدًا لصحة الإنسان

مستوى تركيز السائق. وينصح ناطق بلسان مديرية أمن حركة المرور هناك: «هنا لك أمر واحد فقط لفعله إذا شعرتم بالتعب عند القيادة: توقفوا وارتاحوا قليلاً. اخرجوا سياراتكم عن الطرق إلى مكان ترتاحون فيه، ولا تتابعوا الرحلة إلا بعد أن تستيقظوا».

والأرق يمكن أن يؤدي إلى مشكلات عائلية وزوجية؛ لأن النقص المتواصل في النوم يجعل المرء أسرع في الانفعال، وأصعب في التآلف مع الآخرين.

حقًا، إن النوم العميق في الليل مهم أكثر مما يعتقد بعض الناس. وصحيح أن الناس الذين ينقصهم النوم يمكن أن يسيروا، وأن يسمعوا ويروا كأي شخص آخر، لكن البحث يظهر أن للنوم دَيْنًا لابد من دفعه.

التمتع بالنوم العميق

إن الأطباء، ورجال الإطفاء، ورجال الشرطة، وسائقي الشاحنات، والعمال الذين تتغير نوبات عملهم، والأمهات اللواتي لهن أولاد صغار، وآخرين كثيرين هم بين أولئك المعرضين لأن يُحرموا من النوم الذي تحتاج إليه أجسامهم. وملايين الأشخاص الذين يختبرون التشبط المقترن بالنقص في النوم مهتمون اهتماماً شديداً بمعرفة كيفية التمتع بنوم عميق ومنعش.

في الحقيقة ينصح الاختصاصيون بقائمة من الإرشادات من أجل نوم عميق، ومن أهمها:

ـ ناموا في محيط هادئ ومظلم، وفي سرير مريح. لا تحاولوا أن تقرؤوا أو تشاهدوا التلفزيون وأنتم في السرير.

ـ حافظوا على ساعات نوم منتظمة. انهضوا في الوقت نفسه كل يوم حتى في نهايات الأسابيع، لأن ذلك سيساعد الجسم على اكتساب نظام ثابت للنوم والاستيقاظ.

ـ لا تأخذوا قيلولة في وقت متأخر من النهار، حتى لو لم تناموا جيداً في الليلة السابقة، وحاولوا أن تبقوا مستيقظين خلال



الأطفال يحتاجون إلى فترات نوم أطول بكثير من تلك التي يحتاج إليها الكبار

هذه الفترة، ثم تذهبوا إلى الفراش في وقتكم المعتاد.

ـ لا تذهبوا إلى الفراش إلا عندما تشعرون بالنعاس؛ وإذا لم تناموا خلال عشرين دقيقة بعد أن تأووا إلى الفراش، فانهضوا وقوموا بشيء يدفعكم إلى أن تشعروا بالاسترخاء من جديد.

وبالنسبة إلى بعض الناس يكون الاستحمام بماء دافئ أو قراءة مواد ممتعة غير مثيرة أمراً مساعداً، وكذلك المساعدات المحرضة على النوم أيضاً كالحليب الفاتر، واللبن، أو الشراب الساخن كالنعناع أو البابونج.

ـ نمّوا عادة الاسترخاء المنظمة قبل الذهاب إلى الفراش. تجنبوا فعل أمور قد يكون من شأنها أن تنبهكم وتوقظكم أكثر. مثلاً، تجنبوا الأفلام أو برامج التلفاز أو مواد القراءة المثيرة، والكافئين، والتمرين الشاق، ووجبات الطعام الكبيرة.

ـ بالنسبة إلى كبار السن، قد يكون التمرين المعتدل خلال النهار هو الحل لنوم أفضل. ففي دراسة أخيرة في الولايات المتحدة، قسمت مجموعة من ٢٤ رجلاً يبلغون من ٦٠ إلى ٧٢ سنة من العمر إلى فريقين. وطوال سنة على الأقل، تمرن فريق بنشاط ثلاث مرات في الأسبوع أو أكثر، والفريق الآخر تمرن قليلا جداً على نحو غير منتظم. فوُجد أن الرجال الذين تمرنوا على نحو منتظم وبنشاط ناموا بمعدل مرتين أسرع من نظرائهم الكثيري الجلوس. وكان ذلك صحيحاً سواء فحصوا في اليوم الذي تمرنوا فيه أو في يوم آخر. وتضيف الدراسة «لقد قضوا أيضاً وقتاً أقل وهم مستيقظون في الليل».

ـ وعلى الرغم من ذلك، فمن المتفق عليه، أن هذه الأمور بحد ذاتها غير كافية. فالحياة المتصفة بالصحة، والاتزان في الطعام، والتمرين المنتظم، والخالية من القلق والتثبط الذي يسببه الحسد والعداء تساهم في المقدرة على النوم عميقاً في الليل.

إفساد نظام ساعة النوم

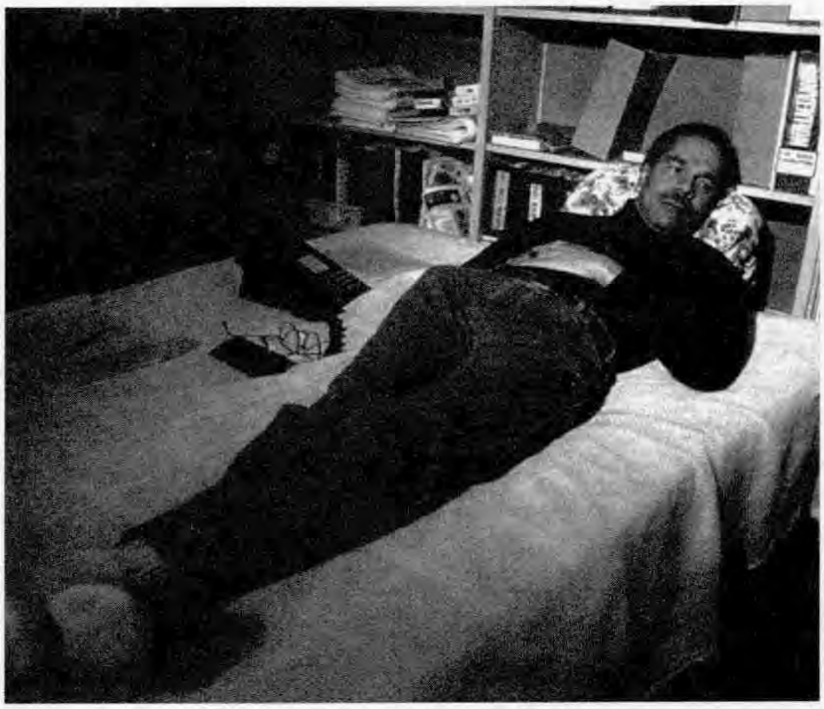
مع أن النوم بانتظام ساعة يومياً عملية داخلية، إلا أن بعض التأثيرات الخارجية يمكن أن تؤثر فيها أو تفسد نظامها إلى درجة ما. فيرجّح أن تكون ساعات نومكم مضبوطة وفق المنطقة الزمنية التي تحيون فيها. ولذلك بعد الطيران على متن طائرة نفاثة بين منطقتين زمنيتين مختلفتين قد يجري اختبار مشكلات النوم بـ «فتور النفاثة».

فماذا حدث؟ لقد اضطربت الساعة الأحيائية Biologic Clocks للجسم وهي تحاول بيأس أن تلتصق ببرنامج الموطن. ومشاريع العمل أو المؤثرات أو حتى متعة العطلة يمكن أن تتأثر على نحو غير موات بالصداع والأرق والمشكلات الهضمية والإعياء التي غالباً ما يتسبب بها «فتور النفاثة».

ومن المثير للاهتمام أن مشكلات كهذه لم تحدث في أيام التنقل الأبطأ. فساعات الجسم كانت تحظى بالوقت لتتكيف مع المنطقة الزمنية الجديدة حتى قبل أن يصل المسافر إلى مقصده. ولكن بالسفر في طائرة نفاثة يمكن للمرء أن يعبر أربع مناطق زمنية أو خمساً في مجرد ساعات، وهذا يمكن أن يشوش تشويشاً كاملاً على برنامج النوم. وهذا مزعج لمستخدمي الخطوط الجوية خصوصاً.



الأرق يؤدي إلى مشكلات عائلية وزوجية، لأنه يجعل الشخص سريع الانفعال وصعب التآلف مع الآخرين



ويظهر الاختبار أن المسافرين من الغرب إلى الشرق يعانون مشكلات أكبر في التكيف. والذين يذهبون من الشرق إلى الغرب تكون معاناتهم أقل؛ لأن النهار يصبح أطول، مما يسهل على الجسم عملية التكيف، ولكن ساعة النوم لا تتأثر عادة بالرحلات من الشمال إلى الجنوب؛ لأنها تبقى في منطقة زمنية واحدة أو اثنتين على الأكثر.

وقد وجد أن العمال المناوبين الليليين غالباً ما يحسون بمشكلات مماثلة مزعجة. وتشتد هذه المشكلات عندما يردون عادات نومهم إلى النوم الليلي خلال أيام العطل. فقد وجد الباحثون أن الأنظمة الحيوية Biologic rhythms تحتاج إلى عدة أيام لتتكيف وفق نمط نوم جديد.

وينصح الخبراء المسافرين الذين يقطعون مسافات زمنية مختلفة والعمال المناوبين الليليين، بأن يتّبعوا الإرشادات التالية خلال فترة سفرهم القصيرة أو خلال يوم عطلتهم:

ـ النوم مدة أربع ساعات على الأقل خلال فترة النوم التقليدية، فهذا يساعد على دعم الأنظمة الحيوية. وهذا يعني أن ينام العمال المناوبون الليليون خلال فترة النهار في أيام العطلة أيضاً، وأن يلتزم المسافرون ساعة نومهم في مواطنهم.

ـ ينصح بالنوم خلال الصباح المتأخر وبعد الظهر الباكر. لا تقلقوا إذا كنتم لا تستطيعون دائماً النوم خلال الوقت المفضل؛ فحتى النوم النهاري المنتظم القصير أفضل من لا شيء على الإطلاق.

ـ تناولوا وجبة كبيرة غنية بالبروتين عند بداية يومكم، فالبروتين يزوّد الجسم بمورد داعم من الغلوكوز المنتج للطاقة، وسينشط غدّتيكم الكظريتين لإبقائكم متيقظين. ثم تناولوا وجبة معتدلة تحتوي على البروتين في منتصف النهار، وتجنبوا الوجبات الخفيفة الكربوهيدراتية فهي قد تعطيكم عوناً وقتياً، لكنها ستجعلكم متعبين خلال ساعة أو ساعتين، وفّروا الكربوهيدرات لوجبتكم الأخيرة في اليوم. فهذه المواد تُعدّكم لنوم مريح. ولكن لا تأكلوا قبل النوم مباشرة فأنتم تحتاجون إلى بضع ساعات لتهضموا طعامكم.

ـ عندما تستيقظون أضيئوا الأنوار، أو إذا كان هنالك نور في الخارج، اخرجوا إلى نور النهار، مارسوا التمرين، تجولوا، وتحدثوا إلى الناس. فالنشاط والنور سينشطان دماغكم ويساعدانكم على إعادة تكيف جسمكم مع برنامج عملكم الليلي أو البلد الجديد.

النوم وموت الرُضّع المفاجئ

صارت متلازمة موت الرضّع المفاجئ Sids معروفة في السنوات الأخيرة فقط كسبب من أسباب الوفاة. ففي عام ١٩٧٩م تبنت منظمة الصحة العالمية الـ Sids في «التصنيف الأممي للأمراض». وهي تصيب الأطفال عادة في عمر بين شهر وستة أشهر، وتبلغ ذروته عند بلوغ الطفل شهرين إلى أربعة أشهر. فالرضيع السليم يمكن أن ينام ولا يستيقظ ثانية من دون سبب ظاهر.

والـ Sids هي مشكلة عالمية، إذ تعدّ أحد الأسباب الرئيسة للموت بين الأطفال في السنة الأولى من الحياة. ويقدر أن ما بين ألف وألفي رضيع يموتون كل سنة بسبب الـ Sids في الولايات المتحدة الأمريكية. والمعدل في البلدان المتطورة هو نحو طفل واحد من بين ٥٠٠ طفل ويمثل ذلك نحو ١٧٠ ألف وفاة سنوياً.

وخلال السنين الأخيرة جرى تتبع أسباب عديدة محتملة للمرض. مع أن سبب الـ Sids الحقيقي غير معروف إلا أن الخبراء الطبيين من أنحاء عديدة من العالم وجدوا أن خطر الموت من المتلازمة يتعلق بوضعية النوم. فالمؤتمر الذي انعقد في أستراليا لمناقشة المشكلة وجد الاختناق في أثناء النوم مرتبطاً

بالـ Sids. فالبحث يشير إلى أن خطر الموت بسبب المتلازمة هو أعلى بثلاث مرات على الأقل لدى الأطفال الذين يجري وضعهم على بطونهم في أثناء النوم منه عند أولئك الذين يجري وضعهم إما على ظهورهم وإما على جنوبهم. ويقترح الأطباء أنه إذا جرى إعلام الأهل بالمخاطر، فسيمكن إنقاذ حياة الآلاف.

والحل الآخر لهذه المشكلة هو النوم مع الطفل. يقول جيمس ماكينا، أستاذ في كلية بوموتا في كاليفورنيا: «لا نقلل فقط من الـ Sids، بل نربي أطفالاً بصحة أفضل، وسعادة أكثر إذا فعلت الأمهات شيئًا واحدًا فقط، وهو إذا أخذن أطفالهن معهن إلى الفراش في السنة الأولى من عمرهم، بدلا من عزلهم في أسرتهم الخاصة. فالنوم ملتصقًا بأحد الوالدين يساعد على تنظيم وظائف أعضاء الطفل طوال الليل». وقد أثبتت الفحوص أنه عندما ينام الطفل بالقرب من أمه، فإنه يتبع في طريقة تنفسه، سرعة قلبه، ومراحل نومه. وإذا كانت الأم والطفل متقابلين في أثناء النوم فإنه يمكن للطفل أن يرضع بسهولة كلما أراد ذلك. يقول الدكتور ماكينا: «يعاني الأطفال الذين ينامون وحدهم في السرير حرمانًا حسيًا. ونعتقد أن ذلك يؤدي إلى انعدام النمو العقلي المهم - ومن المحتمل - إلى إمكانية حدوث متلازمة Sids.». وتظهر الإحصاءات أنه في البلدان التي اعتادت أن يشترك الأطفال فيها مع أمهاتهم في السرير تكون نسب Sidsأقل من غيرها بكثير.

السبخ: علة النوم

السُّبخ Narcolepsy علة جسدية تسبب لضحاياها نوبات متكررة من النعاس. فالناس المصابون بالسبخ، يخلدون فجأة وعلى نحو غير إرادي إلى نوم يدوم من دقائق قليلة إلى عوارض تصل إلى ١٥ دقيقة، وذلك في أثناء قيامهم بالنشاطات اليومية. ويمكن للنوبات أن تأتي في أي وقت إجمالاً: خلال محاضرة، أو في أثناء مواصلة محادثة، أو في أثناء قيادة السيارة. ويقدر أنه في الولايات المتحدة وحدها هنالك عشرات الآلاف من المسبوخين.

وفي أغلب الأحيان يقلل المصابون بالسبخ من أهمية أمراضهم بنسبتها إلى التعب أو الإجهاد المزمن، ويخفقون في طلب المساعدة الطبية. وحتى عندما يطلبونها، لا يجري تشخيص السبخ دائمًا بسهولة، وخصوصًا في مراحله الباكرة.

الاستيقاظ المتكرر ليلاً ليس نذيرًا بحدوث مشكلات، لأن النوم يكون في شكل دورات من النوم العميق والأقل عمقًا

ولكن ماذا بالنسبة إلى الذين شُخص أنهم مصابون بالسبخ؟ في حين أن المرض غير قابل للشفاء، يقول الأطباء: إن هنالك عددًا من العلاجات التي يمكنها مساعدة المصاب ليحيا حياة سوية إلى حد معقول. وغالبًا ما يجري وصف منبهات الجهاز العصبي المركزي لمساعدة المريض على البقاء يقظًا خلال النهار. وتجري أيضًا تجربة عدد من الاقترابات الجديدة. فبعض الباحثين يدّعون أن الكودئين Codeine، الذي يصيب معظم الأشخاص بالنعاس، لديه الأثر المعاكس في المسبوخين. وثمة تفاؤل مع علاج يدعى عمومًا GHBغاما - هيدروكس الزبدات Gamma - Hgdroxybvtyrate والذي يمكن أن يثبت أنه أداة فعّالة في مقاومة نعس النهار.

وهنالك خطوات يجب أن يتخذها المصابون بالسبخ. فيجب أن يقبلوا الواقع، ويعترفوا بأن لديهم علة تشكل تحديًا لهم، وقد تكون سببًا في تشكيل خطورة عليهم في أثناء قيادة السيارة، وتشغيل الآلات، أو حتى في السباحة. وإذا كانت الحالة خفيفة نسبيًا، فقد يساعد المصاب أن يغفو عدة مرات خلال النهار. فهذا يمكن أن يقلل إمكان النوم في أوقات غير ملائمة. وإذا كان الإعراب عن الانفعالات القوية يثير نوبة النوم، يتعين عليهم أن يتعلموا ضبط مشاعرهم.

هل تشخرون في نومكم؟

هل أنتم بين الذين يشخرون بصوت عال؟ بعض الأشخاص يشخرون بصوت عالٍ ولا يعرفون ذلك أيضًا، ومن ثم لا يدركون لماذا يستيقظون وهم شاعرون بضعف وترنح؟ إن اضطرابهم هذا يكون بسبب توقف التنفس في أثناء النوم. فبينما يكون الشخص الذي يعاني هذا الاضطراب نائمًا، تسترخي عضلات الحلق التي تبقى مسالك التنفس مفتوحة إلى حد يجعل المسلك الهوائي ينسد. وقد تمر دقيقة قبل أن يشهق الشخص طلبًا للهواء ويستيقظ قليلاً. ولا يعرف معظم الذين يعانون توقف التنفس أن نومهم لا يكون منتظمًا. والدليل الوحيد قد يأتي من رفيق غرفتهم الذي غالبًا ما يستيقظ بسبب الشخير. ويعتقد الخبراء أن توقف التنفس يساهم في حوادث السيارات والحوادث في أثناء العمل، وأنه قد يكون عاملاً في السكتات والنوبات القلبية.

هل هنالك حل؟ يشير دليل العائلة الطبي Family Medical Guide «إلى أن الرجال غالبًا ما يصابون بذلك أكثر من النساء ٢٠ مرة. وأكثر من نصف الذين يعانون ذلك هم من المصابين بالسمنة، مما يعيق أيضًا التدفق الطبيعي للهواء. لذلك فإن تخفيض الوزن جزء مهم من العلاج»، ويقترح المصدر نفسه أنه في الحالات الخطيرة، قد يكون من المستحسن إجراء عملية لتقليل انسداد المسلك الهوائي.

خاتمة

من الواضح، إذن، أن النوم حاجة حيوية للإنسان، وأنه باضطراب هذه الساعة الداخلية تضطرب الوظائف الحيوية للجسم؛ لذلك تمثل الحالة الذهنية والجسدية للإنسان خلال النهار دليلاً موثوقًا على نوعية نومه. وهكذا، لا عجب أن يقال: طاب نومكم... طاب يومكم.

إلى عمّار..

راضي صدّوق

«خرج إلى المتاهة وهو في ربيعه الثاني عشر، وظلّ هناك نخلةً عربيةً في الأرض الأمريكية»

أنظرُ حَولي.. لا أرى واحداً
وألْتَقيكَ الحلْمَ في خاطري
قد كان لي أمسٌ، ولمّا انْقَضَى
سألتُ يومي: مَنْ ترى آخِري؟
يُقالُ أنتَ المُقْبِلُ المُرْتَجى
كم مُقْبلٍ أصْبحَ في دابر!
يا ولدي.. يا نُطْفةً من دمي
وبضْعةً من حلُمي الشاعري
تُراكَ تَغْدو فارسًا مُلْهمًا؟
أم تَنْطَوي كالسَّرَبِ العابِرِ؟

* * *

عمارُ.. هذا زمَنٌ جاحدٌ
وأنتَ في الحَوْمةِ بعضُ الرَّجاءْ
أراكَ في قلبي وفي مُقلتي
هل يكْذبُ القلبُ ويَعْشو الضياء
فكلُّ مَنْ أنْجَبْتُ خانوا دمي
وكلُّ مَن أكْرمْتُ خانوا الوفاء
يا ولدي.. حاشاك أنْ تَنْثني
مُروَّعَ الكِبْرِ ذليلَ الإباءْ
أبْصَرْتُ فيكَ الشمسَ في زَهْوِها
تَأبى الغروبَ الجَهْمَ عند المساء

* * *

فاصْعدْ إلى الشُرْفةِ إنّي هنا
أقعدْ فوق السَدْرِ عند الذُرى
أنظُرُ من يأتي غداً حاملاً
بشارةَ الريحِ، لعلّي أرى..
.. نجْمًا من الشرْقِ يضيءُ الدجى
ويدفعُ العتْمةَ.. للقهْقرى

أقادمٌ أنتَ؟.. أيا مرحبًا
بالأملِ المُشرِقِ عَبْرَ الكَرى
يا مرحبًا بُنَيًّ.. إنّي هنا
أخْتصرُ العمْرَ وأنْسى الوَرى

* * *

عمّارُ.. يا غُربةَ عمري الّذي
ضيَّعْتُهُ في لحظةٍ من كفاحْ
الآنَ أصحو من غُيوبِ الرُؤى
ويَنْفضُ القلبُ دماءَ الجراح
قد كان لي حُلْمٌ، فلمّا انْقَضى
عرفْتُ لا طَيْرَ بغَيْرِ الجَناحْ
فاصْعدْ بضُعْفي إنّني لم أزَلْ
أتوقُ أنْ أقْصِمَ ظَهْرَ الرِّياح
أنتَ صعودي لِلْمدى والذُرى
أنتَ خلاصُ المُهْدَرِ المُسْتَباح

* * *

يا ولدي.. بوركْتَ من راحلٍ
في الغَيْبِ والمجهولِ عَبْرَ المدَى..
تكتب سِفْرًا غامضًا سرُّهُ
يجْهَلُ فيه المُنْتَهى المُبْتَدى
وتسألُ الأيامَ.. هل نلتقي؟
فيُبْلِسَ الصَّمتُ وما من صَدى
أراكَ في الحُلْمِ.. غدًا نلْتقي
وربَّما لا تلْتقيني غدا..
وربَّما تُبحرُ في مَهْمَهِ
وربَّما يطوي جَناحي الرَّدى

يا أقرب الناس

زكي إبراهيم السالم

من هنا وعلى بعد آلاف الأكيال أناجي ذلك الصوت الذي ظلّ صامتاً لأكثر من عامين.

ناءٍ وأنتَ بملءِ السَّمعِ والبصرِ
يا ساكن القلب، حيٌّ ساكني هجرِ
ناءٍ، وطيفكَ في قلبي يُمزِّقُه
لم أدرِ أنَّ النَّوى سَيفٌ على البَشَرِ
لم أدرِ أنَّ جِراحَ البُعدِ قاتلةٌ
حتى رَحلْت، فأودتْ بي على الأثرِ
ماذا صنعتُ بدُنياي التي أخذتْ
مِنِّي الرفاق، فلمْ تُبقِ ولمْ تذرِ
توختِ المسكَ من عِطري ومن أرجي
واختارتِ النّور مِن قلبي ومن بَصَري
ما أوحشَ الكونَ مُذْ أضحى يُصاحِبُهُ
طَيفٌ من الهمِّ، أو رؤيا منَ الضَجَرِ
عِفتُ الحياةَ فعافتني مُنادمَتي
حتى غدوتُ مع اللّذات كالحَجَرِ
لَمْ يبقَ في مهجتي للعشق مُتّسَعٌ
ولا لغادات حيٍّ بالهوى نَضِرِ
فخافقي ألهبت ذِكراك جمرتَهُ
حتى استحالتْ إلى دُنيا من الشررِ

ياأقرب الناسِ من نَفسي: هل ارتحلَتْ
عَنك الهُموم أم استَبقتكَ في كَدَرِ؟
يا أقرب الناس: هل مَرَّت بضائقَةٍ
نَفْسٌ تأبَّتْ علَى الأهوالِ والخَطَرِ؟
وهل أزيحَ سِتارٌ كانَ يَحجُبها
عن أهلِها، فيمدُّوا ثاقِبَ البَصَرِ؟
وهل توارت عنِ الأحزان نفسُك مُذْ
راحتْ تُلاحِقُها البَلوى على الأثرِ؟
نُبِئتُ أنّكَ في دُنياكَ مُرتهَنٌ
تَقسو عليكَ الرزايا قسوة القَدَرِ
وفي الفؤاد لَهيبٌ عَارِمٌ، لعِبَتْ
به الحوادثُ لعِبَ الريح بالشجَرِ
فيا رفيقيَ، عُدْ للشمس والقمَرِ
وعُدْ لقلب إلى لقياكَ مُفتقِرِ
وعُدْ لِخلٍ أذابَ الحزنُ خافقَهُ
وعاشقٍ بلهيبِ البُعدِ مُنصَهِرِ
يامُهجةَ الرُّوح: والأيامُ حالفةٌ
ألاَّ تَرانيَ في نَأيٍ عنِ الكَدَرِ

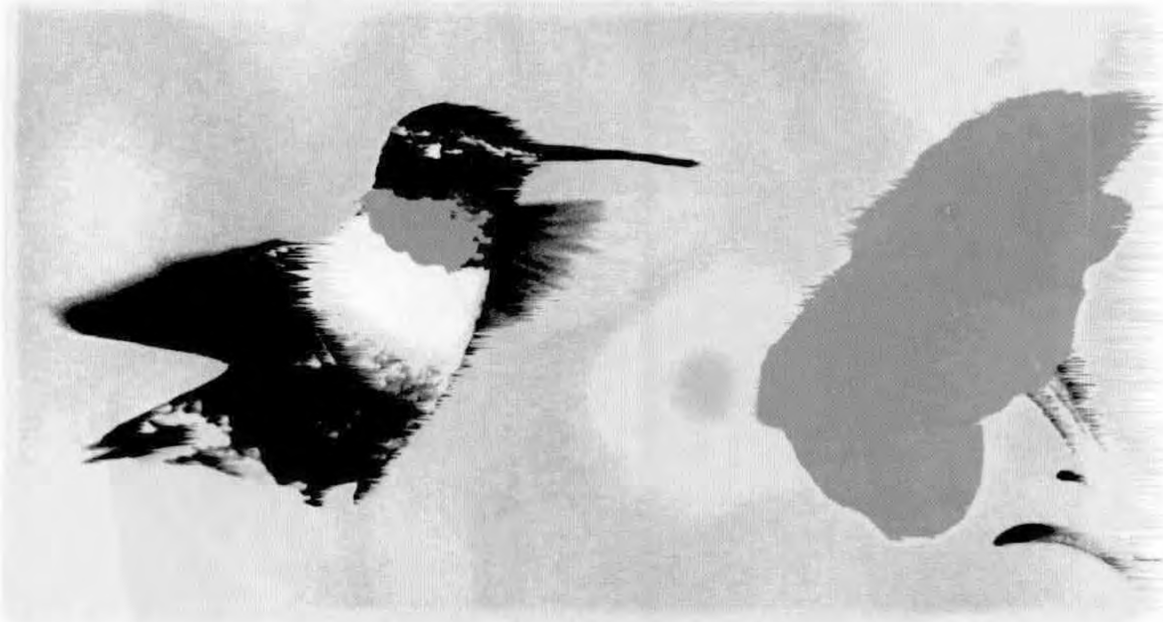


تَجمَّعتْ برَزايا الحِقدِ في كَبدي
وأرسلتْ من لَظاها كُلَّ مُستَعرِ
فرحتُ أنقلُ فكري هَاهُنا وهُنا
ولمْ أخلْ أنني بالنائِباتِ ثري
طُوِّقتها، وظَلامُ الأمس يَتبعُني
حتى كأنَّ نُجوم اليوم لم تُنرِ
حتى كأنَّ ربيعًا بالصِّبا خَضِلاً
قدْ آبَ خِلواً منَ الأمواه والزَّهَرِ
أغريتُ بالمُغريات الكُثر، سالَ لَهَا
لُعَابُ جِلفٍ على الوَيلاتِ مُصطَبرِ

فيارفاقيَ: والدُّنيا بُرمتها
لو جُمِّعت ما رنَا شوقًا لها بَصَري
ولا أناخَ عليها مَركَبي شَغفًا
كلا ولا تاهَ في أبراجِها قَمَري
أنبيكُمُ أنني في الشُّهب مُتكئٌ
على الأرائكِ فوق الأنجمِ الزُهْرِ
أنِّي أخذتُ من الدُّنيا وزُخرِفها
نزرًا، فذلكَ عِندي غايةُ الوَطَرِ
أعطيتُ أنفَسَ كَنْزٍ لا مَثيل لَهُ
شِعرًا، فَهَلْ بعدهُ فَخْرٌ لمفتخِرِ

شهريار - شهرزاد

أحمد عوض طايل



(١)

هل تسمحين؟؟
من أي صبحٍ جئت لي
وبأي ركن في دمي تتخبئين
وبأي سحرٍ
قد كسرت طلاسمي
ومتى ولجت إلى رُبى قلبي
السماوي الحزين
هل أنت من جنس الهزار
أم البلابل
كي تطيري بين أغصاني
وأترك شدوك الرقراق
يسبح في الجبين
وبأي حق تزرعين الصمت
ثم تغادرين
ومن الذي سمّاك شمساً
تشرقين ... وتشرقين
كيف استطعت توغلاً
في حقل ألغامي الرجيم
وكيف جئت
وحولي الجدران والأسوار والأسلاك والماء الضنين؟

(٢)

هذا الصباح سألت عنك
وقد عرفت بأن زهرات البنفسج
قد دعتك ... فرحتُ كي تتوضئي
وتوزعي العطر المبارك في المدى
ونسيت أني ها هنا
أشدو...... وليتك تسمعين

حَدُّ السَّيف

نوفل نيُوف



أنظر إليها بعد غياب طويل، فأبدي تعجُبًا من ظهورها الفجائي! لست متعجبًا في الحقيقة إلا قليلاً، بالأحرى، لست إلا مفاجأ، أخذتني موجة من حيرة واستغراب، وشعور لم يتحدَّد بعد.

إنها أمامي، ويدي لا تزال يابسة على مقبض الباب. آليًا ترتدي حيرتي فرحًا لا أعلم بعد أهو حقيقي أم زائف؟ أبتسم مرحِّبًا كما تقضي المجاملة والأعراف.

كأنها أطول مما كانت، أكثر نحولاً وشحوبًا مع تورُّد الخدين.

عيناها أشد اتساعًا وسوادًا تحت شعرها الخرنوبي القصير، على غير عادته، كشعر صبي.

للحظة يتهيأ لي أنها لم تعد إلاَّ ميَّادة الحيادية الآن. ربما للحظة فقط. لا أعرف إن كانت ستعود ميَّادة التي كانت أم ستبقى ميَّادة كما أراها في بابي الآن عقب فراق دام سنوات؟ لا أعرف أيضًا ما يدور في ذهنها وهي واقفة أمامي هذه الثواني كأنها دهر، تمد يدها مشفوعة ببسمة تزيدني ارتباكًا، وتخلط فيض مشاعري وهي في طور التحول إلى أفكار.

أشدُّ على يدها مرحِّبًا كما أشد على يد أي ضيف. لا أدرك بعد أنَّ ما في يدي هو يد ميَّادة بالضبط. يدها، وهي تطالعني الآن بالنعومة التي كانت ليد ميَّادة وهي في الثالثة والعشرين، بحرارة يدِ لفتاة عاشقة في الثالثة والعشرين.

لستُ حارًا ولا باردًا. أبتسم وأدعوها إلى الدخول.

تتفضل متقدمة عبر غرفة الضيوف، معلنة عتبها السريالي المجنح وهي تقرأ على سحنتي الباسمة بجمود مزيدًا من الحيرة والدهشة والتأهب للإنكار، فتنعطف إلى أسئلة عن أحوالي وظروفي وانشغالاتي.

يبعثر لساني كلمات مكررة، بينما أتملاَّها وهي تثرثر محصَّنة بسحر تلوُّنه عيناها بهبَّات ألق لا تذوب.

تجلس قبالتي وأجهد لأصدَّ النار.

نتكلم كلانا، وكلانا نَهْبٌ للتأمل، والصمت كأنما ترقبًا لإحياء غال يمكن للتعويذات والرقى أن تعيده الآن.

أسمع ضحكتي وأستغرب! أستغرب لماذا أضحك؟ فأجفل وأرتد.

تعلو ضحكتها، وتتحرك يداها فألمح رعشة في أصابعها الناحلة.

ألمس برودة أصابعها فأنتعش. أتذكر كتفيها الرقيقتين وأنا أضمهما إلى صدري بقسوة الشوق ... والقنوط!

تجلس قبالتي وتهدل ... وحدها.

أرغم نفسي على التحديق في عينيها السوداوين الواسعتين كما لم أعهدهما يومًا، وأنكسر فأهبط بنظري إلى الحمرة السارية في خدَّيها وأنفها الدقيق الحبيب.

أضحك أيضًا وأنثر الكلمات. ألمس أصابعها من جديد.

ليست أصابع باردة لامرأة تخطَّت الثلاثين.

أصابع دافئة لفتاة في الثالثة والعشرين، لامرأة حميمة تنفض الغبار عن زوايا قلبي، وتهدل ... وحيدة هذا النهار الجميل.

لحظة حرية

بادي الخطيب

لم يكن قد مضى أكثر من أسبوع واحد على انتقاله إلى المسكن الجديد حتى راحت تلك الفتاة المدهشة تثير فيه هدوء التأمل تارة، وزوبعة الفضول تارة أخرى. عادة، يبدو الأمر مألوفًا حينما تكون هناك أنثى رقيقة، من عسل وحليب وقطر ندى، تمارس كل صباح أدق تفاصيل الرعاية والاهتمام بأصيص كبير مزروع بأزهار الأرجوان ... فإما أن تغرس فيه شتلة جديدة، أو تسقيه الماء، أو تداعب بأناملها كل زهرة وردية تفتحت فيه مع مطلع الربيع ... ثم تمضي مبتعدة وتتلاشى في الزحام. لكن الغريب أن ذلك الأصيص لم يكن على حافة شباك المطبخ أو الشرفة. لم يكن أمام باب الدار أو في الحديقة. كان يمتد وحيداً، يتيمًا، على مساحة متر وسط الرصيف!. هكذا بدت له الصورة من بعيد: أصيص أرجوان فوق إحداثيات غريبة تماماً، وزائرة من نوع خاص جداً، وصلاة خاطفة.

فصارت مراقبتها جزءاً - لعله الأهم - من طقوسه الصباحية. كان يخرج إلى الشرفة الضيقة حاملاً فنجان قهوته العزيز وعلبة السجائر، ويجعل ينتظرها بلهفة لم يذق لها طعمًا من قبل. إن رؤية امرأة مثلها، ولو من على بعد، كانت بالنسبة إليه، سببًا رائعًا كي ينعش تلك الرتابة المبكرة التي اعتادت أن تشاركه كل يوم أولى جرعات النيكوتين.

ثم راح يثقله بعد ذلك عبء اكتشاف الرموز الغامضة لتلك اللوحة، عبء فهم ألوانها المتضاربة، لقد أثاره أكثر أنها كانت تخرج كل صباح من مدخل البناء الذي يسكنه هو نفسه. انطلقت في رأسه، لوهلة، فكرة طائشة: لماذا لا يذهب إليها ويسألها؟ يطلب منها أن تزيح عنه ذلك العبء ... إن استخلاص سر دفين من أعماق صدر امرأة كهذه يجب ألا يقل متعة عن اكتشاف السطح نفسه. لكن! بأيّ حق يسألها؟ وكم سيبدو تطفله سخيفًا؟ تبدو «الإجابة عن سؤاله» آخر شيء تود أن تفعله في تلك اللحظات الصامتة التي تهرب فيها إلى خارج هذا العالم الصاخب. اللعنة ... ما العمل إذن؟ كيف الطريق إلى اجتياز تلك المسافة الهائلة من الأمتار القليلة التي تفصله عن الحقيقة؟

كان محظوظًا في ذلك المساء الذي قرر فيه جارهُ الأقرب، أستاذ التاريخ، أن يزوره لأول مرة. شعر أن الزيارة على الرغم من كونها لغرض التعارف وحسب، فرصته الذهبية كي يعلن عن سؤاله. لقد بدا له بعد مرور الدقائق الأولى أن ضيفه اللطيف سيستقبل السؤال برحابة وسيتحدث بصراحة.

هزّ أستاذ التاريخ رأسه فيما هو يتناول فنجان القهوة ويتلقى في الوقت نفسه السؤال الذي لم يحدث لديه أيّة ردة فعل غير عادية. كان استفساره مقتضباً: «ماسر تلك الحسناء؟ ... لم يكن هناك داع للمزيد، فقد أظهر وجه الضيف أنه يعرف بقية السؤال. استجمع الرجل أفكاره وبدأ يجيب.

- ليس هناك أي سر. إنها حكاية يعرفها الجميع. القصة، ياعزيزي، جارحة بالفعل. كلما أتذكر بدايتها و... نهايتها أكاد أحس بحجر مُدبب من الماس النقي يحز جدار قلبي. (يتردد قليلاً). الغريب حقًا أنني لم أسأم قط من سردها، بل يطيب لي أن أستجلبها من حين إلى آخر كي أشعر بذلك الألم الطاهر الذي يقطر منها بسخاء. لا شيء في هذا العالم قادر على أن يغسل القلب ويذيب مرارته أكثر من الحزن. أرجو ألا يرد إلى ذهنك أنني من هواة التلذذ بالتعاسة ... أبدًا. ستكتشف أنت بنفسك بعد قليل أني أنتهز هذه القصة كي أهرب من تفاهات الأيام، وأتمتع ببعض من التحليق. المسألة باختصار هي أنه ينبغي علينا، على الرغم مما نعيش به من لهاث، ألا ننسى تلك الحكايات العادية التي تلبس فجأة رداء الأساطير. ينبغي أن نحفظ في ذاكرتنا متسعًا لأولئك الذين يعيشون حياتهم في هدوء وضجر، لكنهم حين يرحلون يطلقون في حياتنا نحن عواصف قاسية وشتاءات لا تعترف بتسلسل الفصول.

- إنها قصة حزينة إذن؟!

- (بتشكك) حزينة؟! ... حسنًا، قد يراها البعض كذلك، إلا أني أراها مختلفة .. (يفكر قليلاً) ... إنها تبدو لي مثل أرملة متشحة بالسواد وقد أطفأ البكاء آخر خلية مشرقة في وجهها وقلبها. ولكن بريقًا ما لايزال يشع من عينيها، وابتسامة ما لا تزال تزهر على شفتيها. إنها حالة أقصى الانتصار الذي يجيء من انكسار الهزيمة ... إنها حالة الفرح الذي يشرق فجأة على أشقى مدن الحزن. سأحكيها لك كما أحكي تاريخًا غير مكتوب لمعركة مدهشة خسرها بشرف فارس شجاع نبيل.

يحتسي قليلاً من القهوة ويتابع فيما يمضغ حبة هال.

ـ عاش في هذا الحي شاب مسكين. كان مصاباً بواحد من تلك الأمراض العقلية اللعينة. سمّه ما شئت مجنوناً ... متخلفاً ... فلا فرق الآن. جاء هذا العالم بلا عقل، وكان الابن الأول والأخير لتلك العائلة البائسة. نعم، لقد جلب لأهله ـ مرغماً ـ الهم والتعاسة، وجعل من حياتهم جحيماً، بل موتاً يومياً قد يبدأ كل لحظة ولا ينتهي أبداً. استسلم الأطباء أمام قدر ذاك الشقي، ولم تجد نفعاً المصحّات التي كانت تزيد من حالته سوءاً. أما نحن، سكان هذا الشارع، فلم نكن نملك أكثر من التعاطف والتحلي بالصبر ولا سيما في تلك الصباحات التي كان يخرج فيها إلى الشرفة ويبدأ بالغناء العالي على طريقته الخاصة. نعم. الغناء مع مطلع الفجر. طبعاً أنت لا تستطيع الآن أن تتخيل كم كان ذلك أمراً لا يطاق ... ثمة فرق بكل تأكيد بين الاستيقاظ على صوت «فيروز»، والإعدام الجماعي من خلال مجنون يبدو غناؤه وكأنه عواءات من بريّة تعج بالذئاب. لكن، كان علينا أن نحتمله رأفة به وبأهله، وأن نتقبل على مضض تلك الأوقات غير المنتظمة التي يصفو فيها مزاجه، وتنفتح شهيته على الغناء.

في أواخر الصيف الماضي جاءت أسرة جديدة وسكنت في هذا البناء نفسه ... تماماً في الطابق الأعلى. سيدة أرملة، وابنتها الحسناء كما قلت أنت، وقصة ستبدأ في أيلول. لا أقدر في هذه اللحظة أن أصف لك تلك الفتاة، بل تكاد تعجز عن ذلك كل قصائد الحب التي حملتها لنا كتب التاريخ. لقد شاهدتها أنت بعينيك وتفهم ما أعني. إنها حقاً آية فريدة في السحر والجمال، نبع أنوثة تشرب منه نساء هذا العالم كله. (يبتسم) ...من حسن الحظ أن زوجتي ليست هنا الآن. لكني أقول الحقيقة ... صدقني. (يفكر قليلاً) نحن الرجال نحب، نتزوج، ننجب أطفالاً، ونمضي نحو كهولتنا في حزن، لكن تبقى في مخيلاتنا أبداً صورة غامضة كالشبح لامرأة مجهولة، امرأة قد تظهر للعيان في أية لحظة كي تنسف حياتنا الكسولة، البليدة، الخامدة مثل بركان عجوز. لقد كانت ابنة جارتنا الجديدة هي اللغم الذي تفجر فينا أواخر الصيف الماضي.

وبالطبع، كان عليها ذات صباح أن تستيقظ مذعورة على صوته، مثلما اعتدنا نحن، وأن تهرع إلى الشرفة كي تتبيّن مصدر ذلك العويل. لم يكن الأمر صعباً، فقد كان يقف أمامها، وجهاً لوجه، على إحدى شرفات البناء المقابل، قابضاً بيديه على «الدرابزين» الحديدي الصدِئ، متأرجحاً إلى الوراء تارة، وإلى الأمام تارة أخرى. كان يهزّ رأسه طرباً ... وكان يغني!. لم يكن هذا المشهد مألوفاً بالنسبة إلى عينيها الجميلتين ... شاب حظّه من الوسامة أكثر تواضعاً من قوة عقله، شعره الأسود الكث في حالة فوضى، مسحة جنون طيبة تلون وجهه الشاحب، وبنطال «بيجامته» المرقطة الرثة يرتفع حتى



صدره، وأخيراً ... كان يعتقد أنه يغني بتفوق.

لا أحد غيره يمكن أن يصف ما رآه هو في تلك اللحظة. امرأة أجمل من كل نساء الدنيا تخرج لتقف أمامه على بُعد أمتار قليلة. ربما كانت تلبس رداء نوم أبيض شفافاً بينما شعرها الخرنوبي الطويل قد استسلم لرياح الخريف اللطيفة. لقد ظهرت له هكذا فجأة ومن دون مقدمات، كأنها هبطت من السماء على سحابة بيضاء شفافة ... جاءت من أجله هو ... هو فقط. لقد اعتاد أن يغني وحيداً سنين طويلة وقد حان الوقت أن يجيء المستمع، الأمر الذي أشعل حماسته من جديد. تقول هي: إنها لم تفعل شيئاً وقتئذ سوى أنها وضعت إصبعها على شفتيها الورديتين وقالت «شش» طالبة منه أن يصمت. صدق أو لا تصدق، لكن الذي حدث هو أنه استجاب للأمر و... سكت. نعم، توقف عن «الغناء» الذي لم يستطع أحد من قبل أن يوقفه. (يهز أستاذ التاريخ رأسه متعجباً) على كل حال لا أظن أن هناك رجلاً عاقلاً أو حتى مجنوناً يقدر أن يعصي تلك الـ«شش» منها هي بالذات. لقد فُتن بها مثل الآخرين، سحرته سحراً لا انفكاك منه ولا خلاص. صحيح أن عقله كان قاصراً على وعي هذا العالم، ولكن لا شك في أن قلبه الصغير وروحه المعذبة قد التقطا صورتها بدرجة عالية من الإحساس بالجمال، وكانت تلك هي البداية لقصة حب! وأكرر وأقول إنه قد يكون من المستحيل على أي رجل ألا يقع في حبها، فلماذا يكون ذاك الشقي استثناء؟...

(يفكر قليلاً) ... لكنه في الوقت نفسه كان استثناء بالطريقة التي أحبها، والطريقة التي عبّر فيها عن هذا الحب. لقد أثبت لنا جميعاً أنه إنسان قبل كل شيء، وأن روحه، على الرغم من كل انكساراتها، قادرة على أن تجيد الحب.

صارت الصباحات التالية أكثر سكوناً. لقد «فهم» بطريقة أو بأخرى أن أناشيده الغريبة تزعجها. لكنه «أدرك» أيضاً، بقليل من الخبث، أن تلك الأناشيد كانت الوسيلة الوحيدة الناجحة كي يراها كلما أمطر الشوق على صحراء عمره الضجِر. أصبح يغني دقيقة واحدة أو أقل، لأنها كانت تخرج فور سماعه لتقول «شش». اكتشف حيلة اللعبة وأتقنها، فصوته المجنون هو النداء المُشفّر للقاء والدعوة السرية للحب. كان يطيعها بخضوع كلما طلبت منه السكوت. تعلو وجهه ابتسامة الدهشة، ويعلن الاستسلام من دون شروط. كان يتوقف عن الحركة ثم يتراجع حتى يصطدم بالجدار، ويقرفص بين أحواض النباتات معانقاً ركبتيه الهزيلتين. يظل يتأملها بنظرة طفولية طيبة إلى أن تلوح له مودعة قبل أن تعود إلى سريرها مرة أخرى.

لقد عرفنا جميعاً كيف استطاعت تلك الإنسانة الساحرة أن تمنحنا صباحات أكثر هدوءاً. كنا مُمتنين لذلك، ولكن أرجوك لا تندهش لو قلت لك: إننا كنا قد بدأنا أيضاً نفتقد ما تعودنا عليه. علمت لاحقاً أنها كانت تزوره مع أمها وتقضي بصحبته ساعات طويلة. يبدو أن رقة قلبها قد جعلت منها قديسة محبة وحنان لتعطي هذا البائس ما كان يفتقده حقاً. لا أحد غيرها يعرف عن ماذا كانت تحدثه وماذا كان يتمتم لها. (يبتسم) مما يدعو للسخرية أن البعض راح يحسد ذلك المسكين ويعده محظوظاً، حتى إنّ أحدهم تمنى لو أنه يفقد عقله كل صباح ويخرج يغني ... (مبتسماً من جديد) تصور مثلاً لو أن كل الرجال اندفعوا إلى شرفات منازلهم، وبدأ كل واحد منهم ينشد بجنون أغنية الحب كي يحظى في النهاية بنظرة واحدة من عينيها وبـ «شش» واحدة من شفتيها!

سار كل شيء على ما يرام بعض الوقت. أو لعلنا كنا نظن وقتئذ أن كل شيء يسير على ما يرام. لم يكن حبه لها قد استولى عليه تماماً فحسب، بل امتزج في تركيبة شيطانية مع جنونه. أحبها بجنون آخر إضافي احتل كل المساحات الجرداء في روحه المنهكة. كانت طاقة الحب لديه متفوقة، عظيمة، وفوق احتماله. لقد شرب الماء أخيراً بعد العطش الطويل. ذاق طعم السكر بلسان نبت عليه الصبار والعلقم. إن أروع ما في الهزيمة هو ما تمنحنا إياه من سعادة حين نحقق الانتصار. إنها السعادة التي لا نحتمل ضياعها بعد ذلك أبداً. على هذا الشكل كانت سعادته الأولى، الغالية، والتي قرر أن يحافظ عليها بأي ثمن ... ولذلك، كان على هذه الحكاية أن تمضي في اتجاه مختلف.

في ذلك الصباح، خرج إلى الشرفة وهو في حالة هيستيرية. كان يصرخ بصوت مجروح ويتأرجح بشكل عنيف. لم يكن يطلق ذلك اللحن الكئيب المألوف، بل إيقاعات هائجة تنذر بعاصفة بحرية. وكالعادة، هرعت إلى الشرفة وراحت تطلب منه أن يهدأ. لقد لزم الأمر عدة محاولات منها قبل أن تنجح في إخماد ثورته.

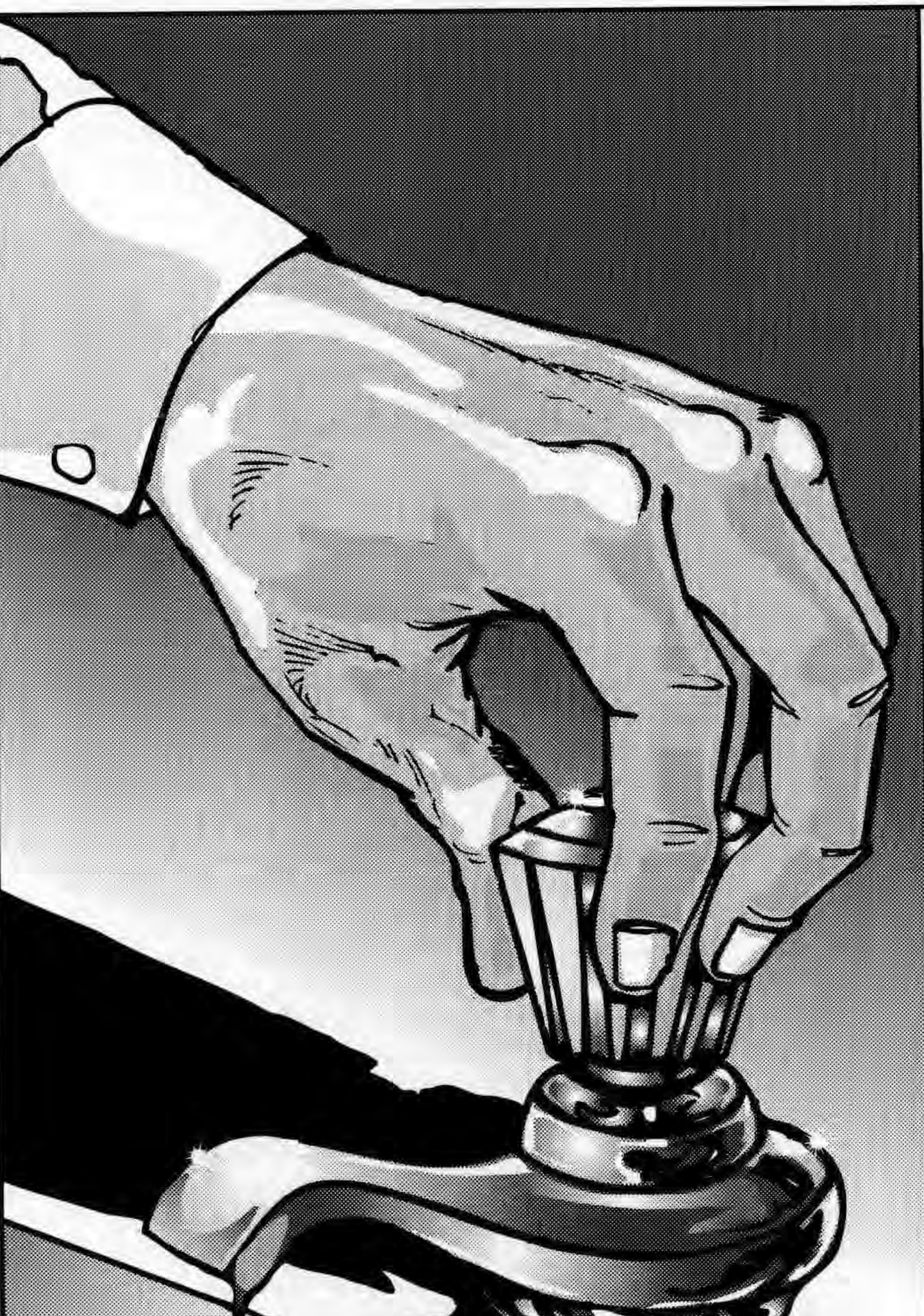
ماحدث بعد ذلك لم يكن أقل غرابة، لقد استدار يبحث بين أحواض النباتات حتى عثر على عرق ياسمين صغير فقطفه والتفت إلى حبيبته من جديد. مد يده باتجاهها وكأنه يقدم لها الياسمين، فابتسمت وأشارت له بأنها سوف تأتي إليه لاحقاً كي تأخذها، ثم حاولت أن تفهمه بأنها تشعر بالبرد وأن السماء قد بدأت تمطر. وأخيراً أشارت إليه بأنها تريد أن تدخل ولوّحت مودعة. لم يكن ذلك عذراً كافياً فهزّ رأسه رافضاً ثم جمد في مكانه وتحول إلى تمثال من خشب. أوقفها هذا التحول السريع فاستدارت من جديد لتنظر إليه بمزيد من الإمعان.

نظر أستاذ التاريخ إلى مستمعه الذي كان على أعلى درجات الإصغاء. ثم سأله عبر ابتسامة حزينة مقتضبة: هل ضجرت؟

ـ أرجوك أن تتابع.

ـ آه ... لم يتبق الكثير ... (يمعن التفكير لحظات) ... لقد تجمد في مكانه بضع دقائق حتى إنها خشيت أن يكون شلل ما قد ضربه، لكنها كانت مخطئة، ففي تلك الأثناء كان هو يتحول بتسارع خاطف إلى حالة أخرى، كان يخرج من تاريخه التافه كي يصنع قراره الشخصي، كان يهرب من لحظات الجنون الرخيصة التي ملأت حياته إلى لحظة واحدة سريعة من الجنون الرائع والمدهش، كانت يده لا تزال ممدودة نحوها حين استند باليد الأخرى على «الدرابزين» الحديدي رافعاً نفسه في هدوء غريب وثقة هائلة ليقف على الحافة الضيقة وقد عزم على أن يطير إليها. أجل، لقد قرر أن يعبر بنفسه تلك المسافة اللعينة التي طالما وقفت حاجزاً بينهما. لم يكن السير في الفراغ، حسب ظنه، شيئاً مختلفاً.

لقد هوى كالحجر من الطابق الرابع وارتطم بالرصيف فمات. سقط على ظهره فيما كانت عيناه تحملقان صوب شرفتها، ويده لا تزال قابضة على الهدية. أما هي فقد تسمّرت في مكانها. كان عليها أن تشاهده وهو يحتضر باختصار مرعب، ويلفظ أنفاسه الأخيرة في دهشة وخوف. ثم كان عليها أن ترى ابتسامته الطيبة، الطيبة جداً والمثقلة بالإخفاق، ودمعته الكبيرة، وأن تسمع أنين الهزيمة المخنوق وهو يصعد إلى أعلى حاملاً كل جراحات حياته ... نعم ... كان لا بد لعينيها من أن تلتقي عينيه، وأن تقرأ خيبة أمله العظيمة، أو ربما تسمعه وهو يسأل: «ما الذي حدث؟»، «لماذا لم أصل إليك يا حبيبتي؟». لقد كان عليها أن تعيش كل تلك التفاصيل كي لا تنساها أبداً.



مئة عام على الصهيونية وخمسون عاماً على قيام إسرائيل

تحسين الحلبي   مراجعة: جان الكسان

«تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى» **الحشر: ١٤**.

هل المشروع الصهيوني - بعد مئة عام - في مأزق من خلال أزمة الواقع الإسرائيلي في الكيان الذي يمر على قيامه هذا العام خمسون عاماً؟

هذا هو أحد الأسئلة المحورية التي يجيب عنها الأستاذ تحسين الحلبي في هذا الكتاب الذي جاء في مقدمة وأربعة فصول.

فعلى الرغم من أن عدداً من الكتاب والمفكرين العرب، تناولوا بالعرض والتحليل منشأ الصهيونية وطبيعتها وجوهرها ومؤسساتها وأهدافها في الوطن العربي وفي العالم، إلا أن مؤلف هذا الكتاب تناول الموضوع من جوانب أخرى حديثة ومعاصرة، حيث جرى التركيز والاهتمام فيها على واقع الحركة الصهيونية بعد مئة عام على مؤتمرها الأول وعلى علاقتها الراهنة بوليدتها (إسرائيل) بعد خمسين عاماً على قيامها، والدور الذي يسعى مفكرو الصهيونية رسمه للحركة في إسرائيل والعالم في القرن القادم. من أجل هذا الغرض تناول المؤلف بالعرض والتحليل أزمة الاتجاهات الفكرية (الأيديولوجية) الصهيونية، والواقع الراهن لإسرائيل، كما اهتم بمتابعة آخر تطورات العلاقة بين يهود العالم بشتى اختلافاتهم، وبين الصهيونية وطبيعة الحوارات والمواقف التي أخذوا يعبرون عنها بالنسبة إلى المشروع الصهيوني، ومستقبل استكمال أهدافه، والمأزق القائم فيما بينهم حول هذه المسألة، وكذلك طبيعة العلاقات بين يهود العالم والصهيونية وإسرائيل.

ثكنة استيطانية

يقول الدكتور عمر أبوزلام في تقديم الكتاب: لقد خططت الصهيونية العالمية منذ مؤتمرها الأول لمشروع اغتصاب القدس، أقدس بقاعنا، وذبح عرب فلسطين وتهجيرهم لتحويل هذا الشطر من وطننا إلى ثكنة مدججة، يستوطن فيها من تهود من (الخزر) وغيرهم من يهود توطنوا في شتى بقاع العالم، من عشرات القرون، لتكون هذه الثكنة الاستيطانية أداة للأنظمة العالمية تتحكم بوساطتها في مقدرات العالم العربي، واستنزاف ثرواته، وتعطيل طاقاته، وتحجيم دور تراثه ورسالاته.

من هنا كانت خطة تحويل المليشيات الصهيونية إلى جيش نظامي مدجج بأحدث التقنيات العسكرية عدة وعتاداً وتدريباً للتفوق على جيوش العالم العربي جميعاً.

ومادام الخليط الصهيوني يعيش تناقضاً مع سياساته المعلنة ودعاويه (الديموقراطية) و(التعايشية) حتى في علاقاته مع (الأسفار) التوراتية التي يستند إليها أحياناً، ويستخف ويهزأ منها أحياناً أخرى، فإن علينا أن نستفيد من هذه المتناقضات، وأن نعد، عملياً وإستراتيجياً، الكيفية العملية التي تمكننا من تأزيم تناقضاته، تسهيلاً للانتصار عليه ودحر أهدافه.

المنشأ والتناقض مع جوهر الدين

نشأت (الأيديولوجية الصهيونية) منذ الإعلان عن المشروع الاستعماري والاستيطاني (لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين) وتأسيس المؤتمر الصهيوني الأول، كواقع فكري وسياسي معاصرين في إطار ووعاء الفكر القومي الأوروبي في ذلك الوقت، حتى (هرتزل) الداعي المتحمس لهذه (الأيديولوجية) والمعبر العملي عن مشروعها، لم يكن سوى مثقف سياسي أوروبي يهودي، لا يؤمن بالدين اليهودي، ويشبه معظم المثقفين السياسيين القوميين الذين عاصرهم في أوروبا، حيث ترعرعت (الأيديولوجية الصهيونية) ونشأ أتباعها في قلب النظم الاقتصادية والسياسية في أوروبا في عهد القوميات والدول البرجوازية الصناعية التي حلت محل الدول الامبراطورية في عهود الإقطاع السابقة، وفي حين أن الفكر القومي الأوروبي سعى



مئة عام على الصهيونية
وخمسون عاماً على قيام إسرائيل
تحسين الحلبي
دمشق: دار الشادي، ١٩٩٨م

للتخلص من هيمنة الكنيسة ورجال الدين حماة الإمبراطوريات السابقة وحلفائها انطلق الفكر الصهيوني - على النقيض - من عملية مزدوجة، هي الاستناد إلى الدين ورجاله لخلق دولة يهودية غير دينية، علمانية في أفضل الحالات، وكان الدين هو الرابطة الوحيدة بين اليهود في العالم.

ولم يعرف الفكر اليهودي هذا المخلوق الجديد «القومي»، فالمستندات النظرية التقليدية للفكر اليهودي، من توراة وتلمود، لا يمكن أن تستوعب أو تتوافق مع هذا المخلوق (الجديد المصطنع)، فالدين اليهودي يتميز بطابع قبلي عشائري محدود ومحصور، لا يؤمن بأممية الدين كالإسلام

والمسيحية، ولا يدعو إليها بالأساس (هو دين يحمله كل من ولد من أم يهودية).. وهكذا فهو لا يمثل دعوة عامة إلى الناس كافة لأنه قائم على أساس فكرة وجود نوعين من البشر: اليهود.. أبناء إسرائيل، و(الغوييم) أي الأمم غير اليهودية، ولا يزال هذا التقسيم ثابتاً في الشريعة اليهودية المستمدة من التوراة والتلمود وتقوم عليه آراؤهم في الحاضر والمستقبل بشكل عام.

والفكر اليهودي كما نراه في مؤلفاته الدينية ليس سوى شرائع عبادات ومعتقدات تحمل انتماءً خيالياً، أسطورياً لأرض (موعودة) جعلتها التوراة والتلمود مركز الحياة الدنيا والآخرة، ومستقبل الأرض والبشرية، لأنها مرتبطة في كل مراحل التاريخ الماضي والمستقبل (بمسيح يهودي) يظهر ويبيد معظم البشرية (الغوييم) - أعداء بني إسرائيل - ويحمل (بني إسرائيل) إلى الأرض الموعودة، حيث يحيي أموات اليهود فقط، ويورثهم الأرض إلى الأبد وقد اعتمدت الحركة الصهيونية العمل السياسي والاستيطاني والعسكري لإنشاء الدولة القومية اليهودية العصرية (لتحقيز الإرادة الإلهية على تحقيق غايتها التوراتية).

إسرائيل والانقسامات الدينية والإثنية والثقافية

بعد الانتهاء الرسمي للانتداب البريطاني على فلسطين، وانسحاب الجيش البريطاني، وانتصار قوات المنظمات الصهيونية العسكرية على المقاومة العربية والفلسطينية - فوق أرض فلسطين - التي عرفت بحرب ١٩٤٨م وقف دافيد بن جوريون يوم ١١مايو/ أيار١٩٤٨م أمام مجلس الشعب في مدينة تل أبيب، بحضور ٣٨ ممثلاً عن الاستيطان اليهودي في فلسطين والمنظمة الصهيونية العالمية ليقرأ ما سمي بإعلان الاستقلال وإقامة الدولة الصهيونية: «نحن أعضاء مجلس الشعب، ممثلي الاستيطان اليهودي في أرض إسرائيل والحركة الصهيونية، وبعد انتهاء الانتداب البريطاني، وبناء على حقنا الطبيعي والتاريخي، وقوة القرار الصادر عن الأمم المتحدة نجتمع لنعلن قيام دولة اليهود على أرض إسرائيل، وتدعى إسرائيل».

وكانت المبادئ التي قامت عليها الدولة، والقوانين الأساسية التي شرعتها، هي دستور تلك الدولة، «ليس لإسرائيل دستور كبقية الدول، ولا حدود نهائية. وإنما قوانين أساسية شرعتها المؤسسات المنتخبة من برلمان وغيرها عدت بمنزلة دستور مؤقت»

ومنذ نشوء الدولة بدأت الصراعات بين مختلف التيارات. وخصوصاً بين التيار اليهودي المتدين المعارض للصهيونية منذ نشوئها والتيار اليهودي المتدين الصهيوني (المفدال) الذي يؤمن بالدولة القومية ولكنه يعارض قوانينها العلمانية، بالإضافة إلى الانقسام الإثني ليهود إسرائيل:

- اليهود الشرقيون الذين كانوا يعيشون في آسيا وإفريقية (السفارديم).

- اليهودي الغربيون الذين يعود أصلهم إلى أيام الإمبراطورية الرومانية وتوسعها في وسط أوروبا والمناطق السلافية (الأشكناز).

وبين هذين القسمين تقسيمات أقلية: يهود الغرب، ويهود العراق، ويهود اليمن، ويهود ليبيا، ويهود بولونيا، ويهود روسيا، ويهود ألمانيا؛ وتفصل بين المجموعتين هوة ثقافية وتربوية على الرغم من وحدة التعليم.



تيودور هيرتزل

وعلى الصعيد الديني هناك ثلاثة تيارات ليهود العالم، وهي تيارات دينية منفصلة بعضها عن بعض:

- اليهودية الأورثوذوكية (السائدة بين يهود إسرائيل المتدينين).

- اليهودية الإصلاحية، ظهرت في ألمانيا وتعبر عن تحكيم العقل في المعتقدات.

- اليهودية المحافظة (يؤمن أصحابها بأن العقيدة اليهودية تعبير عن روح الشعب اليهودي الثابتة لا روح العصر المتغيرة).

ولا توجد بين هذه الفئات الثلاث خلافات جوهرية باستثناء أن الإصلاحيين والمحافظين لا يؤمنون كثيراً بالهجرة إلى إسرائيل أو العيش الدائم فيها، ولذلك تغلب المصلحة الاقتصادية النفعية في علاقاتهم معهم ومع إسرائيل على أية مصلحة أخرى.

ويمكن القول: إنه بقدر ما كان الدين اليهودي وسيلة للصهيونية، كان أيضاً مشكلة للدولة الإسرائيلية، فالدين اليهودي لم يكن منذ ظهوره سوى دين الطائفة التي تدار شؤونها الدينية والدنيوية من رجال الدين، الحاخامات، ولم يعتد أبداً على قوانين الدولة بمعناها القديم والعصري، وحين قامت إسرائيل عُد العمل الصهيوني هو الدولة وليس الدين اليهودي المحض، وكان مؤسس الدولة دافيد بن جوريون واضحاً جداً حين كتب بعد قيام دولته «على اليهودي من الآن فصاعداً ألاّ ينظر التدخل الإلهي لتحديد مصيره، بل عليه أن يلجأ إلى الوسائل الطبيعية العادية مثل الفانتوم والنابالم، وعدّ ابن جوريون (الجيش الإسرائيلي) هو خير من يفسر التوراة».

وثمة منظمات دينية أشد تطرفاً وعلنية في عرض آرائها الخطيرة من النواحي السياسية، وأكثر ميلاً لاستخدام العنف، فهناك منظمة (إسرائيل حي وقائم)، وهناك منظمة أمناء الهيكل اليهودي، وهاتان المنظمتان تسعيان علناً إلى هدم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبناء (الهيكل اليهودي) في موقعهما وبعد ذلك تعلن دولة التوراة.

وإلى جانب هاتين المنظمتين الدينيتين السياسيتين، ظهرت مؤخراً منظمة دينية متطرفة أطلقت على نفسها اسم (جبهة الفكر الصهيوني) وهي التي تنتمي إليها الفتاة اليهودية من أصل روسي تاتيانا سوسكين التي وزعت منشوراً يسيء إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في شهر يونيو/ حزيران عام ١٩٩٧م في مدينة الخليل.

وضع الصهيونية الراهن والأهداف القادمة

يقول المفكر الصهيوني أمنون روبنشتاين: على الرغم من مرور مئة عام على إنشاء الحركة الصهيونية الهرتزلية، وبعد إنجازاتها الكبيرة وخصوصاً في تحقيق هجرة يهود الاتحاد السوفييتي (سابقاً) إلى إسرائيل ها نحن أولاء نشهد من يهاجمها بشدة لا سابق لها في بيتها:

- من معسكر اليهود المتدينين القوميين الذين يرتدون ثيابها ويكفرون بأساسها البشري.

- من معسكر المتدينين اليهود (الحاراديم) المعادين للصهيونية.

- من معسكر مفكري «مابعد الصهيونية» وهذا مفهوم يمثل مجموعة أفكار وآراء مشتركة سادت مؤخراً بين مجموعة من علماء التاريخ (الجدد) وعلماء الاجتماع (الانتقاديين).

ويعتقد أصحاب مفهوم (مابعد الصهيونية) أنها قد أنجزت مشروعها الآن ولم يعد ثمة حاجة إليها.

ويقول آخرون: إن الصهيونية ماتت في أوسلو.

ويرد الآخرون: إن المشروع الصهيوني يقضي

«بتأسيس وطن قومي لليهود في أرض فلسطين استناداً إلى الحق التوراتي» وبما أن إسرائيل الراهنة قامت على ٨٥٪ أو ما يزيد من أرض فلسطين الانتدابية، ولم تستوعب سوى ٤ ملايين يهودي من ١٢ مليوناً ما زالوا يعيشون في مختلف أنحاء العالم، فإن المشروع الصهيوني في مثل هذه الحالة لم ينته، كما لم ينجز بكامل أهدافه، ومن ثم فإن وضع إسرائيل الراهن لا يشكل سوى الأرضية والقاعدة المناسبتين لاستمرار السعي لتحقيق بقية أهداف المشروع الصهيوني الكبير.

وهناك قطاعات أخرى تعتقد أن السلام ينبغي تحقيقه فوراً من أجل إتمام المشروع الصهيوني، لأن إسرائيل قد سجلت لنفسها إنجازات، تسمح لها بإجراء مفاوضات مع جيرانها والتوصل إلى حلول وسط يكون من شأنها تعديل الظلم الذي لحق بالشعب الفلسطيني، ومن ثم تحقيق التطبيع.



بن جوريون

ويتابع هؤلاء: لا خوف على مستقبل إسرائيل فهي أكبر مركز تجمع يهودي في العالم، وستجلب جميع الذين يرغبون بالهجرة، ويعد معدل الأعمار فيها متناسباً جداً، على الرغم من أن السكان اليهود لا يمكنهم مجاراة الفلسطينيين في معدلات التكاثر، إلا أنهم يتبعون سياسة التكاثر الطبيعي، وستؤدي العملية السلمية إلى تشكيل علاقات طبيعية مع بلدان المنطقة وهكذا سيجد اليهودي الذي يقيم في إسرائيل نفسه يعيش في بيئة سياسية مناسبة.

يقول البروفسور الصهيوني اليعازر شفايد: لا يكفي لليهود أن يعيشوا في دولتهم المستقلة ذات السيادة، ويشكلوا حياتهم الخاصة بهم لكي يقيموا بهذا الشكل حاجزاً أمنياً أمام الذوبان، فالدولة تعطي الإطار والأدوات والإمكانية، لكن على المرء القيام بالعمل والاشتراك في محاولة إبداعية، وقبل كل شيء أن يكون لديه الإرادة لخلق الهوية الثقافية الجديدة.

وكأن شفايد يشير هنا، أو يؤكد بشكل ما، عدم وجود هوية ثقافية موحدة لليهود، حتى بعد مرور خمسين عاماً على وجود دولة إسرائيل واستيعاب اليهود فيها.

من هنا تجدر الإشارة إلى أن المشروع الصهيوني لا يزال في مأزق مع نفسه، وفي مأزق مع استمرار أهدافه التي لم تتحقق بعد، وفي مأزق مع أتباعه اليهود، وفي مأزق مع الواقع المحيط، ولكنه لم يصل إلى مأزق في علاقته الإستراتيجية والخدماتية مع القوى الإمبريالية وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية.

وفي المؤتمر العالمي الثاني عشر للدراسات اليهودية الذي عقد في الجامعة العبرية في مستهل أغسطس /آب ١٩٩٧م وحضره ألف باحث يهودي من إسرائيل والعالم، جرى النقاش حول مستقبل اليهود واليهودية، حيث طرحت آراء سوداوية عن مستقبل الصهيونية، فالتاريخ اليهودي أخذ يميل إلى التوقف، وبدأ الخطباء يتجنبون العودة التفاخرية إلى الماضي والتركيز على مسائل تتعلق بمستقبل اليهود بعد التقلص المتوقع لأهمية إسرائيل بصفتها محور الهوية اليهودية، وبوصف يهود الشتات أصحاب الدور المتزايد كمركز ثقافي مهم لليهودية.

وهكذا نجد أن أهم الدلالات الراهنة والمستقبلة هي:

ـ أن المشروع الصهيوني لا يمكنه الاستمرار حسب مخططه القديم بسبب عوامل خارجية عالمية، وعوامل داخلية تتعلق بواقع إسرائيل الراهن.

ـ عدم نجاح المشروع الصهيوني في تهجير جميع السكان الفلسطينيين واستمرار صمودهم ونضالهم ثلاثين عاماً، وتطلعهم إلى حل وسط يمنحهم دولة في الضفة الغربية وقطاع غزة أدى إلى نوع من الزعزعة في إنجاز إسرائيل الكبرى، وأعاق بناء الدولة اليهودية، على كل فلسطين، فوجود ٢.٥ مليون فلسطيني فيها لا يزال يضع إسرائيل والمشروع الصهيوني أمام أكبر التحديات المهمة.

ـ أن استمرار الصمود العربي حتى في أدنى مستوياته أمام المشروع الصهيوني خلال الخمسين سنة الماضية، والدعوة العملية لإدامة الصراع ضده، قد وضع الحركة الصهيونية وإسرائيل أمام مهمة إعادة النظر في تكتيكاتها القديمة، ومحاولة انتهاج سياسة أطول من حيث الزمن والترتيبات العملية.

إخفاق صهيونية هرتزل أمام الواقع الإسرائيلي

بعد خمسين عاماً على قيام إسرائيل نجد أنه ليس لديها دستور ثابت، وهذا غاية مقصودة. وهي أهم ثوابت الفكر الصهيوني الراهن، لأن وضع دستور يعني:

ـ تحديد حدود الدولة التي يسير في محيطها هذا الدستور، فالمشروع الصهيوني مفتوح على أشكال التوسع الجغرافي كافة.

ـ تحديد المساواة بين من يحمل جنسية أو (مواطنية) هذه الدولة، وهذا ما لا تسعى أيضاً الحركة الصهيونية إلى منحه للفلسطينيين الذين تسميهم مواطني دولة إسرائيل، أو العرب الإسرائيليين لأن منحهم المساواة يقلب الدولة وطابعها اليهودي الخالص.

ـ حسم الحركة الصهيونية لموقفها الحقيقي بالنسبة إلى الضفة الغربية وقطاع غزة والفلسطينيين الذين يعيشون فيهما.

ـ تحويل إسرائيل إلى دولة عادية.

من كل هذا يتبين أن المشروع الصهيوني لم يحقق أهدافه الكاملة حتى الآن، على الرغم من مرور أكثر من مئة سنة على الإعلان عنه، وتأسيس فكره وحركته المعاصرين وعلى الرغم من مرور خمسين سنة على تأسيس دولته في فلسطين.

وإذا حكم على الأجيال العربية الماضية بالكفاح والتصدي لهذا الفكر الاستعماري ومشروعه الاستيطاني وأهدافه ضمن ظروفهم الخاصة عبر مئة سنة بشكل عام، وعبر الخمسين سنة الماضية بشكل خاص، فإن الأجيال القادمة قد حكم عليها، شاءت ذلك أم أبت، بالكفاح والتصدي للوجود الصهيوني ومساعيه الهادفة إلى استكمال تحقيق أهدافه القديمة الجديدة ضمن ظروف مختلفة تماماً، ووسائل تعدها الصهيونية بما يتناسب وظروف القرن القادم وميزاته المختلفة في بداية عصر سيطرة القطب الواحد الأمريكي كقوة عظمى تسعى لحماية المشروع الصهيوني ودولته وقواه المنتشرة في العالم كواقع استيطاني عسكري خدماتي لاستراتيجيتها في المنطقة.

لكن، على الرغم من هذه الصورة القائمة الواضحة المعالم لما ينبغي أن تواجهه أمتنا العربية وحلفاؤها المحليون والدوليون، لا يعني هذا أن هذا العالم ثابت، والقطب الأمريكي كذلك، وإذا كنا نمتلك الإيمان فيجب ألا تنقصنا الإرادة.

الرواية:

بحث في تقنيات السرد

عبدالملك مرتاض   مراجعة: قسم التحرير

تناول الكاتب من خلال مقالاته التسع التي وردت في هذا الكتاب البحث في موضوع الرواية من مختلف الجوانب: الماهية، والنشأة، والتطور، وأسس البناء السردي، والشخصية، ومستويات اللغة الروائية وأشكالها، والحيز الروائي وأشكاله، وأشكال السرد ومستوياته وعلاقته بالزمن، وغير ذلك من أسس البناء الروائي.

وقد سوغ المؤلف اهتمامه بالقراءة المنهجية للنقد الروائي بأنها محاولة لمعرفة التقنيات والفنيات التي يصطنعها كبار الروائيين، كما تستوجب طبيعة عمله بصفته محاضراً في الجامعة ومشرفاً على أطروحات عدد من الطلاب، الإلمام بأكبر قدر من المعلومات عن هذا الموضوع.

الرواية: الماهية والنشأة والتطور

حاول المؤلف في هذه المقالة تعريف الرواية، معترفاً بأنها تشترك مع بعض الأجناس الأدبية الأخرى في بعض الخصائص، وتختلف عنها في خصائص أخرى مما يجعل تعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً أمراً عسيراً.

ثم عقد موازنة بين الرواية والملحمة، والشعر والمسرحية موضحاً الخصائص التي تلتقي فيها الرواية مع هذه الأجناس الأدبية ووجه الاختلاف معها، وذكر آراء كثير من الأدباء عن الرواية.

تعرض بعد ذلك لأصل كلمة (رواية)، وبين أن مادة (روي) في اللغة العربية تعني جريان الماء، أو وجوده بغزارة، أو ظهوره تحت أي شكل من الأشكال، وتتبع مصطلح كلمة رواية عبر التاريخ القديم والحديث محاولاً معرفة أول من استعمل هذا المصطلح.

وتحدث الكاتب أيضاً عن تاريخ الرواية، وعلاقة الرواية بالمجتمع، وتناول بنية الرواية، وأكد أن الرؤية للعالم تشكل إحدى البنى المركزية للرواية.

ثم ناقش أثر المدرسة الأمريكية في تطور الرواية، وأشار إلى أسلوبها الجديد في السرد الذي لم يكن معهوداً من قبل في الرواية الأوربية. وترى الناقدة الفرنسية جوليت رابي أن الروائيين الأمريكيين الشباب «نفخوا في جنس الرواية نفساً جديداً». وقد أطلق على هؤلاء الشباب (الجيل الضائع)، ومن أبرز هؤلاء جون دوس باسوس J. Dos passos، وإرنست هيمنجواي E. Hemingway، وفيتز جيرالد Fitz Gerald، وغيرهم.

وتعرض الكاتب بعد ذلك لرواية التجسس، وأوضح الفرق بينها وبين الرواية البوليسية، وذكر أهم الكتّاب الذين عالجوا رواية التجسس من خلال أعمالهم. ثم عرج على الرواية الحربية أو الوطنية، وهي تعد ـ بحسب رأي الكاتب ـ من أكثر أنواع الأدب انتشاراً في الأدب العربي المعاصر، ويرجع ذلك إلى أن البلدان العربية كانت ترزح تحت نير الاستعمار، ولما أفاقت هذه الشعوب



في نظرية الرواية
بحث في تقنيات السرد

د. عبد الملك مرتاض

الكويت: العدد ٢٤٠، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، شعبان ١٤١٩هـ، ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٨م، ٣٥١ ص.

شنّت الحرب على الاستعمار. واعترف الكاتب أنه أهمل الحديث عن كثير من أنواع الروايات، كرواية الوثائق، والرواية المسلسلة، والرواية الغرامية، ورواية الجنس، ورواية الطفل، والرواية النفسية، وغير ذلك من أنواع الروايات.

وخلاصة القول إن الرواية «من حيث هي جنس أدبي راق، ذات بنية شديدة التعقيد، متراكبة التّشكيل، تتلاحم فيما بينها، وتتضافر لتشكل، في نهاية المطاف، شكلاً أدبياً جميلاً..»

أسس البناء السردي في الرواية الجديدة

بدأ التجديد في الرواية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى على يد بعض الكتاب الروائيين أمثال أندريه جيد، ومارسيل بروست، وكافكا، وإرنست هيمنجواي، وغيرهم.

وبعد نهاية الحرب الثانية - وكانت ضحاياها أكثر من عشرين مليوناً من

الرواية ملحمة ذاتية تتيح للمؤلف أن يلتمس من خلالها معالجة الكون بطريقته الخاصة


جان بول سارتر


مارسيل بروست


أندريه جيد

البشر - كان لابد لهذا الحدث العالمي أن يغير في أشياء كثيرة، وكان لابد - في رأي المؤلف - من التفكير في شكل جديد للكتابة. فقد تغير الفكر الفلسفي بظهور الوجودية، وتغير التفكير النقدي بظهور البنوية، ثم تغير شكل الرواية على يد طائفة من الكتاب الفرنسيين، منهم الآن روب قربي، وناتالي ساروت، وكلود سيمون وغيرهم.

ثار كتاب الرواية الجديدة على كل القواعد المعروفة والمتعارف عليها في الرواية القديمة أو التقليدية، ورفضوا الانصياع لكل القيم والجماليات التي كانت سائدة من قبل.

ثم سأل الكاتب عن هذا الجنس الروائي الجديد الذي ولد منذ نصف قرن تقريباً. ما شأنه؟ وما خلفياته؟ وما مفهومه؟ وغير ذلك من الأسئلة وأجاب:

لكي نجيب عن هذه الأسئلة وغيرها لابد أن نقرأ هذا الكم الكبير من الروايات، وأن نتعايش مع شخصياتها المتباينة، وعلينا أن نقرأ أيضاً كتب النقد، ولاسيما ما كتب في الربع الأخير من القرن العشرين، وبعد كل هذا الجهد لا يضمن المؤلف النجاح، فقد يخرج القارئ أو الباحث بخفي حنين.

ثم يسأل عن الرواية الجديدة؟ ويقر بأن الرواية في الربع الأخير من القرن العشرين لا يمكن أن تكتب بالطريقة التي كانت تكتب بها في القرن التاسع عشر؛ وذلك لتغير الزمن، وتنوع أساليب الحياة، ودخول التقنية المتطورة حياتنا. فإذن لابد أن يواكب ذلك تغير في كل أنماط الحياة.

يذكر الكاتب بعض الأسباب التاريخية والحضارية التي أدت إلى نشأة الرواية:

- الحرب العالمية الثانية: كان لهذه الحرب وما أفرزته من ويلات وضحايا وتدمير للبنية الحضارية لكثير من دول العالم أثر كبير في تغير كثير من المفاهيم والأشكال، بما فيها الفنون والآداب وغيرها.

- الحرب التحريرية الجزائرية: وبما أن ميلاد الرواية الجديدة كان في فرنسا، نجد أن الكتّاب الفرنسيين تأثروا بهذه الحرب التي نشأت بين الفرنسيين المستعمرين والجزائرين الذين يقاتلون من أجل حرية بلادهم.

- اكتشاف السلاح الذري: بعد أن ضربت أمريكا اليابان بالسلاح النووي أصبح العالم كله يخاف من هذا السلاح الذي يمثل بعبعاً مخيفاً لكل البشر، وإن هذا السلاح عند قوم يشربون الخمر، فقد يشرب أحدهم حتى يفقد عقله، فماذا يحدث لو تصرف أحدهم بشكل خاطئ.

- غزو الفضاء: بعد غزو السوفييتي لوري جاجارين Louri Gagarine (١٩٣٤ - ١٩٦٨م) الفضاء الخارجي أول مرة في التاريخ، ودورانه حول الأرض في مركبته الفضائية العجيبة.،وأعقب ذلك نزول سفينة الفضاء الأمريكية على سطح القمر، أصبح القمر الذي كان ملهماً للشعراء: أرضاً جرداء لا حياة فيها، فضاع أكثر من نصف الشعر على رأي الكاتب.

ثم تحدث بعد ذلك عن مصطلح «الرواية الجديدة» وطلائعها، وعن ملامح الجدة لدى كافكا Franz Kafka (١٨٨٣ - ١٩٢٤م، وهو كاتب تشيكي الجنسية، وتحدث عن روايته «القصر»، وقال: إن رواياته تتسم بالغموض، وعد كتاباته ثورة في عالم الرواية، ووازن بينه وبين دوستويفيسكي.

بعد ذلك تناول الكاتب المدرسة الوجودية وزعيمها جان بول سارتر J. Paule Sartre، وتحدث عن روايته «الغثيان»، وذكر رأي سارتر في الرواية الحديثة.

تناول بعد ذلك المدرسة الروائية الأمريكية، وتحدث عن إبداعاتها الروائية، وأوضح أن الرواية الأمريكية ازدهرت بعد الحرب العالمية الأولى. وختم مقاله بسؤالين: هل الرواية القديمة مدرسة؟ وهل الرواية الحديثة مدرسة؟

الشخصية: الماهية - البناء - الإشكالية

يبدأ مقالته بالحديث عن الشخصية، فيشير إلى أنها معقدة التركيب، ثم تتبع كلمة شخص وأصلها في اللغة، ووازن بين استعمالنا - نحن العرب - مصطلح شخص ومقابله الغربي Personnage.

الرواية الأمريكية الجديدة بمهاجمتها للبنية الروائية التقليدية استطاعت أن تفجر الزمن والحيز معاً


كلود سيمون


ناتالي ساروت


دستويفيسكي

ناقش بعد ذلك الشخصية في الرواية التقليدية، وأوضح أنها كانت كل شيء فيها بحيث لا يمكن أن نتصور رواية من دون طغيان شخصية مثيرة يقحمها الراوي فيها، بينما نجد الروائيين الجدد لم يفتؤوا ينادون بالتضئيل من شأن الشخصية، والتقليص من دورها في النص الروائي، حتى وصل الأمر بأحدهم أن أطلق مجرد رقم كاسم لشخصية في روايته (كافكا في روايته المحاكمة).

تطرق بعد ذلك إلى مسألة الضمير وخصائص علاقته بالشخصية، ثم تناول بعد ذلك أنواع الشخصية «الشخصية المدورة، والشخصية المسطحة»، وأوضح أن أول من استخدم هذا المصطلح هو الروائي والناقد الإنجليزي فوستر E.M. Foster في كتابه Apsect of the novel، ثم تناول هنا المصطلح بالبحث والتحليل، وذكر كثيراً من الآراء.

وختم مقالته بالحديث عن علاقة الشخصية بالمشكلات السردية. وأوضح أن الشخصية هي التي تكون واسطة العقد بين جميع المشكلات الأخرى؛ لأنها هي التي تصنع اللغة، وتبث أو تستقبل الحوار، وهي أيضاً التي تصطنع المناجاة، وغير ذلك من الأدوار.

مستويات اللغة الروائية وأشكالها

كانت المسألة اللغوية هي الشغل الشاغل لكثير من الفلاسفة والمفكرين منذ عهد أرسطو حتى عهد ابن خلدون، وذلك لأهمية اللغة في كل مناحي الحياة.

تحدث الكاتب عن اللغة والفلسفة السيميائية، وأوضح أن الفلاسفة - منذ عهد سقراط - اهتموا بأمر اللغة مع أن ذلك يبدو بعيداً عن حقل تفكيرهم، وقد عرف سقراط اللغة بأنها مجموعة «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم».

تحدث بعد ذلك عن السيمائية، وكيف فتحت حول هذه المسألة آفاقاً لا حدود لها؟ فنشأ عن مفهوم اللغة نفسه مفهومان:

- الأول: هو مفهوم السمة الطبيعية، وهي اللغة التبليغية التي يكون بثها من دون قصد.

- والثاني: هو مفهوم السمة الاصطناعية التي تنصرف إلى كثير من المظاهر التعبيرية أو التبليغية التي منها اللغة اللفظية (أو الألفاظ) والرسوم والأشكال وغيرها.

تحدث المؤلف بعد ذلك بإسهاب عن لغة الكتابة الروائية ومستوياتها، وعن اللغة الإبداعية بين الوسيلة والغاية، وعن أشكال اللغة الروائية مفنداً أشكالها الثلاثة: لغة النسيج السردي، والحوارية، ولغة المناجاة.

الحيز الروائي وأشكاله

تبدأ هذه المقالة بالحديث عن مصطلح (الحيز) فأوضح أنه أطلق هذا المصطلح مقابلاً للمصطلحين الفرنسي والإنجليزي: Espace , Space وعرفه جريماس Graeimas بـ «الشيء المبني (المحتوي على عناصر متقطعة) انطلاقاً من الامتداد، المتصور، هو، على أنه بُعْدٌ كامل ممتلئ، من دون أن يكون حلٌ لاستمراريته، ويمكن أن يدرس هذا الشيء المبني من وجهة نظر هندسية خالصة».

فصل بعد ذلك مظاهر الحيز فأوضح أن للحيز مظهرين: الأول: هو المظهر الجغرافي، والثاني: هو المظهر الخلفي، ثم تحدث عن كل مظهر من هذه المظاهر على حدة.

ثم يسأل المؤلف: هل من مكانة للحيز في الدراسات الروائية العربية؟ ويقر أن هذا المصطلح - على أهميته وجماليته - لم يخصص أحد من نقاد الرواية العربية فصلاً مستقلاً للحديث عنه عدا حميداً الحمداني الذي كتب عن هذا المصطلح تحت عنوان «الفضاء الحكائي».

من الروائيين الغربيين الذين تعاملوا مع الحيز بدقة متناهية فلوبير Gaustave Flaubert, (١٨٨٠ - ١٨٢١) في روايته العجيبة «السيدة بورفاري» Madame Bovary.

لقد أبدع العرب منذ جاهليتهم في رسم الحيز ونجد ذلك عند شعراء المعلقات في الجاهلية، ثم جاء كتّاب المقامات «الهمذاني، والحريري»، وحكاة «ألف ليلة وليلة»، فأبدعوا في رسم الحيز، بل إن كُتاب الرواية العرب في القرن العشرين مثل نجيب محفوظ وآخرين لم يقصروا في رسم الحيز، ومع كل ذلك الإبداع، وكل هذه العناية التي وجدها الحيز من الكتاب والشعراء إلا أنه لم يحظ بها في الدراسات والتحليلات من قبل النقاد.

وفي الرواية الجديدة رفض الروائيون هذه الأصول التقنية، ورأوا أن الكاتب في تحديده معالم الحيز يكون غير صادق

رولان بارت: الرواية عمل قابل للتكيّف مع المجتمع



فرانز كافكا



ابن خلدون

مع نفسه ولا مع المتلقين، ففي عرفهم أن الحيز غير صحيح، ولا واقعي؛ ولا شرعي، لأنه يدعي الواقعية أو الأمانة الجغرافية من دون أن يستطيع كينونتها.

ثم تحدث الكاتب بعد ذلك عن أهمية الحيز في الأدب السردي، فأوضح أن الأدب من دون سرديات يكون أدباً ناقصاً في أي لغة من اللغات.

أشكال السرد ومستوياته

عرفت اللغة العربية طرائق كثيرة من طرائق السرد، وقد اقتصرت، في معظم أطوارها على اصطناع ضمير الغائب، وتتبع المؤلف طرائق السرد العربية منذ القدم، فقد استعمل العرب عبارة (زعموا)، وقد قيل: إن عبدالله بن المقفع هو أول من اصطنع هذه الطريقة، ونقله عند ترجمة كتاب «كليلة ودمنة» من الأدب الهندي، وقد حاول الشعوبيون نفي نسبة هذا الإنجاز إلى العرب؛ لأن ابن المقفع ترجمه من لغة أجنبية، ولكن هذا القول مردود بحجة أن المترجم إنما يترجم بما يتلاءم مع روح اللغة المترجم إليها، وإلا كانت ترجمته فجة فطيرة، وهي سيرة من السوء لا تصادفنا في ترجمة ابن المقفع.

ثم عرض الكاتب لمصطلح السرد في فن المقامات، وهو يرى أن تلك التجربة السردية ظلت - فيما يبدو - محدودة التأثير كالمنعدمة؛ وذلك لعدة أسباب، منها: أنها عالجت أحداثاً رمزية أجرتها على ألسنة حيوانات تتحدث، وكأنها تعقل، وتتصارع من أجل البقاء، وقد صعب على مجتمع شعري منبثق من حضارة البادية القحة أن يتقبل مثل هذا السرد ويتذوقه. ثم إنها نتيجة لذلك لم تعالج قضايا تتصل بالحياة الاجتماعية، فزهد فيها الناس.

ثم تحدث بعد ذلك عن أشكال السرد الروائي، وعن تعدد استعمال الضمائر في السرد (ضمير الغائب، وضمير المتكلم، وضمير المخاطب).

علاقة السرد بالزمن

بدأ المقالة السابعة متحدثاً عن المفهوم العام للزمن، وأوضح اختلاف المعجميين العرب في تحديدهم مدى الزمن، ثم تعرض لآراء الكثيرين في معنى الزمن.

ثم بسط الكلام على أنواع الزمن فقال: إن أولها الزمن المتواصل، وأوضح أن الزمن المتصل غير الزمن المتواصل، ثم الزمن المتعاقب، وهو زمن دائري لا طولي، وهو زمن - في رأي المؤلف - لا يتقدم ولا يتأخر، وإنما يدور حول نفسه في مساره المتشابه المختلف في الوقت ذاته، على وجه الدهر، ثم الزمن المنقطع أو المتشظي، ومثل هذا الزمن لا يكرر نفسه إلا نادراً جداً، ثم الزمن الغائب، وهو المتصل بأطوار الناس حين ينامون، وحين يقعون في غيبوبة، وقبل تكون الوعي بالزمن. وأخيراً، الزمن الذاتي، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الزمن النفسي.

بعد ذلك تحدث الكاتب عن الشبكة الزمنية في السرد الروائي وعلاقة الزمن بالحديث، وزمن المخاض الإبداعي، والتداخل بين الأزمنة في السرد، ومكانة الزمن في السرد الروائي، والزمن بين السارد والمسرود.

شبكة العلاقات السردية

تحدث في البداية عن العلاقة بين السارد والمؤلف والقارئ، فأوضح أن العلاقة بين هؤلاء الثلاثة علاقة متداخلة ومترابطة وعميقة، ثم تطرق إلى مكانة السارد في العمل السردي.

فالعلاقة بين القارئ والمؤلف في الرواية التقليدية أن المؤلف يعد الرواية ثم يتلقاها القارئ عملاً كاملاً محبوكاً، فدوره استهلاكي محض.

أما في الرواية غير التقليدية فإن النص يقدم إليه غير كامل، وغير جاهز، وغير محبوك، وينتظر من القارئ أن يبذل فيه جهداً يكمل به بناءه، فدور القارئ هنا كأنه بنائي لا استهلاكي.

بعد ذلك تحدث عن تقنين شبكة السرد، والعمل السردي، وذكر تعريف جيرار جينات للعمل السردي بأنه «عرض لحدث، أو سلسلة من الأحداث، واقعية أو خيالية بواسطة اللغة؛ وبخاصة اللغة المكتوبة» ويعترض الكاتب على هذا التعريف، ويعده غير جامع مانع، ويذكر الأسباب التي دعته إلى إطلاق هذا الحكم، ثم يذكر كثيراً من الآراء والحجج في موضوع السرد.

حدود التداخل بين الوصف والسرد في الرواية

بدأ المؤلف بالحديث عن مفهوم الوصف لدى العرب، وساق معنى كلمة الوصف من المعاجم، وعاب المؤلف على البلاغيين العرب عدم تمييزهم «بين الوصف من حيث هو مكمل لمتبوعه، ومن حيث ما يرد عبر الكلام، في جملة من أجل النهوض بوظيفة دلالية معينة؛ ومن حيث هو مظهر أسلوبي يتسلط على حالة ما أو موضوع ما، للنهوض بوظيفة الوصف ضمن جمالية الخطاب، وأسلوبية اللغة».

ثم عرج على مفهوم الوصف لدى الغربيين، وحدود العلاقة بين الوصف والسرد، وأوضح أن الوصف يناقض السرد، ثم تحدث عن التداخل بين الوصف والسرد في الرواية، وخلص في النهاية إلى أن السرد في كل الأطوار المألوفة لا يستطيع أن يستغني عن الوصف، فالسرد يتوقف على الوصف، بينما لا يتوقف الوصف على السرد.

جوانب من الواقع التربوي المعاصر في ضوء العقيدة الإسلامية

منى بنت عبدالله حسن بن داود   مراجعة: محمد حيان الحافظ

يتضمن هذا الكتاب تشخيصاً لسلبيات الواقع التربوي المعاصر من منظور إسلامي بغية التأصيل للقضايا التربوية، وفق منهجية تحليلية منضبطة بضوابط الشريعة الإسلامية. كما يتضمن أيضاً محاولة لتقديم الأبدال والمقترحات لتحقيق واقع تربوي أفضل.

في المقدمة، تشرح المؤلفة التصور الإسلامي لمفهوم التربية؛ فالعقيدة هي قوام التربية في الإسلام، وتلتقيان في الإطار التصوري العام للحقائق الرئيسة في الحياة، وفي محور التفاعل وهو الإنسان، وفي الهدف الرئيس للتربية الإسلامية المتمثل في تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى في جميع شؤون الحياة. وقد أدى انفصام الصلة بين التربية والعقيدة في الأقطار الإسلامية إلى فقدان المناعة الحضارية، ونشوء أجيال مذبذبة العقيدة والتصورات، متعددة الولاءات، ضعيفة الإيمان.

الهدف والمحتوى

في الفصل الأول «جوانب من المنهاج التربوي المعاصر» تتناول المؤلفة مسألتين هما: تحديد الهدف التربوي، ومحتوى التعليم.

تذكر المؤلفة في المسألة الأولى أن الأهداف التربوية المعلنة في العالم الإسلامي والعربي خاصة، يشوبها غبش في الرؤية الشرعية والاعتقادية مما يتعثر معه تحديد الأسس التي يقوم عليها النظام التربوي. ويرجع ذلك إلى وجود خلل في التصورات والمفاهيم التربوية العقدية، وإلى تبني الأهداف التربوية الخاصة بالغرب من دون مراعاة عرضها على الشريعة وتبين مدى شرعيتها.

يضاف إلى ذلك سوء القنوات التعليمية التي يتم من خلالها تحقيق الأهداف. وتناولت المؤلفة بالنقد بعض الأهداف التربوية المعلنة في البلاد العربية من الجهات الرسمية المختصة بالتعليم. ومن ذلك مثلاً، مفهوم المواطن الصالح، بينما الإسلام يسعى إلى إعداد الإنسان الصالح المصلح؛ لأن رسالته إنسانية، وليست قطرية أو قومية.

ومفهوم العروبة والقومية هو مفهوم ذو مضامين مادية وعلمانية وعنصرية، ويتعارض مع الإسلام الذي هو دعوة عالمية، وحضارة ساهم فيها العرب وغير العرب كالأتراك والروم والقوط والبربر. ومفهوم طلب العلم لذات العلم هو مفهوم غربي يجرد العلم من الأخلاق والإيمان، مما أدى إلى امتهان كرامة الإنسان في الغرب على ما تحقق من منجزات مادية باهرة، بينما العلم في الإسلام عبادة يتقرب بها إلى الله عز وجل.

وترى المؤلفة وجوب أن يراعى في تحديد الأهداف التربوية أن تكون متفقة مع العقيدة الإسلامية، وأن تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وبين الثبات (في الغايات والأهداف) والمرونة (في الأساليب والوسائل)، وأن تتصف بالدقة والوضوح والواقعية، وأن تصاغ من واقع الأمة بما يلبي احتياجاتها، وليست استجابة لضغوط خارجية، وأن تعتمد معيار العمل ضمن إطار الجهد الجماعي.

أما مسألة محتوى التعليم، فالملاحظ في المقررات الدراسية في العالم الإسلامي عموماً والوطن العربي خصوصاً أنها لا تزال تعاني من التبعية للنظريات والفلسفات التربوية الغربية، وتفتقر إلى الرؤية الإسلامية الخالصة، مما أدى إلى فقدان معطيات الإبداع والابتكار.



جوانب من الواقع التربوي في ضوء العقيدة الإسلامية
منى بنت عبدالله حسن بن داود
ط ١، ١٩٩٧م، ١٧٦ص.

الاقتباس والتراث

في الفصل الثاني «واقع الاقتباس وطبيعة التعامل مع التراث»، بحثت المؤلفة مسألتين: هما: الاقتباس في الفكر التربوي، والتعامل مع التراث. وبدأت بتعريف مفهوم الاقتباس بأنه ما نأخذه عن غير أمة الإسلام في مجال الفكر التربوي.

وأوضحت المؤلفة أن الاقتباس جائز في الإسلام على أن يكون منضبطاً بالضوابط الشرعية، وأن يكون في الأساليب والأدوات والتقنيات، وليس في المبادئ والمثل والعقيدة، ويجب أن يكون الاقتباس من موقع القوة

والعافية والتمثل لما نستوعبه وإضفاء شخصيتنا الحضارية عليه، بيد أن الاقتباس في الواقع المعاصر صادر عن ضعف ووهن، وذلك في ضوء تخلف المسلمين، مما جعلهم يقتبسون من الغرب بلا ضوابط إلى حد الافتتان به، والتفاخر بتقليده، والتمتع بمنتجات الحضارة الغربية، دون التغلغل في معرفة جوهر قوتها ومحاولة حيازته. ونشأ تبعًا لذلك، الاستيراد لما عند الغرب من نظم تربوية ومناهج وأفكار ونظريات. كما أن الاختلاط بين الجنسين شائع في معظم المؤسسات التعليمية في دول العالم الإسلامي، وأدخلت التقاليد الغربية المنافية للإسلام في صلب نظامها الجامعي، مثل المعاهد العليا للرقص والتمثيل والنحت والموسيقى.

كذلك شاع اقتباس المصطلحات والمسميات الأجنبية من دون وعي، ومن ذلك مثلاً: الديمقراطية، واليسار، واليمين، والثيوقراطية، والبيروقراطية، ورجال الدين، والرأسمالية. وفي مجال التعليم، اقتبست مسميات للشهادات والدرجات والألقاب العلمية مثل: بكالوريوس، وليسانس، وماجستير، ودكتوراه. وغني عن البيان أن هذا التوجه يمثل خطرًا شديدًا على أصالتنا وهويتنا الحضارية الإسلامية المتميزة.. لأن هذه المصطلحات ليست محايدة كمصطلحات العلوم الطبيعية، وإنما هي ذات مدلولات ومضامين حضارية قد لا تناسب حضارتنا الإسلامية. كما أن هذه المسميات والألقاب الأجنبية تظل قاصرة عن التمييز بين أصحاب التخصصات المختلفة، فلقب دكتور (أي الحاصل على الدكتوراه) يطلق على المهندس والصيدلي والطبيب والجيولوجي. أما لغتنا العربية فهي غنية بالألفاظ التي تميز بدقة بين هذه التخصصات فهناك مثلاً: الفقيه، والمحدث، والمفسر، والمعيد، والأديب، والنحوي، والجغرافي، والفلكي.

ثم انتقلت المؤلفة إلى المسألة الثانية وهي التعامل مع التراث مبتدئة بتعريف مفهوم التراث، وقسمت التراث إلى: التراث الرباني ويقصد به الوحي، والتراث البشري، ويقصد به المنجزات البشرية الحضارية والثقافية. ووفقًا للمؤلفة، فإن المخطوطات الموجودة في المكتبة العربية تعدّ أوعية التراث الإسلامي، وأن بعض الذين تصدوا لتبسيطها وتحقيقها يفتقرون إلى الضوابط العقدية والشرعية في مجال التعامل مع التراث، خصوصاً في مجال التأليف، مما أدى إلى انحراف بارز في تفسير التراث وشرحه، وعدم التحرز من إطلاق المصطلحات الغربية عليه، مع غموضها وصبغتها العلمانية. فمن ذلك مثلاً وصف القرآن بأنه (وحي علماني) في حقيقته، وأن الدينية صفة طارئة عليه من صنع التاريخ. وأما التاريخ الإسلامي، فإنه تعرض لكثير من التشويه، وذلك لتحقيق أغراض سياسية أو شخصية أو مذهبية، ولا سيما النشاط الاستشراقي. فمن ذلك، أبحاث تقرر أن الفتوحات الإسلامية التي انطلقت في بلاد فارس والروم لم تكن جهاداً في سبيل الله،

غابت الأمانة والدقة وشاعت الفوضى في نشر التراث وتحقيقه بسبب الاتجاه إلى تحقيق الربح السريع

وإنما كانت صراعًا قوميًا لكسب النفوذ بين القومية العربية، والقوميات الأخرى. وأبحاث تصور الحركات المنحرفة مثل القرامطة والراوندية ونحوها في صورة التقدميين المستنيرين، وفي المقابل تصور كبار علماء المسلمين وأئمتهم بالرجعية والجمود، مشوهة مواقفهم التاريخية لتوافق ما ادعته من مزاعم وأباطيل.

ومن مظاهر سوء التعامل مع التراث الإسلامي، وجود فوضى كبيرة في تحقيق التراث ونشره، حيث نرى غياب الدقة والأمانة في التحقيق، والتسابق في الإخراج والتوزيع، من دون النظر إلى المضمون ومنهاج العرض، وكل هذا بهدف تحقيق الربح السريع. ولمعالجة هذا الوضع تقترح المؤلفة تنسيق الجهود بين الجهات المعنية بتحقيق التراث ونشره، وضرورة وضع ضوابط إسلامية للكتابة والنشر، وتحديد أهداف واضحة لعملية نشر التراث تنسجم مع عقيدة الأمة وقيمها.

ازدواجية وضعف

وعنوان الفصل الثالث: أزمات تربوية معاصرة، وقد ركزت المؤلفة فيه على أزمتين هما:

ـ ازدواجية نظام التعليم، وضعف مستوى طلبة كليات العلوم الشرعية.

بالنسبة إلى ازدواجية نظام التعليم، ذكرت المؤلفة الفصل بين التعليم الديني والتعليم المدني. وأن ذلك يعود إلى حقبة الاحتلال الأجنبي للبلدان الإسلامية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وقد قام هذا الفصل على النظرية العلمانية الغربية التي تقسم العلوم قسمين: علوم دنيوية ومصادرها وسائل المعرفة الإنسانية فقط، وعلوم لاهونية ومصادرها تنحصر في مصادر المعرفة الدينية. وقد أدى هذا الفصل المتعمد إلى نتائج خطيرة في المجتمعات الإسلامية تتمثل في:

ـ الفصل بين العلم والدين، وذلك بزعم أن الغرب تقدم بفعل هذا الفصل. وهذا خطأ كبير، لأن التقدم العلمي والتقاني الذي أحرزه الغرب في شتى المجالات قد انحرف من العمار إلى الدمار، حيث تضخم الإنفاق العسكري، والإنفاق على برامج الفضاء والجاسوسية، بينما يعيش ثلاثة أرباع سكان الأرض دون حد الكفاف. وقد أدّى تقليد المسلمين للغرب في علمانيته إلى نشوء تنمية مشوهة في البلدان الإسلامية، ودلائل ذلك كثيرة، منها ارتفاع معدلات الأمية والفقر والمرض وتضخم المديونيات.

ـ إيجاد طبقة رجال الدين في المجتمعات الإسلامية. ولفظ: رجال الدين، إنما هو اصطلاح أوربي لا يصلح في مجتمع إسلامي، إذ إن هذا الاصطلاح قائم على عزل الدين عن الحياة، وقصره على أيام الآحاد وعلى القساوسة، والرهبان، والراهبات دون سواهم. في حين أن طبيعة المجتمع الإسلامي واحدة لا تحتمل الانفصام، وإلا أصابها الوهن والضعف والتفكك، من ثم لا موضع لمفهوم رجال الدين بالمفهوم الكنسي.

ـ الصراع الفكري بين أجيال الأمة. حيث تمخضت ازدواجية التعليم عن ظهور جيلين من الخريجين، أحدهما: ينتمي إلى تعليم الديني، وهو ذو ثقافة دينية، وضعيف في

المعارف والعلوم الدنيوية. أما الآخر فهو ذو ثقافة دنيوية مبتورة الصلة بالعلوم الدينية التي لم يتلق منها إلا النزر اليسير طوال سنوات تعليمه. ونجم عن ذلك أجيال لا صلة لها بدينها ولا ولائها، تتساوى عندها الأضداد من إيمان وإلحاد، وتبرج واحتشام، واستقامة وخلاعة. وتبادل الفريقان الاتهامات، والمحصلة النهائية مزيد من ترسخ التخلف والتبعية والجهل بحقيقة الدين الإسلامي الحنيف.

ـ النظرة الخاطئة إلى العلوم الشرعية. حيث إن الاهتمام بالتعليم المدني كان يفوق الاهتمام بالنظام التعليمي الديني، سواء في عمارة المؤسسات، أو توفير الخدمات والكفاءات العلمية، أو غيرها من متطلبات التعليم، كما أن فرص خريج التعليم المدني في التوظف، وارتفاع مستوى الدخل، والمكانة الاجتماعية، تفوق فرص خريج المؤسسات التعليمية الدينية، وقد أدى هذا الوضع إلى تدني نظرة الأهلين إلى التعليم الديني، والعزوف عن إلحاق أبنائهم به، فخلت المعاهد والكليات الشرعية من ذوي الكفاءات والنوابغ، وأصبح معظم روادها من الفئة المتوسطة والضعيفة ممن لا يرجى منها أي إبداع أو تفوق. وللتغلب على هذه الازدواجية، تقترح المؤلفة بعض الحلول منها:

ـ صياغة الأهداف التربوية والمقررات الدراسية صياغة إسلامية قويمة.

ـ إعداد العلماء المسلمين وتأهيلهم في شتى التخصصات ممن يجمعون بين الكفاءة العلمية والتوجه الإسلامي السليم معاً.

ـ تكثيف الجهود الجماعية باتجاه توفير المناخ الملائم لإيجاد نظام تعليمي إسلامي صحيح متكامل.

ثم انتقلت المؤلفة إلى بحث أسباب ضعف طلبة كلية العلوم الشرعية، وتتلخص بالآتي:

ـ معايير القبول في الكليات الشرعية لا تشترط الذكاء والتفوق، بل إنها في بعضها لم تشترط المعدل العالي سوى في مادتي الدين واللغة.

ـ افتقاد المقاصد السليمة في الالتحاق بالكليات الشرعية، إذ قد تلتحق بها فئات أوصدت في وجوهها أبواب الكليات الأخرى لتدنّي مجموع درجاتها، أو فئات هاربة من الخدمة العسكرية، وهو ما يعني في المحصلة النهائية الالتحاق من دون نية صادقة، وفي هذا محق لبركة هذا العلم الشرعي وتفويت فرصة الانتفاع به.

ـ ضعف مستوى أعضاء هيئات التدريس الذين أصبحوا يرون التعليم مجرد مهنة، مما أدى إلى تفريغه من أبعاده الإيمانية التربوية.



التخطيط ضرورة لتهيئة المدرس للقيام بدوره في اعداد الطالب وفق منظور تربوي فعّال

صور من السلوكيات

عنوان الفصل الرابع: «صور من سلوكيات الأمة» ويتضمن مبحثين:

الأول: انفصال السلوك عن العقيدة وأبرز مظاهره في واقعنا المعاصر هي:

ـ تحول عقيدة التوحيد إلى مجرد النطق بالشهادتين من دون العمل بمقتضاهما.

ـ شيوع ظاهرة التطفيف بمفهومه الشامل في حياة الناس، حيث يستوفي الإنسان لنفسه وينقص لغيره في معاملاته.

ـ سيادة الروابط غير العقدية، حيث أصبح المسلمون في هذا العصر يقيمون أواصر تجمعهم على عوارض دنيوية زائلة كالعرق والجنس واللغة، والاتجاه الفكري و(الأيديولوجية) والطائفة، والنسب، وحلت هذه الروابط والولاءات محل رابطة العقيدة والانتماء إلى الأمة المسلمة. وهذا يفسر حال الأمة الإسلامية اليوم بما فيها من صراعات عرقية، وحروب أهلية وإقليمية، ومن فرقة وتشتت.

ووفقًا للمؤلفة، فإن هناك عدة عوامل أدت إلى انفصال السلوك عن العقيدة، منها: سوء إدراك الناس لمفهوم العبادة، ومفهوم العلاقة بين الدنيا والآخرة، وضعف القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الثاني: ضعف الوعي بأهمية الزمن، وهنا عرضت المؤلفة لأهمية الزمن العقدية والحضارية إما لوقت نعمة من الله تعالى كالصحة، ويجب أن يقضيه الإنسان في طاعة ربه والتقرب إليه بصالح الأعمال، لأنه محاسب عليه يوم القيامة. والوعي بالزمن يعني الوعي بالحياة والقيام بشروطها المحققة لمعطيات الاستخلاف وحمل الأمانة. وكان من السلف الصالح من هو أشد حرصاً على وقته من حرصنا على دراهمنا ودنانيرنا.

ومن أسباب ضعف الوعي بأهمية الوقت، افتقاد الهدف من الحياة، وطول الأمل والغفلة عن الموت باتباع الهوى، ولو على سبيل تضييع الأوقات، وافتقاد التخطيط المتقن في الانتفاع بالوقت وترتيب الأولويات.

وفي الختام، تؤكد المؤلفة أن الوقت ضرورة إيمانية وحضارية في حياة المسلمين، وتوصي بتربية الأجيال على ذلك، وربطهم به عن طريق الاتصال المتين بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وما بها من نماذج مضيئة يقتدى بها في الانتفاع بالوقت، والاستفادة من مواقيت الصلاة في تنظيم وقت المسلم، والحرص على التخطيط المنظم، والتنظيم المتقن والذي يفضي إلى جني الثمار الطيبة، توجه المسلم إلى حسن الاستعداد لليوم الآخر.

أصول العلاقات الدولية

عثمان جمعة ضميرية

مراجعة: عبدالله محمد سعيد

«أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني: دراسة فقهية مقارنة» كتاب صدر حديثًا، وهو في أصله بحث حصل به المؤلف على درجة العالمية (الدكتوراه) من كلية الشريعة والقانون في جامعة الأزهر بالقاهرة، ويقع الكتاب في مجلدين اثنين تقارب صفحاتهما ألفًا وخمسمئة صفحة، وقد صدر الكتاب في طبعته الأولى في عام (١٤١٩هـ) عن دار المعالي بالأردن، بطبعة خاصة لدار التسويق والتوزيع الدولية في الدمام بالمملكة العربية السعودية، ويعالج الكتاب موضوعًا يهم المثقفين ودارسي الشريعة والحقوق والمهتمين بالعلاقات الدولية والقانون الدولي. وقد قسم الباحث بحثه إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، تناول في المقدمة أهمية البحث وأسباب اختياره، وخطة الموضوع والمنهج الذي سلكه، وطريقة استخدامه للمراجع والمصادر.

وفي الباب الذي جعله بابًا تمهيديًا عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني (ت:١٨٩هـ) وفقهه، عرض المؤلف للعصر الذي عاش فيه، ودرس جوانب الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والفكرية بمالها من تأثير في حياته، وفي العلاقات الدولية في ذلك العصر.

ثم عقد فصلا لحياة الإمام محمد بن الحسن وسيرته، تناول فيه ما يتعلق بحياته وسيرته وشيوخه وتلاميذه وصفاته وثناء العلماء عليه، ويلي ذلك فصل ثالث لمكانته الفقهية، وأثره في تدوين الفقه الحنفي، وأثره في الفقه الإسلامي بعامة، وفي القانون الدولي بخاصة، وهو الفرع الذي أولاه الإمام محمد عنايته، فكان أول فقيه كتب في العلاقات الدولية التي تسمى في الفقه الإسلامي «علم السِّير»، وهو بذلك سابق لجميع علماء القانون الدولي في العالم كله، وليس بين المسلمين فحسب، وكتابه «السِّير الكبير» دليل على ذلك، وشاهد صادق على أنه مؤسس هذا العلم.

أما الباب الأول فهو عن «أثر الإمام محمد بن الحسن في العلاقات الدولية وقت السلم»، وجعله المؤلف في أربعة فصول، تناول في الفصل الأول منه: مفهوم القانون الدولي والعلاقات الدولية وتطورها التاريخي عند المسلمين وغير المسلمين، وبيّن فيه خصائص القانون الدولي الإسلامي وجهود علماء المسلمين في ذلك؛ وهي جهود رائدة سبّاقة. وفي الفصل الثاني دراسة للعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الإسلامية (دار الإسلام)، واقتضى هذا أن يعقد مباحث ثلاثة يبين فيها معنى دار الإسلام، ودار الحرب، وأصل العلاقة بينهما، ثم طبيعة هذه العلاقة وملامحها من خلال العلاقة بأهل الذمة والمستأمنين، وحقوق كل منهم وواجباته.

وجاء الفصل الثالث لدراسة أهم أدوات التعامل الدولي المعاصر، وهي المعاهدات الدولية، من حيث تعريفها ومشروعيتها وانعقادها وآثارها وانتهائها، وقدم في هذا البحث أفكارًا مهمة جديدة، وأبان عظمة الفقه الإسلامي في ذلك. وأما الفصل الرابع فقد عقده لبيان العلاقات الدبلوماسية أو السفارة والسفراء، فدرس تطورها التاريخي ومشروعيتها في الإسلام، والتطبيق العملي لها، ثم عرض لوظائف السفراء وامتيازاتهم، وختم الفصل بمبحث عن انتهاء السفارة والامتيازات، موضحًا في ذلك كله المبادئ الرائدة التي جاء بها الإمام محمد وفقهاء الإسلام قبل أن تتفطن



أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني - دراسة فقهية

د. عثمان جمعة ضميرية

عمّان: دار المعالي، جزءان، ١٤١٩هـ، ١٥٠٠ص.

لها الاتفاقيات المعاصرة بهذا الشأن.

وأما الباب الثاني عن «أثر الإمام محمد في العلاقات الدولية» فقد جاء في أربعة فصول، خصص الفصل الأول للجهاد ومشروعيته وغايته، فأبان هذا المصطلح الإسلامي، وأزال الشبهات عن بعض الأفهام المتعلقة به، وأفصح عن معنى الجهاد ومراحله وأسباب إعلانه، وأهميته في الدعوة وفي الحياة الإسلامية، بما يتفق مع طبيعة الموضوع ومجاله، وفي الفصل الثاني دراسة «لقواعد السياسة الحربية» حيث أبان تنظيم السياسة الحربية العامة وقواعدها وأهم نظرياتها مع بيان القواعد التي تحكم إدارة

المعركة وما يسبق ذلك من دعوة وإنذار.

وفي الفصل الثالث عن «القواعد العليا في قانون القتال» وهي التي تسمى اليوم بقواعد القانون الدولي الإنساني، فبحث في تحديد المقاتلين وغير المقاتلين، ومدى مشروعية وسائل العنف والإغاظة، وتحريم المثلة والتحريق، ومدى مشروعية الخداع الحربي، وحكم الجواسيس، وبيان القواعد العامة في ذلك، وما يرد عليها من استثناءات.

أما الفصل الأخير في هذا الباب فهو عن «آثار الحرب» فقد عقد خمسة مباحث مهمة لأثر الحرب في تملك أموال الحربيين المنقولة وغير المنقولة، وأثرها في أشخاص الحربيين، وفي أشخاص المسلمين وأموالهم. وجاءت الخاتمة لبيان أهم ما توصل إليه الباحث من نتائج وتوصيات بإيجاز لكثير من المبادئ التي سبق إليها الإمام محمد بن الحسن، فاستحق بذلك المكانة التي تبوأها، إذ عده العلماء المعاصرون وغيرهم مؤسساً للقانون الدولي في العالم كله.

وإن موضوع البحث من الموضوعات العلمية المتميزة فقهاً وعلماً وبحثاً وموضوعاً وخصوصاً في عصرنا هذا الذي كثرت فيه المنظمات الدولية، وتنوعت العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب، كالمعاهدات والسفارات في حال السلم، وكذلك في حال الحرب، ونحن بحاجة إلى معرفة القواعد التي تضبط علاقة المسلمين بغيرهم في كل هذه الأحوال؛ ولذلك فإن الكتابة عن هذا الموضوع تعد من الأوليات التي يجب علينا أن نهتم بها، وأن تكون في عميق اهتمامنا، لنأخذ منها الدرس والقدوة في عصر النظام العالمي الجديد الذي يحاول دعاته الالتفاف على المسلمين بكل وسيلة وطريقة. وإن موضوع هذا البحث من الموضوعات العلمية المتميزة فقهاً وعلماً وبحثاً وموضوعاً، إذ الفترة التي عاش فيها الإمام محمد بن الحسن الشيباني تعد من الفترات المهمة في حياة الأمة الإسلامية لما اتسمت به من نهضة علمية ورقي في شتى المجالات، وعلى الأخص المجالات الثقافية التي نحن في أمس الحاجة إلى أن نقتدي فيها بالذين سبقونا في تلك الفترة. والإمام محمد بن الحسن الشيباني تلميذ شيخ الفقهاء، وإمام الفقه والعلم الإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، الذي وصفه الإمام الشافعي رضوان الله عليه فقال: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة، والإمام محمد بن الحسن الشيباني أحد أئمة المذهب الحنفي، وصاحب رأي متميز فيه.

ولذلك فإن الكتابة عن هذا الإمام الذي ذاع علمه، وانتشر فقهه في كل أرجاء الأرض، تعد من الأوليّات التي يجب علينا أن نهتم بها، وأن تكون في عميق اهتمامنا لنأخذ منها الدرس والقدوة.

إن موضوع العلاقات الدولية يعدّ من الموضوعات ذات الأهمية في حياتنا؛ وذلك لكي نتعرف مكانة المسلمين بين أمم العالم، ونتعرف كذلك المدى الذي وصل إليه علماؤنا في رسم موقع الأمة الإسلامية وتحديده بين سائر الأمم، وذلك على هدي مما شرع الله سبحانه، وفي إطار القواعد الإسلامية النبيلة التي لا يعرف الناس عنها الكثير.

أمة الإسلام علمت الدنيا أصول العلاقات الدولية وقواعد التعامل الدولي واحترام المواثيق والعهود

وهذه الرسالة بما تقدمه من أدلة وبراهين على تفوق المسلمين في علاقاتهم بغيرهم وقت الحرب والسلم من خلال فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني، إنما تعدّ نموذجاً من النماذج العلمية والبحثية ذات القيمة في حياتنا، بما تقدمه لنا من قواعد العلاقات الدولية، وكذلك المدى الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية في احترام المعاهدات الدولية والسفراء بما لهم من حرمة واحترام على الرغم من الخلاف مع قوم السفير وديانته.

وأما تشريعات الإسلام وقت الحرب، وكيفية معاملة الأسرى والضعفاء والنساء والأطفال... فحدث عن عظمة الإسلام وفقه المسلمين الذي علم الدنيا بأسرها كيف تكون المعاملة وقت الحرب؟

هذا عن الموضوع، وأما منهج البحث فكان منهجاً علمياً حيث سلك الباحث منهجاً وصفياً يستند إلى استقراء الجزئيات وتصنيفها وترتيبها. مع التوثق والتأكد من صحة نسبة الأقوال إلى أصحابها، وقد كان منهجه أيضاً يعتمد على الاستنباط الذي يستخدم القواعد الأصولية واللغوية، وينطلق من الجزئيات إلى الحقائق العامة.

وقد عاش الباحث مع مؤلفات الإمام محمد بن الحسن، وتتبع آراءه ومذهبه، وعرض في أثناء البحث لجميع مؤلفات الإمام الفقيه الحنفي، موازناً ذلك بفقه أئمة الإسلام، مع موازنة ذلك كله بما عليه العمل في القانون الوضعي المعاصر.

وكان الباحث موضوعياً وهو يعرض بحثه، إذ اعتمد على مؤلفات الإمام محمد بن الحسن، وكذلك سائر كتب المذهب الحنفي، وكتب المذاهب الأخرى، وهي مراجع كثيرة وافرة أحسن الباحث اختيارها، وقد قاربت الثمانمئة مرجع في علوم الشريعة واللغة والقانون مما يدل على الجهد الذي بذله المؤلف في هذا البحث.

وقد عرض الباحث للأدلة التي اعتمد عليها الإمام محمد بن الحسن، وهي أدلة متنوعة من السنة والسيرة النبوية وعمل الصحابة والقياس وغيرها من الأدلة، عرض لها بصورة دقيقة مع مناقشة ما يحتاج إلى مناقشة وترجيح ما يساعده النظر والدليل.

وقد جاء البحث في صورة علمية فقهية تستحق التقدير لما اشتمل عليه من فهم دقيق للموضوع، وعرض متميز للخطة والفكرة، مع سهولة هذا العرض ووضوح الغرض منه، مع التعمق العلمي المستمد من الأدلة الشرعية، والعرض المستفيض لفقه الأئمة الأربعة، ولاسيما فقه الإمام أبي حنيفة، وفقه تلميذه النجيب محمد بن الحسن، مع ما تميز به هذا الفقه من سهولة ويسر ودقة في التفريع والاستنباط. وقد كان للمقارنات الفقهية العلمية والقانونية الدولية التي وردت في البحث أثر كبير في إغناء البحث ووضوح فكرته.

ردًا على مصطفى خلاّف:

أريك جونستون وليس جونسون

فيسعدني القول إنني من قرّاء مجلة «الفيصل»، وأتابعها عدداً بعد آخر، وأسعد بمواضيعها وحسن صياغتها وورقها فالشيء من معدنه لا يستغرب، والذهب في جوهره لا يصدأ.

في العدد الأخير من مجلة الفيصل ذي الرقم ٢٧٢ ـ صفر ـ ١٤٢٠هـ مايو ١٩٩٩م، وتحت عنوان «إسرائيل ولعبة بنوك المياه في المنطقة العربية» بقلم الأستاذ مصطفى محمد خلاّف. قرأت العبارة التالية: «وتذكر إحدى الدراسات ـ على سبيل المثال ـ أن السحوبات الإسرائيلية قد بلغت نحو (٦٥٠) مليون م٣ من مياه نهر الأردن، و ١٠٠ مليون م٣ من مياه نهر اليرموك، بينما خصص لها مشروع جونسون الأمريكي عام ١٩٥٥م ـ وكان كريماً إلى أبعد حد ـ خصها بـ ٣٧٥ مليون م٣ من مياه نهر الأردن، و ٢٢ مليون م٣ من مياه نهر اليرموك».

كما لاحظت صورة للرئيس الأمريكي الأسبق ص١٩ ليندون جونسون.

وتوضيحاً للحقيقة، وبعيداً عن التباهي بالمعرفة، وتنويراً للقراء حتى لا يقع القارئ في خطأ أرجو أن أوضح الأمور التالية:

ـ إن صاحب المشروع المادي هو إريك جونستون، وليس جونسون أو ليندون جونسون.

إن هناك مشروعاً لتوطين اللاجئين الفلسطينيين عرف باسم مشروع جوزيف جونسون، وهو رئيس مؤسسة كارنجي للسلام العالمي (مؤسسة أمريكية) أسست عام ١٩٦١م، وقد تقدم بمشروعه بتاريخ ١٩٦٢/١٠/٢م... ونفذ قسم بسيط منه في مشروع روتنبرغ في الغور الشمالي في الأردن.

وليس هذا هو بحثنا (راجع مهدي عبدالهادي ـ المسألة الفلسطينية ومشاريع الحلول السياسية من ١٩٣٤ ـ ١٩٧٤م بيروت ١٩٧٥م).

إن مشروع ليندون جونسون الرئيس الأمريكي الذي خلف الرئيس جون كيندي بعد مقتله مباشرة قد تقدم بحل سياسي لم يوفق، وكان ذلك قبل حرب حزيران عام ١٩٦٧م، أعلنه في ١٩٦٧/٥/٢٣م، (لطفاً انظر المرجع السابق، وكتاب ليلى سليم القاضي، مشاريع التسويات السلمية للنزاع العربي الإسرائيلي ١٩٤٨ ـ ١٩٧١م، مجلة شؤون فلسطينية، العدد ٢٢ حزيران ٧٣، بيروت).

ـ والآن نعود إلى صاحب مشروع المياه، وهو أريك جونستون، وليس جونسون.

بتاريخ ١٩٥٣/١٠/١٦م قام الرئيس أدوايت آيزنهاور بتكليف المستشار أريك جونستون ممثله الشخصي بمهمة التفاوض مع دول المنطقة المختصة للموافقة على مشروع استثمار موحد للموارد المائية في حوض الأردن. وكانت الولايات المتحدة في الواقع ترمي من تدخلها هذا إلى تحقيق ثلاثة أهداف مهمة، كلها في خدمة إسرائيل، وهي:

ـ السعي لتصفية اللاجئين الفلسطينيين.

ـ السعي لمساعدة إسرائيل لتحقيق أكبر ما يمكن تحقيقه لها من مياه حوض الأردن بموافقة الدول العربية المجاورة.

ـ الهدف الأهم هو التمهيد لاعتراف الدول العربية بدولة إسرائيل عن طريق استغلال أي اتفاق يتم بين الدول العربية وإسرائيل حول استثمار هذه المياه.


ة بنوك المياه
ة العربية
مد خلاف
مع دول كثيرة في أوربا وأمريكا من أجل غزو
مقدرات المنطقة المائية، وذلك بتعديل القوانين
الخاصة بهذا الشأن.
لها مشروع جونسون الأمريكي عام ١٩٥٥م، وكان كريماً
إلى أبعد حد معها، ٣٧٥مليون م٣ من مياه نهر الأردن، و
٢٢مليون متر مكعب من مياه نهر اليرموك(١).
خسائر كبيرة عند الانسحاب
وتشير دراسة أخرى إلى أن الانسحاب الإسرائيلي من

صورة عن المقالة محل الرد

نفذ الأردن جزءاً من هذا المشروع، ومدت قناة الغور الشرقية، واستصلحت مساحات واسعة من الأراضي وبمساعدة مالية (٤ ملايين دينار) من النقطة الرابعة الأمريكية.

وقناة الغور الشرقية التي أصبحت تسمى حالياً قناة الملك عبدالله أصبحت شرياناً حيوياً لري هذه الأراضي المزروعة بالحمضيات والخضار. (لطفاً انظر الموسوعة الفلسطينية المجلد الأول ص ١٥٥ ـ ١٥٦، وكتاب المياه في فلسطين للدكتور جمعة رجب طنطيش ـ الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان ـ بنغازي ـ ليبيا ص ١٦٠ ـ ١٦١)

هذا ما رغبت توضيحه .. شاكراً لكم جهدكم المبذول في إصدار هذه المجلة متمنياً لكم وللعاملين فيها كافة التقدم والازدهار

المحامي ـ محمد تيسير حطاب

ص.ب: ٩٤ إربد. الأردن

ردًا على محمد فتحي السنوسي:

البدايات الأولى لصناعة الفخار لم تكن في مصر

نشرت مجلة الفيصل الغراء في العدد ذي الرقم (٢٧٠)، مقالة للأستاذ محمد فتحي السنوسي بعنوان «صناعة الفخار: لغة تشكيلية لها مفرداتها»، ص ٦ ـ ١٠.

وإذا كنت بداية أشكر الأستاذ كاتب المقالة على جهده المبذول، فإنني من منطلق الحقيقة العلمية، وما تفرضه على الباحث من نزاهة وموضوعية، والتزام أخلاقي وأدبي وجدت من الضروري أن أضيف هذا التعقيب إغناءً للموضوع، وتوضيحاً لبعض الحقائق.

فقد ذكر الأستاذ كاتب المقالة عن بدايات اختراع الفخار وصناعته مايلي: «وصناعة الفخار تعد من أقدم الصناعات التي عرفتها البشرية، ويكفي أن نشير إلى أن الشواهد والدلائل تشير إلى أن هذه الصناعة ـ بمعناها العلمي ـ ترجع إلى أكثر من سبعة آلاف سنة...».

ويتابع كاتب المقالة قائلاً: «فقد ذكر بتري أن صناعة الفخار ترجع إلى الأسرة الفرعونية الأولى في مصر (٥٥٠٠ ـ ٤٥٠٠ ق.م)، بينما ذكر ريستر أنها ترجع إلى الأسرة الفرعونية الخامسة».

فإذا كان كاتب المقالة يقصد بقوله صناعة الفخار في مصر دون غيرها، فإن حديثه يأخذ منحى آخر، ويصبح أكثر قبولاً، ولكن كان عليه أن يشير إلى ذلك في عنوان مقالته أولاً، ومن ثم في المتن ثانيًا. فبدلاً من أن يقول: «ذكر بتري أن صناعة الفخار ترجع إلى الأسرة كذا...»، كان عليه أن يحدد كلامه أكثر، ويشير إلى أن صناعة الفخار في مصر ترجع إلى كذا ...إلخ.

أما إذا كان كاتب المقالة يقصد أن تاريخ اختراع الفخار وصناعته على المستوى العالمي يعود إلى الفراعنة، وهو ما يفهم من


صناعة الفخار

لغة تشكيلية لها مفرداتها

محمد فتحي السنوسي

منذ نشأة الخليقة، والإنسان يبحث وينقب ويفكر ويتأمل ويتخيل
حوله من مظاهر الطبيعة المختلفة، ومن خلال بحثه المستمر في ظو
الكون المرئية والغيبية (الميتافيزيقية)، ومحاولته استطلاع المجهو
واستشراف المستقبل، ومع حلمه الدائم نحو المعرفة نشأت الحضا

صورة عن المقالة محل الرد

سياق مقالته، خصوصًا أن الكاتب أشار إلى أن بدايات اختراع الفخار وصناعته ترجع إلى سبعة آلاف سنة ـ بمعناها العلمي ـ حسب زعمه، ويقرن ذلك بقول العالم بتري بأن صناعة الفخار ترجع إلى الأسرة الفرعونية الأولى في مصر (٥٥٠٠ ـ ٤٥٠٠ ق.م)، ثم يدعم رأيه، وإن كان بلهجة فيها قليل من التراجع، بقول ريستر، حيث يشير إلى أن صناعة الفخار ترجع إلى الأسرة الفرعونية الخامسة، وهي ـ أي الأسرة الخامسة ـ بطبيعة الحال ترجع إلى عهد أحدث. هذا إلى جانب أنه لم يحدد السبعة آلاف سنة، هل هي قبل الميلاد كاملة، أم إنها تشمل ماقبل الميلاد وبعده؟ حيث التبس الأمر مما يدفع القارئ إلى الاعتقاد بأن السبعة آلاف سنة تحسب منذ لحظتنا المعاصرة، ومن ثم، يصبح تحديد صناعة الفخار واختراعه بـ «٥٠٠٠»ق.م، إذا أنقصنا من السبعة آلاف، ألفين بعد الميلاد، فيبقى الخمسة آلاف قبل الميلاد، وهذا التاريخ يلتقي تمامًا مع قول العالم بتري ... أقول إذا كان كاتب المقالة يقصد هذا، حيث دفع القارئ بطريقة ذكية ليصل إلى هذه النتيجة، فإن هذا الكلام على عواهنه، فيه كثير من التجني على الحقيقة أكثر من إنصافها.

فاختراع الفخار ـ حسب المكتشفات الأثرية التي تمت حتى الآن، في تل مريبط (يعود إلى أكثر من ١٠.٠٠٠ ق.م)، غرب مدينة الرقة في الشمال الشرقي من القطر العربي السوري. وقد تطورت صناعته، بالإضافة إلى تل مريبط، في تل أسود (٧٠٠٠ق.م) في مدينة الرقة أيضًا، وفي فلسطين، ثم في أوغاريت على الساحل السوري (٦٠٠٠ ق.م).

وعن بدايات اختراع الفخار في تل مريبط، يقول العالم الأثري جاك كوفان: «إنسان المريبط لم يطل الحيطان والأرضيات بالطين فحسب، بل طلى أيضاً جدران حفر الموقد المستديرة الذي كان الإنسان يطبخ فيه طعامه فوق طبقة من الحصى. كانت تلك الحفر المستديرة مطلية بطبقة من الطين منذ فترة السوية الثانية بالمريبط (كما تشهد على ذلك العظام المحروقة في أغلب الأحيان والمبعثرة حول حفرة الموقد).. انظر (Cauvin. J. 1972 "c", P 107). ونتيجة للاستخدام المتكرر لتلك الحفر في طبخ الطعام تحولت طبقة الطين إلى «فخار قاس». وفي فترة السوية الثالثة بالمريبط انتقل الطبخ العفوي للطين إلى طبخ مقصود لأول الأشياء المصنوعة من الطين، وذلك طبقًا للمبدأ السابق ذكره. ولكن مم تألفت الأشياء الفخارية الأولى؟

يجيب كوفان: كانت تتألف من الدمى التي تمثل الربة الأم، وكانت طينتها ناضجة ـ أي تعرضت لدرجة كافية من الحرارة ـ ومن

فناجين صغيرة، بعضها ناضج وبعضها الآخر قليل الإتقان، ومع هذا تعد الشواهد الأولى على صناعة فعلية للفخار في نحو ٨٠٠٠ ق.م، حيث عثرنا على معظم الآثار الفخارية في البيت رقم (٤٧) وقد أعطى تحليل الفحم ١٤ تاريخاً يقدر بنحو ٨٠٠٠ ق.م. غير أن تلك الفناجين الصغيرة الحجم نادرة في الوقت نفسه، حيث عثر في مربيط على خمسة منها، بحيث لا يمكن أن تكون أدت دوراً فعالاً في حياة المطبخ وقتئذ. وبناء على ذلك لا يبدو أن ابتكارها كان استجابة لحاجات التدبير المنزلي التي كان الإنسان قد وجد لها حلاً أو وجد لها حلاً فيما بعد، وكان ذلك في صيغ الأواني الفخارية. بعد هذا الحدث الصغير بعدة قرون يمر وقت طويل لم يصمد خلاله الطين المشوي إلا على هيئة دمى نسائية، وفي مطلع الألف السابع نواجه في السوية الثانية في تل أسود الشواهد الأولى على الطين المشوي.

لكن الأواني الفخارية الفعلية لم تصبح قيد الاستعمال إلا بعد النصف الثاني للألف السابع قبل الميلاد نفسه إذ غدت جزءاً من الأدوات المنزلية في مواقع معينة مثل تل أسود بالجزيرة (شمال شرق مدينة الرقة في سورية)، وهذا يعني منطقة الفرات مرة ثانية.

في هذا الوقت - النصف الثاني للألف السابع قبل الميلاد - يتابع «فن الحرق» مسيرته نحو الكمال في أكثر من مجال وفي وقت واحد. فالجص الذي استخدمه الإنسان مثل الطين في طلي الحيطان والأرضيات صار يستخدم في صنع الأواني المطبخية دون سابق إنذار في كل من سورية وفلسطين (Balfet,١٩٦٩).

ويعرض كوفان رأياً مخالفاً للاعتقاد السائد بأن اختراع الفخار جاء تلبية لدواعي الاستعمال المطبخي، حيث يؤكد أنه جاء تلبية لدواعي دينية وتزينية.. يقول كوفان: «رأينا أن الحجر المصقول والفخار لم يكونا منذ نشأتهما من الابتكارات المتأقلمة [أي لم يأتيا تلبية لحاجات أساسية] بل كانا يستجيبان لحاجات دينية أو تزينية أكثر منها استعمالية [سينطبق الأمر نفسه - حسب رأي كوفان - على الأشياء المعدنية الأولى]» حيث يؤكد كوفان أن الأدوات في العصر النحاسي كانت مخصصة للزينة، وفيما بعد أصبحت مخصصة للعمل.

كانت الاختراعات المذكورة أعلاه كافة مهمة فعلاً؛ لأنها كانت حصيلة سيطرة الإنسان على مادة جديدة، ونتيجة لتطويع مادة استعمالية بطريقة جديدة كلياً. وقد استعمل الإنسان المنتجات الأولى لتلك الابتكارات استعمالا حضارياً في مجالات أكثر رفعة من سد الحاجات البيولوجية (حياتية). وهذا يقودنا إلى القول (Malnfant, P 50) بأن الابتكارات كافة التي تمت على هذا المستوى مرت أولاً بلحظة (رمزية)، وبدت هذه اللحظة للإنسان أكثر ضرورة من الاستعمالات الثورية التي يتيحها الابتكار نفسه.

أما الفخار المكتشف في تل أسود (شمال شرق مدينة الرقة على نهر البليخ في الجزيرة السورية)، فإنه وجد في السوية الثامنة والسابعة اللتين تؤرخان بمنتصف الألف السابع قبل الميلاد.. يقول «كوفان»: لم ينفذ في تل أسود إلا سبر واحد مدرج وقد رقمت الدرجات من (١ - ٨) بدءاً من سطح التل. أرخت تحاليل الفحم ١٤ السوية الثامنة والرابعة بنحو (٦٥٠٠ق.م) والثانية بـ (٦٥٠٠ق.م) والسوية الرابعة بـ (٦٦٧٠ق.م)*. وهذا يعني أن متوسط تاريخ السويات الثماني جميعها هو النصف الثاني للألف السابع قبل الميلاد. واحتوت السوية السفلية الثامنة والسابعة على فخار لامع وناضج. أما السويات العليا السادسة وحتى الأولى فإنها مماثلة للسويات الخالية من الفخار في كل من «أبي هريرة» و«بقرص» (Cewvin, M-C 1972).

ويبدو أن التقدم الأساسي يكمن في مجال تطبيق فنون النار. فالكلس وصل إلى منطقة الفرات ليس من أجل فرش الأرضيات وطلي الحيطان، بل استخدم في صنع الأواني المطبخية، كما أنه مهد الطريق أمام تعميم الفخار. ففي تل أسود عثر المنقبون في السوية المؤرخة بنحو (٦٤٠٠ق.م) على أوان مطبخية فعلية ذات مظهر شفاف وبراق وكانت أشكالها قدوة للأواني التي شاعت في المنطقة السورية الكيليكية خلال الألف السادس قبل الميلاد (Caurin.J. 1974 "b", 1974 "a").

وفي النهاية لابد من الإشارة إلى أن طريقة تحضير مادة الجص البدائية، وهي مادة استعملت في طلي الجدران والأرضيات، واستعملت في صنع الأواني الفخارية ذات المظهر الشفاف والبراق، هذه الطريقة البدائية لا تزال تستعمل في منطقة الجزيرة السورية، ومنها محافظة الرقة، حيث يفرش تراب من نوع «الكثان» - وهو تراب كلسي لونه أبيض أملح، ويوجد منه الكثير في محافظة الرقة - على الأرض بسماكة معينة، ثم يغطى بطبقة من روث الدواب - غالباً من زبل الأغنام - ويحرق الروث ويبقى أياماً يعس، ونتيجة الحرارة العالية لاشتعال روث الدواب، يحرق التراب، ويفتت ناعماً، ويصبح مثل الأسمنت، بلون أبيض رمادي. وبعد قش طبقة الروث المحترقة (رمادها)، يجمع التراب ويصبح جصاً. وهذا الجص - كما سبقت الإشارة إليه - ما زال يستعمل في طلي الجدران والأرضيات في محافظة الرقة، حيث يتمتع بخصائص مناسبة تماماً للمناخ في الجزيرة السورية، إذ يعطي برودة صيفاً عبر عكسه لأشعة الشمس، من جهة، ويحمل ميزات الفخار، حيث يمنع انتقال الحرارة، من جهة ثانية.. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل ما أسماه الباحثون بـ «الكلس» الذي استعمل قديماً في طلي الجدران والأرضيات، وفي صناعة الفخار، ليس في حقيقته إلا جصاً خصوصاً أن الطريقة التي يحضر بها هي طريقة بدائية جداً؟ هذا السؤال يبقى معلقاً بانتظار توافر المعلومات التي تؤيده أو تنفيه.

أحمد إبراهيم اليوسف

حي الرافقة - شارع جميلة بوحيرد - منزل رقم ٧٩٣
الرقة - سورية

الهوامش والمراجع:

*هكذا وردت التواريخ في الأصل

- كوفان (جاك)، «الوحدة الحضارية في بلاد الشام»، تعريب: طوير (قاسم)، منشورات مطبعة - سورية - دمشق ١٩٨٤م، ط١

الملف الثقافي

أمسية شعرية ومعرض فني للأمير خالد الفيصل في الرباط

وفاة الشيخ مصطفى الزرقاء والتشكيلي فاتح المدرس

فاس تشهد المؤتمر الأول للشعر العربي

رسائل هنري مور في المزاد العلني

فرنسا تحتفي بمفكر عماني

عودة الكتاتيب في مصر

الصين تشجع تأليف الكتب المرجعية الإسلامية

أحدث الإصدارات والدوريات



خاتمة المطاف:
مجوهرات القازاق والقرغيز
والكاراكالباك
تنوع الزخارف والألوان



الأمير سلمان بن عبد العزيز

ساحة المئوية في قلب الرياض

بتوجيه من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض رئيس الهيئة العليا لتطوير مدينة الرياض، سيتم إطلاق اسم «المئوية» على إحدى الساحات الجديدة في منطقة وسط مدينة الرياض، لإقامة المهرجانات والمناسبات المختلفة، وذلك احتفاءً بالذكرى التي تعيشها المملكة هذا العام.

وقد حدّد معالي الدكتور عبد العزيز بن محمد بن عياف آل مقرن أمين مدينة الرياض موقع الساحة بأنها ستكون بين شارع الإمام محمد بن سعود جنوباً وشارع الإمام تركي بن عبدالله شمالاً، وتحدها أسواق المعيقلية شرقاً، وطريق الملك فهد غرباً، كما سيتم إدماج الحديقة التي تتوسط طريق الملك فهد ضمن مساحة هذه الساحة الجديدة.

وسوف يبدأ تنفيذ هذا المشروع ابتداءً من الشهر القادم، وذلك بهدم المباني والمحلات الواقعة غرب أسواق المعيقلية حتى يتم تجهيز الساحة خلال الأشهر المقبلة.



د. عبدالله نصيف

نصيف يفوز بجائزة العام التقديرية في خدمة الإسلام

منح مركز الدعوة الإسلامية بلوس أنجلوس جائزة العام التقديرية في خدمة الإسلام لهذا العام لمعالي نائب رئيس مجلس الشورى السعودي الدكتور عبدالله بن عمر نصيف، مناصفة مع الإمام وارث الدين محمد، إمام المسلمين السود في أمريكا.

وقد درج مركز الدعوة الإسلامية على إنتاج برامج عن الإسلام تبث دورياً من خلال عدد من محطات التلفزة الأمريكية، وقد شارك الدكتور نصيف في عدد من هذه البرامج، وتحدث إلى الشعب الأمريكي عن عدد من القضايا التي تهم الإسلام والمسلمين.

وقد قام باستلام الجائزة، نيابة عن الدكتور نصيف، معالي الدكتور مزمل صديقي رئيس الاتحاد الإسلامي في أمريكا الشمالية.

مشاركات متنوعة في مهرجان المدينة المنورة الثقافي الثاني

حفل مهرجان المدينة المنورة الثقافي الثاني بعدد من المشاركات المتنوعة، حيث قدمت الدكتورة خيرية إبراهيم السقاف عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود بالرياض ضمن فعالياته محاضرة بعنوان



الأمير خالد الفيصل

أمسية شعرية ومعرض فني لسمو الأمير خالد الفيصل في الرباط

شهدت العاصمة المغربية الرباط في يوم السبت ١٢من شهر ربيع الأول الماضي (٢٦ يونيو/ حزيران ١٩٩٩م) أمسية شعرية أحياها صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير في أثناء الزيارة التي قام بها إلى المغرب.

في بداية الأمسية رحب مقدم اللقاء الأستاذ حمد القاضي بالحضور، ومن ثم ألقى معالي الأستاذ محمد الأشعري وزير الشؤون الثقافية المغربي كلمة رحب فيها بسمو الأمير خالد الفيصل مشيداً باستجابته الكريمة لإقامة هذه الأمسية في بلده الثاني المغرب، وأشاد أيضاً بالتجربة الرائدة لسمو الأمير في ميدان الشعر والفن العربيين، وقال عنه: « إنه واحد من الفرسان الكبار في الشعر في المملكة العربية السعودية، وله الفضل في رد الاعتبار للشعر الشعبي وإعادة



من أعمال الأمير خالد الفيصل

غـرسـه في التـربة العـربيـة من جديد».

ثم تحدث بعد ذلك الدكتور عبد العزيز خوجة سفير المملكة العربية السعودية في المغرب فعرّف الحاضرين بشاعر الأمسية مشيراً إلى تمكن سمو الأمير من فن الشعر والرسم قائلاً: «نحن اليوم في ضيافة شاعر رقيق ورسام مبدع جمع مجد الكلمة وسحرها وبراعة الريشة وألوانها».

أما الدكتور عبدالله العثيمين الأمين العام لجائزة الملك فيصل العالمية فقد ألقى قصيدة شعرية، وتحدث عن بعض مميزات شعر سمو الأمير، موضحاً أن عدداً كبيراً من الفنانين تغنوا بقصائد من شعر سموه.

تحدث بعدها صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل فشكر لوزير الثقافة المغربي هذه الدعوة التي تعد فرصة طيبة لالتقاء الشعراء والأدباء ومتذوقي الشعر في المغرب، كما أشاد سموه بالعلاقات الوثيقة التي تربط بين ←

«صحافة المرأة في المملكة العربية السعودية» تعرضت من خلالها لنشأة الصحافة السعودية وتاريخها وتطورها عبر الحقب التاريخية قبل توحيد المملكة وبعده، كما قدمت الدكتورة دلال بنت مخلد الحربي محاضرة بعنوان «صور من الحياة الأسرية في تاريخ الملك عبدالعزيز - طيب الله ثراه».

ونظمت جمعية طيبة الخيرية النسائية حفل مهرجان الطفولة الذي اشتمل على عدد من المسابقات الثقافية والترفيهية والألعاب المتنوعة، كما نظمت الجمعية عدداً من الندوات الصحية والدينية بالتعاون مع مستشفى النساء والولادة والأطفال.

وقد شاركت أيضاً أمانة المدينة المنورة في معرض برنامج الحاسب الآلي، وقدمت عدة تطبيقات للحاسب الآلي في المسائل المالية والإدارية والفنية.

رصد ظواهر كونية بمدينة الملك عبدالعزيز

أعلن معهد بحوث الفلك والجيوفيزياء بمدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية عن حدوث ظواهر فلكية خلال الشهور القادمة من هذا العام، وقد حدد المعهد يوم ٢٨ يوليو/تموز ١٩٩٩م يوماً للخسوف الجزئي للقمر، ويوم ١١ أغسطس/آب ١٩٩٩م يوماً للكسوف الكلي للشمس يرى في بعض المناطق الآسيوية والأوربية.

كما حدد أيضاً الثالث والعشرين من سبتمبر/أيلول ١٩٩٩م بداية لفصل الخريف، والثاني والعشرين من ديسمبر/كانون الثاني من هذا العام يوماً لوصول الشمس إلى نقطة الانقلاب الشمسي.

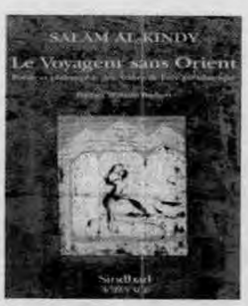
الأوساط الثقافية الفرنسية تحتفي بمفكر عماني



سلام كندي

عدت الأوساط الثقافية الفرنسية المفكر العماني سلام كندي الفاتح الجديد لآفاق فلسفية شعرية تميط اللثام عن حقبة حضارية مجهولة في تاريخ العرب، وهي حقبة العصر الجاهلي، بل صورت ما قدمه هذا المفكر للثقافة العربية والغربية من خدمات بأنه يعادل كل ما قدمته مؤسسات الثقافة العربية مجتمعة بل أكثر.

جاء سلام كندي إلى باريس من مسقط عام ١٩٨٢م، وتعلم الفرنسية، ودرس الأدب الفرنسي الكلاسيكي والمعاصر، ثم درس الفلسفة الأوربية المعاصرة، وكتب كتاباً بعنوان «الراحل على غير هدى: شعر وفلسفة العرب في العصر الجاهلي».



غلاف الكتاب

وفي مقابلة أجرتها معه مجلة المجلة في عددها رقم (١٠١٢)، الصادر بتاريخ ١٠يوليو/تموز ١٩٩٩م، انتقد سلام أغلب المستشرقين الذين كتبوا عن الشعر الجاهلي، وأوضح أنهم لم يذهبوا إلى الجزيرة العربية منشأ هذا الشعر، بل اعتمدوا في كتاباتهم على كتابات المؤرخين المسلمين التي كتبوها في وقت مبكر، وأوضح أنه «لا يمكن أن تدرس حقبة ثقافية غارقة في التاريخ قبل الإسلام من دون زيارة تلك الأماكن التي ولدت فيها هذه الثقافة»، كما انتقد أيضاً آراء الدكتور طه حسين عن الشعر الجاهلي التي وردت في كتابه «في الشعر الجاهلي»، وأوضح أن أطروحته مأخوذة حرفيًا من أطروحة المستشرق اليهودي البريطاني مارجليوث.

وقد حظيت أفكار هذا المفكر باهتمام كبير من كل الأدباء والمفكرين والفلاسفة، وقال عنه الفيلسوف الفرنسي ألان باديو: «لن أنسى انبهاري عندما انزاحت من أمامي برفقة سلام الكندي ستائر الضباب التي كانت تنسجها الترجمة، فاتتني المعلقات كاملة المضمون عفوية اللغة. العرب شكلوا ثقافتنا وأقامونا من عثرتنا وندين لقرائحهم بمسحة الحكمة. روائع المعلقات تضاهي الإلياذة والأوديسة»، وقال عنه الفيلسوف العلامة فرانسوا فال: «إن كتاب سلام الكندي يمثل إعلان افتتاح حركة فكرية تعمل على تأصيل الثقافة العربية»، أما الفيلسوف كريستيان جامبيه فقد قال عنه: «إن النسيب الذي يحلله الكندي بمهارة يكرر خبرة الفقدان، ويؤكد السبق الوجودي للعدم.. هذا هو الإرث العظيم الذي قدمته اللغة العربية في ظل الإسلام للثقافة الإنسانية، وهذه هي المهمة الأنطولوجية التي يجدر بالفلسفة الغربية أن تواجهها».

من غرائب المخطوطات

قيل: إن أغرب مخطوطة إسلامية هي مخطوطة تفسير «سواطع الإلهام» التي يملكها المجمع الثقافي بدولة الإمارات العربية تحت الرقم (١/٢١٣)، لمؤلفها العالم العلامة فيض الله بن المبارك الأكبر آبادي أبي الفيض الملقب بـ «فيض» الذي عاش ومات بمدينة أكبر آباد بالهند في الفترة من (١٥٤٧ - ١٥٩٥م).

وتأتي غرابة هذه المخطوطة في أن المؤلف فسر فيها القرآن الكريم بالحروف المهملة وهي الحروف غير المنقوطة، فالمعروف أن حروف اللغة العربية تنقسم قسمين: حروف مهملة، وهي الحروف التي لا يلحق بها نقطة وعددها ١٣ حرفًا، وحروف منقوطة وعددها ١٥ حرفًا.

المملكة العربية السعودية بقيادة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد - حفظه الله - والمملكة المغربية بقيادة الملك الحسن الثاني.

بعد ذلك بدأ صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بقراءة بعض أشعاره التي استقبلها الجمهور الكبير الذي حضر الأمسية بعاصفة من التصفيق، وقد قدم سموه نماذج من شعره الوطني والتأملي والوجداني.

عقب ذلك تمَّ افتتاح المعرض المصاحب للأمسية الذي افتتحه معالي وزير الشؤون الثقافية المغربي، وقد ضم هذا المعرض عددًا من اللوحات التي كشفت عن عبقرية سموه الفنية التي لا تقل عن عبقريته الشعرية، واستمتع الحضور بمشاهدة نحو ٢٧ لوحة تشكيلية من رسومات الأمير الفنان اتسمت بالانسجام بين مواضيعها وألوانها، وكان أغلبها مستوحاة من عيون الشعر العربي، ومن طبيعة وتراث الجزيرة العربية وبيئتها.

حضر الأمسية عدد كبير من أدباء المغرب ومسؤوليها، كما حضرها عدد من السفراء العرب، وأبناء الجالية السعودية بالمغرب، وعدد من المصطافين العرب الذين جاؤوا إلى الرباط لحضور هذه الأمسية.

كما حضر الأمسية أيضًا صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن محمد

بن سـعـود وكـيل إمـارة الباحـة، وصاحب السمو الملكي الأمير فهد بن فيصل بن محمد بن سعود، وأصحاب السمو الأمراء خالد بن سعود بن خالد ومحمد بن سعود بن خالد، وبندر بن سعود بن خالد، وأصحاب السمو الملكي الأمراء بندر بن خالد الفيصل، وسعود بن خالد الفيصل، وسلطان بن خالد الفيصل.


الملك الحسن الثاني

تحت رعاية الملك الحسن الثاني

فاس تشهد «المؤتمر الأول للشعر العربي»

تحت رعاية جلالة الملك الحسن الثاني ملك المملكة المغربية، وبإشراف جمعية فاس سايس، وبحضور مميز لشعراء وأدباء ونقاد من جميع أرجاء الوطن العربي، عقد مؤخراً في مدينة فاس المغربية «المؤتمر الأول للشعر العربي».

وقد ناقش هذا المؤتمر عدداً من قضايا الشعر العربي، ومن بين القضايا التي ناقشها قضية التواصل

وقد قدم هذا العالم الجليل تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم بكلمات لا يوجد بها في كلمة واحدة حرف منقوط، وهذا إنجاز لم يسبقه عليه أحد وهو في حد ذاته إعجاز للقرآن الكريم.

وقد جاء في أول المخطوطة: « الله لا إله إلا هو، ولا أعلمه ما هو، ولا أدركه كما هو. أحامد المحامد. لله مصعد لوامع العلم. وملهم سواطع الالهام. مرصص أساس الكلم. مصلح أسرار الصدر. ومطلع وساوس الأوهام. مطهر ألواح الأرواح. ومصور صور الأرحام. ومحول أحوال الدهور. ومدور أدوار الأعوام. اللهم صل وسلم رسولاً مودوداً. محمداً محموداً. إماماً لكل إمام. أرسله الله ممهداً لصوالح الأوامر والأحكام. مصلحاً للأمم، محدداً لحدود الحلال والحرام... إلخ».

إعلان جائزة الشارقة للإبداع العربي


الشيخ سلطان القاسمي

بتوجيهات من الشيخ سلطان بن محمد القاسم حاكم إمارة الشارقة، أعلنت دائرة الثقافة والإعلام بحكومة الشارقة عن قيام المسابقة الثالثة لجائزة الشارقة للإصدار الأول «الأعمال التي لم يسبق نشرها»، وتشمل الجائزة المجالات الآتية:

- القصة القصيرة «مجموعة».
- الشعر الفصيح «مجموعة».
- الرواية.
- المسرحية.
- أدب الأطفال، ويخصص هذه الدورة لمسرحية الطفل.
- النقد، ويخصص هذه الدورة لجماليات الشعر.

كما أن المشاركات في المسابقة مفتوحة للجنسين من دولة الإمارات وجميع الدول العربية، على ألاّ يتجاوز عمر المتسابق أربعين عاماً، وتعلن النتائج في شهر فبراير/شباط ٢٠٠٠م، وتوزع الجوائز في أبريل/ نيسان من العام نفسه، وتبلغ قيمة الجوائز خمسة آلاف دولار أمريكي للفائز الأول، وثلاثة آلاف دولار أمريكي للفائز الثاني، وألف دولار أمريكي للفائز الثالث، والمسابقة مفتوحة حتى ٣١ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٩م.

لمزيد من الاستفسارات يمكن الاتصال على العنوان التالي:
أمانة جائزة الشارقة للإبداع العربي
ص.ب: ٥١١٩ الشارقة - دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: ٥٤١١١٦ - ٩٧١٦.. فاكس: ٣٦٢١٢٦ - ٩٧١٦..

قراءات شعرية لأطفال الشارقة


محمود درويش

نظم المجلس الأعلى للطفولة في الشارقة يوم ١٥ يونيو/حزيران ١٩٩٩م أمسية شعرية أمّها ثلاثون طفلاً أتوا من مراكز الثقافة التابعة للمجلس الأعلى للطفولة كافة المنتشرة في كل أنحاء إمارة الشارقة، وقد روعي في القصائد الملقاة أن تكون خارجة عن إطار المنهج المدرسي المحدد وكان أغلبها لشعراء معروفين ماعدا القلة.

وكان الإلقاء هو الميزان والحكم الأساسي، وقد ظهرت عفوية الإلقاء عند الأطفال عند اعتلائهم المنصة، فمنهم من ينسى مقاطع شعرية، ومنهم من يرتبك لقلة الخبرة، ومنهم من كان يحاول الإسراع في «إنهاء المهمة» بأسرع وقت ممكن.

شارك الأطفال بقصائد لفحول من الشعراء القدامى والمحدثين فكان من القدماء: قطري بن الفجاءة، وعنترة بن شداد، وأبو نواس، ومن المحدثين: محمود درويش، وعمر أبوريشة، وفدوى طوقان، وأبوالقاسم الشابي، ونزار قباني.

موسوعة علماء العرب والمسلمين

تنوي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إصدار موسوعة عن أعلام العلماء العرب والمسلمين بهدف تقديم مادة تصنيفية (ببليولوجرافية) بلغة علمية ميسرة لتعريف القارئ العربي بأعلام العلماء العرب والمسلمين القدامى منهم والمحدثين، وقد حدد حجم هذه الموسوعة بخمسة مجلدات يقع المجلد الواحد في ألف صفحة على أن يكون هنالك خمسة آلاف مدخل.

وقد شكلت لهذه المهمة لجنة تضم نخبة من العلماء والمفكرين العرب هم عبدالوهاب بوحديبة، وإبراهيم بن مراد من تونس، ومحمود فهمي حجازي، وصلاح فضل من مصر، وعبدالرحمن الطيب الأنصاري من السعودية، ومسعود أبوبكر من سورية، وعبدالرحمن الحاج صالح من الجزائر.

وتوالي هذه اللجنة اجتماعاتها بمقر المنظمة بتونس لوضع الخطة المناسبة لإنجاز هذا العمل الذي يعد الخطوة الأولى في خطة المنظمة الرامية إلى إصدار عدد من الموسوعات المتخصصة خلال الفترة من ١٩٩٩م إلى ٢٠٠٢م، وتشمل الموسوعات المتخصصة التي تنوي المنظمة إنجازها موسوعة العلم وتقنياته، وموسوعة النظريات والمفاهيم والمصطلحات، وموسوعة الفنون العربية، وموسوعة علوم اللغات والأدب، وموسوعة أعلام الثقافة العربية أو موسوعة المبدعين.

الإبداعي بين الماضي والحاضر، وقضية مستقبل الشعر النبطي والحساني والملحون وغير ذلك من القضايا الشعرية.

وقد شهدت جلسات المؤتمر نقاشاً حاداً وجاداً عكس رغبة المؤتمرين في جعل الشعر العربي عامل توحد، وهذا ما أكدته الدكتورة الشاعرة نويرا عبدالسلام بوليرس المسؤولة عن تنظيم المؤتمر بقولها: «إن الإنصات إلى نبض الواقع، والانغراس في حرقة السؤال، يفرضان على التجربة الشعرية أن تكون في حجم التحدي للسفر من التجزئة والتفتت إلى الوحدة والتضامن. وهذا ما حاول هذا المؤتمر أن يدشنه لتجاوز الخدوش والنتوءات التي تعلو تضاريس النفس البشرية».

وقد شهد هذه التظاهرة الشعرية شعراء من المملكة العربية السعودية، والكويت، والإمارات العربية المتحدة، وجمهورية مصر العربية، وسورية، وفلسطين، ولبنان، والجزائر، والأردن، وسلطنة عمان، والعراق، والمغرب.

وكانت أولى جلسات المؤتمر النقدية عن موضوع «الشعر العربي بين الماضي والحاضر: أية خصوصية؟»، وقد شارك فيها الدكاترة: محمد بنشريفة «عضو أكاديمية المملكة المغربية»، وعبدالله الغذامي عن جامعة الملك سعود بالرياض، ومحمد الوالي، وأنور

المرتجي، ومحمد العمري من المغرب، وفوزي عيسى كلية الآداب بالإسكندرية، وعبدالله المعطاني عن جامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

أما الجلسة النقدية الثقافية فقد كانت عن «الأنماط المتجددة في الشعر العربي (النبطي، والحساني، والملحون) وحقيقة الهوية»، وقد شارك فيها الدكاترة: أحمد فهدي المغرب، وسعد الصويان المملكة العربية السعودية، وعبدالمالك الشامي المغرب، وعبدالله المعيقل السعودية، وغسان الحسن الإمارات العربية المتحدة.

وكانت الجلسة النقدية الثالثة عن موضوع: «جمالية المكان في القصيدة العربية: الدلالة والرمز»، وقد شارك فيها الدكاترة: عبدالرحمن طنكول المغرب، وسهام الفريح الكويت، وجريدي سليم المنصوري السعودية، وعبدالله بناصر العلوي المغرب، وصبحي حديدي سورية، ورشيد بنمسعود المغرب.

أما في الأمسيات فقد كانت هنالك جلسات شعرية يؤمها عدد كبير من الناس، وينشد فيها كثير من الشعراء.

وقد خلص المؤتمر في نهاية جلساته إلى مجموعة من التوصيات منها:

ـ ضرورة إخراج الاهتمام بالأنماط الشعرية العربية التي حرصت الذاكرة الجماعية على ←

وفاة التشكيلي السوري فاتح المدرس



فاتح المدرس

شيعت العاصمة السورية في يوم ١٥من شهر ربيع الأول الماضي الموافق ٢٩ يونيو/حزيران ١٩٩٩م الفنان التشكيلي السوري فاتح المدرس، أحد أهم رواد الحداثة الفنية في الفن التشكيلي السوري والعربي، وقد ساهم الراحل بجهد وافر في إثراء الحركة الفنية التشكيلية السورية، ودفع بها إلى احتلال موقع متميز عربيًا وعالميًا.

ولد المدرس في حلب في عام ١٩٢٢م، ودرس في إيطاليا وفرنسا، وعاش في باريس فترة طويلة عاد بعدها إلى سورية حاملاً معه درجة الدكتوراه في العلوم الفنية.

نال الفنان الراحل عددًا من الجوائز العربية والعالمية، ومثّل بلاده في كثير من المحافل الدولية، وأقام عددًا من المعارض، في باريس وبون، وفرانكفورت وكلفلاند بأمريكا، ودول أمريكا اللاتينية، وعمل معيدًا في كلية الفنون الجميلة في جامعة دمشق، وأستاذًا للدراسات العليا فيها، وشغل منصب نقيب الفنانين السوريين ١١ عامًا.

أهدت وزارة الثقافة السورية عددًا من لوحاته للرئيس الفرنسي جاك شيراك، ورئيس ألمانيا الاتحادية سابقًا فالتر شيل، كما اشترى الفيلسوف والكاتب الفرنسي جان بول سارتر ثلاثًا من لوحاته من المعرض الذي أقامه في روما ١٩٥٩م.

ولم تقتصر موهبة الفنان المدرس على الفنون التشكيلية فقط، بل جمع معها الشعر والأدب، فقد ترك الراحل مجموعتين شعريتين «القمر الشرقي يسطع على شاطئ الغرب» بالاشتراك مع شريف خزندار، و«زمن اللاشيء»، ومجموعة قصصية هي «عودة النعناع» التي أخرجها سينمائيًا المخرج بلال صابوني.

العثور على ديناصورات في السودان

أوردت صحيفة الرأ ي العام السودانية خبرًا فحواه أن مدير إحدى المدارس بغرب السودان وجد عظامًا عملاقة قد تكون دليلاً على أن حيوانات الديناصور العملاقة المنقرضة كانت تعيش في السودان.

وأضافت الصحيفة أن المدير كان يقوم بحفر بئر ماء على مسافة تبعد نحو ١٦٥ كيلو مترًا من نهر النيل في منطقة نيالا بغرب السودان، وقد اكتشف هذه العظام على عمق ١١ مترًا، وقال بعض المؤرخين الذين استشارتهم الصحيفة: إن هذه العظام ربما تكون أجزاء من ذيل ديناصور، لكن ـ كما ترى الصحيفة ـ فإن الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة لإثبات صحة هذه الحقيقة.

جائزة مبارك لثلاثة من المبدعين

أعلن فاروق حسني وزير الثقافة المصري رئيس المجلس الأعلى للثقافة في مؤتمر صحفي، فوز الروائي المصري نجيب محفوظ بجائزة مبارك فرع الآداب، وعبدالرحمن بدوي في العلوم الاجتماعية، والفنان التشكيلي صلاح طاهر في الفنون.



صلاح طاهر



عبد الرحمن بدوي

والجدير بالذكر أن هذه أول مرة تمنح فيها جائزة تحمل اسم الرئيس المصري حسني مبارك، وتبلغ قيمة الجائزة ١٠٠ ألف جنيه مصري (نحو ٢٩ ألف دولار).

ومن ناحية أخرى كانت جائزة الدولة التقديرية في الآداب من نصيب محمود أمين العالم، ومصطفى ناصف، بينما حجبت الجائزة الثالثة، أما في الفنون، فقد فاز بها آدم حنين، وفاروق الجوهري، وعبدالله جوهر، وفاز بها في العلوم الاجتماعية كل من: يحيى الجمل، وعبدالعظيم رمضان، وإيهاب حسن إسماعيل، وتبلغ قيمة هذه الجائزة ٥٠ ألف جنيه مصري (نحو ١٥ ألف دولار).

دراسة مصرية توصي بعودة الكتاتيب

أصدر المجلس القومي للتعليم والبحث العلمي في مصر، الذي يرأسه الدكتور عاطف صدقي المشرف العام على المجالس القومية المتخصصة، عددًا من التوصيات في أحدث دراسة قام بها، منها: المطالبة بضرورة التوسع في نشر الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم في مختلف أنحاء مصر في سبيل رعاية الأطفال وتنشئتهم تنشأة سليمة قبل دخولهم المدرسة، وأوصى أيضًا بزيادة معاهد القراءات الدينية.

وأوصى المجلس كذلك بالاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية في الأزهر حتى يتأهل الدعاة للدعوة في البلاد الناطقة بغير العربية، وإنشاء معاهد تحسين الخط العربي، مع إنشاء شعب للطفولة بكليات الأزهر لتأهيل مدرسات تربويات وإعدادهن، وإتاحة أكبر فرصة للبرامج الدينية خلال وسائل الاتصال الجماهيري، وذلك صيانة وتعميقًا للقيم الدينية في نفوس المسلمين.

وتضمنت التوصيات أيضًا ضرورة إحياء اللغة العربية في جميع مكاتبات الدولة الرسمية بوصفها لغة القرآن الكريم، كما إنها لغة تمتاز بميزات كثيرة، وتحتوي على مترادفات متعددة مستوعبة لشتى معاني الأفكار.

تداولها من حقل التداول العامي، إلى حقل البحث العلمي المنهجي فيها، وقد تم اقتراح إنشاء مؤسسة أكاديمية يشرف عليها خبراء متخصصون.

ـ جعل المؤتمر مناسبة لانفتاح الشعر أكثر على المحيط من خلال قنوات مباشرة أو غير مباشرة، كالجامعة، والمراكز الثقافية، ودور الشباب إلى غير ذلك.

ـ إنشاء موسوعة للأشعار العربية غير الفصيحة بوصفها إرثًا جماعيًا يعبر ـ من خلال عفويته ـ عن تضاريس النفس العربية في أفراحها وأتراحها، بعيدًا عن هاجس التمثل النظري والتجريب.

ـ دعوة المؤتمر للجمعيات والمؤسسات الرسمية المهتمة بالشعر لتقوية حضور المتن الثقافي الشعبي، وذلك بالعمل على ربط الاتصال بين هذه المؤسسات على مستوى الوطن العربي الكبير.

ـ التعجيل بطبع أعمال المؤتمر النقدية والإبداعية.

وفاة الشيخ مصطفى الزرقاء

توفي بمدينة الرياض عصر السبت ١٩من شهر ربيع الأول الماضي (٤ يوليو/تموز ١٩٩٩م) فضيلة الشيخ الدكتور مصطفى أحمد الزرقاء عن عمر يناهز ٩٥ عامًا قضى معظمها في التأليف والبحث في أصول الفقه، والعلوم الشرعية، والاقتصاد الإسلامي.



الشيخ مصطفى الزرقاء

وكان - رحمه الله - صاحب اجتهادات مستنيرة متنوعة في فقه العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية، وملأ الساحة الفقهية بعلمه الراسخ الغزير، وتناوله الواعي للمشكلات الحيوية المعاصرة.

ولد الشيخ مصطفى الزرقاء في مدينة حلب السورية عام ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، ودرس الفقه على يد والده الشيخ أحمد الزرقاء الذي كان يلقب بأبي حنيفة الصغير، وحفظ القرآن الكريم وتعلم الفرنسية، وحصل على الشهادة الثانوية في شعبتي العلوم والآداب من حلب، ثم درس الحقوق والآداب بالجامعة السورية.

عمل مدرسًا للشريعة والقانون المدني في الجامعة السورية عام ١٩٤٤م، وتدرج في سلك التدريس بالجامعة حتى نال درجة أستاذ الشريعة الإسلامية حتى تقاعد في عام ١٩٦٦م، وقد عهد إليه في عام ١٩٥٤م بإلقاء محاضرات عن القانون المدني السوري بمعهد الدراسات العربية، وانتخب في العام نفسه عضواً بمجلس النواب ←

معرض عن اليمن القديم في ميونيخ

افتتح في متحف الشعوب في مدينة ميونيخ الألمانية في ٢٥ من شهر ربيع الأول الماضي (٨ يوليو/تموز ١٩٩٩م) معرض عن اليمن سيستمر إلى التاسع من يناير/ كانون الثاني من العام المقبل(٢٠٠٠م)، ويضم المعرض نحو ٦٠٠ قطعة فنية وأثرية تمّ اكتشافها مؤخراً من خلال حفريات قامت بها بعثات أجنبية مختلفة بالتعاون مع الجهات اليمنية المعنية.

وترجع هذه القطع إلى العهد الروماني، كما يتم عرض نموذج لشبكة المياه التي كانت موجودة في اليمن القديم، ونموذج آخر لسد مأرب الشهير، ولنظام الري المتطور في تلك الحقبة.

مؤلفة قصص أطفال عربية تفوز بجائزة أجنبية

تحت شعار «أطفال يهتمون، Caring Kids» صدر عن دار «العلم للملايين» في بيروت سلسلة قصصية لأطفال لبنان، من تأليف إيرما غصن، أستاذة اللغة الإنجليزية والتربية في الجامعة اللبنانية الأمريكية، وقد كتبت هذه السلسلة باللغة الإنجليزية للأطفال الذين تراوح أعمارهم بين ثمانية أعوام وأربعة عشر عاماً.

وتعترف مؤلفة هذه السلسلة الأستاذة إيرما، الحاصلة على درجة الماجستير في التربية من جامعة فرجينيا الأمريكية «أن لغة القصص غير مبسطة لكن فحواها مألوف، وذلك يسهل القدرة على فهمها»، وقد تضمنت قصص هذه السلسلة عدة موضوعات منها: حقوق الإنسان ونبذ العنصرية، والتسامح والمسؤولية الاجتماعية، وقد حاولت المؤلفة من خلال هذه القصص، زيادة وعي الصغار في مجال القضايا الاجتماعية.

وقد حصلت هذه السلسلة، (أطفال يهتمون) في العام الماضي على جائزة «ماري فينيكيارو» للتفوق والامتياز في تنمية مواد علم أصول التدريس (البيداغوجيا)، من منظمة تيسول Tesol التي تعد من أكبر المنظمات الاحترافية الدولية لأساتذة اللغة الإنجليزية في العالم.

والمعروف أن هذه الجائزة لا تمنح إلا للأعمال الرفيعة المستوى، وقد تحجب أحياناً كما حدث في عام ١٩٩٧م، وتعد هذه هي المرة الأولى التي يفوز فيها بالجائزة مؤلف أو مؤلفة من منطقة الشرق الأوسط ليست اللغة الإنجليزية لغته الأم.

قصر نيرون يستقبل الزوار

بعد ٢٠ عاماً من الترميم، شهدت مدينة روما في يوم ٢٥ يونيو/حزيران ١٩٩٩م افتتاح ٣٢ غرفة من أصل ١٥٠ غرفة عثر عليها علماء الآثار من قصر نيرون المعروف باسم «دوموس أوربا»

وقد بني القصر عام ٦٤م على مساحة من الأرض قدرت بثمانين هكتاراً قيل: إن نيرون حصل عليها بالشراء والمصادرة، بعد حريق روما الذي يتهمه بعضهم بإشعاله.

وقد صمم هذا القصر على طراز القصور الشرقية، ونفذه المهندسان المعماريان سيفيرو وتشيليري في أربعة أعوام قبل انتحار صاحبه بعدة أشهر، ويؤكد بعض الخبراء أن الجزء الأكبر من القصر لم يكتمل بناؤه بعد، وقد دمر القياصرة جزءاً من هذا القصر في محاولة لمحو آثار الدكتاتور نيرون، ثم طواه النسيان عدة قرون ماعدا بعض المحاولات الاستكشافية في فترات متقطعة.

وأعيد فتح غرف القصر في عصر النهضة فترة قصيرة حيث أمضى فيه أشهر فناني النهضة فيليبوليبي ورافايلو وقتاً طويلاً وهما يدرسان، على ضوء المشاعل، اللوحات الجدارية الرائعة التي تصور حيوانات ونباتات وأزهاراً رسمت بأسلوب الباروك الفني.

وسوف تتواصل محاولات العلماء لزيادة عدد الغرف المكتشفة وتجهيزها بصورة تبرز جمال اللوحات الجدارية التي سوف تكون محفوظة في درجة حرارة لا تتجاوز ١٢ درجة مئوية، وسيكون دخول الجمهور بنظام الحجز وفي مجموعات على ألاّ يتعدى عدد أفراد المجموعة ٢٥ شخصاً.

وضع مراجع علمية إسلامية في الصين

أعلن في الصين عن نية الحكومة الصينية القيام بتأليف عدد من الكتب المرجعية (الإسلامية) لمساعدة المسلمين الصينيين الذين تجاوز عددهم عشرين مليون مسلم على فهم أمور دينهم الإسلامي، الذي انتشر في الصين منذ أكثر من ١٣٠٠ سنة، فهماً صحيحاً.

أكد ذلك يانغ تشونغ شان نائب رئيس الكلية الإسلامية الصينية ومدير المشروع، وأضاف أن هذه الكتب ستفسر القرآن باللغة الصينية تفسيراً دقيقاً، وأشار إلى مشاركة الكليات الإسلامية والجمعيات الدينية والمعاهد المختلفة في تأليف هذه الكتب، التي قدّر أن يستغرق تأليفها خمسة أعوام.

والمعروف أن بالصين الآن تسع كليات إسلامية، وكتباً ضخمة في الأبحاث الدينية، وهو أمر سيساهم في إنجاح هذا المشروع.

وفي الجانب الرسمي، ذكر أحد مسؤولي المكتب الديني التابع لمجلس الدولة أن الحكومة المركزية تؤيد هذه الجهود وستساهم في إنجاحها بتوفير الأموال والأفراد.

السوري نائباً عن مدينته حلب، وأعيد انتخابه دورة ثانية.

شغل الفقيد منصب وزير الأوقاف والعدل في سورية مرتين، كما عمل خبيراً للموسوعة الفقهية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، ومدرساً في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية بعمان، كما شارك في وضع مشروع القانون المدني الأردني الجديد.

وتم اختياره عضواً بالمجمع الفقهي التابع لرابطة العالم الإسلامي منذ إنشائه عام ١٣٩٨هـ، كما اختير عضواً بإدارة التشريع والبحوث بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية.

ترأس الشيخ مصطفى الزرقاء اللجنة الثلاثية التي وضعت مشروعاً موحداً للأحوال الشخصية بمصر وسورية في أيام الوحدة (١٩٥٩ ـ ١٩٦٠م)، كما شارك في تأسيس مناهج الشريعة وتطويرها بعدد من الجامعات العربية في دمشق والمدينة المنورة ومكة المكرمة والأزهر الشريف بمصر، إلى جانب مشاركات أخرى متعددة.

أما أهم مؤلفات الشيخ مصطفى الزرقاء ـ رحمه الله ـ فتتلخص في:

ـ الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد، ـ ٤ أجزاء ـ دمشق (٦٣ ـ ١٩٦٧م).

ـ أحكام الأوقاف، دمشق، مطبعة الجامعة.

ـ عقد التأمين وموقف الشريعة،

دمشق، مطبعة دمشق ١٩٦٢م، (ترجم إلى التركية).

ـ شرح القانون المدني، ٣ أجزاء، دمشق، مطبعة دمشق.

ـ نظرية العقد في القانون المدني السوري، محاضرات، معهد الدراسات العربية.

وصدر له أخيراً كتاب بعنوان «فتاوى مصطفى أحمد الزرقاء»، ويقع الكتاب في ٧٠٠ صفحة، وقد قدم له الدكتور يوسف القرضاوي، وصدر عن دار القلم بدمشق ١٤٢٠هـ.

ثم مجموعة من البحوث العلمية منها:

ـ روح الشريعة الإسلامية وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي.

ـ التأمين وموقعه في النظام الاقتصادي وموقف الشريعة منه، ١٩٦١م.

ـ الشريعة الإسلامية وصلاحها للتطبيق.

ـ التلقيح الصناعي وأطفال الأنابيب والرأي الشرعي فيها.

ـ المصارف ومعاملاتها وودائعها وفوائدها.

ـ الاجتهاد ومجال التشريع في الإسلام.

وغير ذلك من البحوث الفقهية والفكرية والتربوية.

وقد حصل الشيخ الزرقاء ـ رحمه الله ـ على جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

العرب يعودون إلى الأندلس

عاد العرب إلى الأندلس مرة أخرى، ولكن هذه المرة عبر الأثير، فمن المقرر أن يبدأ تلفاز الأندلس الدولي بث برامجه الفضائية ابتداء من يوم الجمعة ٢ يوليو/تموز ١٩٩٩م. وسيغطي البث، الذي سوف يبدأ بنقل صلاة الجمعة من مسجد الملك عبدالعزيز الذي يعد أول مسجد بناه العرب منذ خروجهم من الأندلس قبل ٥٠٠ سنة، وسيغطي جميع البلاد العربية ودول حوض البحر المتوسط.

ويقول مؤسس المحطة وصاحبها، رجل الأعمال السعودي محمد عشماوي (٦٣ سنة): «إن البث بدأ كتلفزيون محلي يبث القرآن الكريم ومواقيت الصلاة في نحو ساعتين يومياً، عبر محطة إسبانية في المدينة، ولكن تشجيع رئيس بلدية ماربيا «خيسوس خيل» جعلني أطور المشروع، فتطورت الساعتان إلى ١٢ ساعة ثم إلى ١٩ ساعة يومياً».

وستكون برامج هذه المحطة، التي تبث عبر القمر الصناعي نايل سات منوعات، ولن تتطرق المحطة إلى الشؤون السياسية إلا من خلال نشرة الأخبار التي تزودها به (شبكة الأخبار العربية ANN) من مركزها الرئيس في لندن، لأن المحطة ستركز على التنوع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والفني لتحقق الهدف من تأسيسها، وهو تعزيز التعاون العربي ـ الإسباني عبر الفنون والثقافات، ضمن مناخ من الاعتدال.

رسائل مور في المزاد العلني


هنري مور

ساعد عرض للتحف والكتب والمقتنيات القديمة، يقدمه التلفزيون البريطاني، على اكتشاف ثماني عشرة رسالة للنحات الشهير هنري مور كان يرسلها إلى صديقته ـ فيما بعد ـ إيفيلين كيندال التي كانت طالبة في الكلية الملكية للفن في ذلك الوقت، وقد احتوت هذه الرسائل على تفاصيل دقيقة عن الروتين اليومي لحياة النحات مور.

وقد عرضت هذه الرسائل بواسطة ابنة إيفيلين كيندال التي وجدت هذه الرسائل ضمن مقتنيات والدتها، ولم تكن تدري شيئاً عنها، كما وجدت الابنة أيضاً ضمن المقتنيات منحوتة مجهولة لمور كان قد أهداها إيفيلين، والمعروف أن مور وإيفيلين لم يتزوجا على الرغم من العلاقة الوثيقة التي ربطت بينهما بعد تخرج الأخيرة.

الفيصل بن عبدالعزيز، خالد/ مسافة التنمية وشاهد عيان ـ الرياض، ١٤٢٠هـ، ٥٢٤ص.



«مسافة التنمية وشاهد عيان» هو عنوان الكتاب الذي ألّفه صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز أمير منطقة عسير، ويقدم فيه نموذجًا لتجربة الخطط التنموية في مناطق المملكة العربية السعودية، من خلال خبرة عملية تمتد إلى أكثر من ربع قرن، وقد أهدى سموه الكتاب إلى والده الملك فيصل بن عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ بقوله: «إلى أبي.. لعلي وفيت بعضاً من حق الثقة».

جاء في التمهيد «حكاية التنمية في منطقة عسير ـ خلال الثمانية والعشرين عامًا الماضية ـ ما هي إلا حلقة من حلقات الملحمة التنموية الفريدة التي قفزت بها المملكة العربية السعودية من مجتمع بسيط إلى آفاق العصر الحديث من دون أن تتزحزح قيد أنملة عن عقيدتها وأصالتها».

يقع الكتاب في ٥٢٤ صفحة، ويضم خمسة أبواب، جاء الباب الأول خاصاً بالحديث عن الإمارة وتطورها في إطار منهج الحكم السعودي، واختص الباب الثاني بالتنمية التي تحققت في المجالات المختلفة، أما الباب الثالث فقد أفرده للحديث عن نماذج تنموية، وجاء الباب الرابع ليحكي التلاحم بين القطاعين الحكومي والخاص، أما ختام الكتاب فقد خصه بباب أورد فيه ملاحق ووثائق وإحصاءات تتعلق بالموضوع.

المنجد، محمد نور الدين/ الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم: بين النظرية والتطبيق ـ دمشق: دار الفكر ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م، ٢٨٨ص.



يناقش الكاتب ظاهرة شائعة في معظم اللغات الحية، وهي ظاهرة «الاشتراك اللفظي»، واللغة العربية من اللغات التي اشتهرت بهذه الظاهرة، وقد اختلف الدارسون في تقويمهم لها، فعدها بعضهم ميزة يحق للعربية أن تزهو بها، لأن هذا الاشتراك يمدها بثروة كبيرة من الألفاظ والمعاني، بينما يراها آخرون صفة سلبية، تجعل اللغة العربية لغة غامضة، وتبعدها عن الفصاحة.

يقع الكتاب في بابين، جاء الباب الأول للتعريف بجهود السابقين الذين تناولوا ظاهرة الاشتراك، وكانت تلك الجهود في مجال اللغة وعلم أصول الفقه، والمنطق، وعلوم القرآن الكريم.

وجاء الباب الثاني لدراسة ألفاظ قرآنية أجمعت على ذكرها خمسة كتب على الأقل من مصادر الوجوه والنظائر بوصفها كتباً جمعت ألفاظ القرآن الكريم.

وختم الكتاب بخاتمة ألقت الضوء على أبرز ما جاء فيه، ولخّصت ما توصل إليه من نتائج، وبيّنت الجديد الذي أضافه إلى الدراسات السابقة.

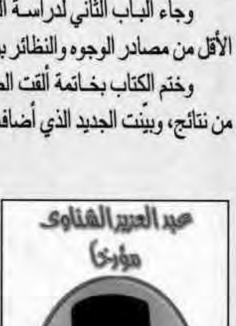
يبكيك محراب يئن ومنبر/ كتيب المجلة العربية رقم ٢٧، ربيع الأول ١٤٢٠هـ ـ يوليو/تموز ١٩٩٩م، ٦٤ ص.



كان عنوان الكتيب الذي أصدرته مجلة «المجلة العربية» ملحقًا بعدد شهر ربيع الأول الماضي «الشيخ ابن باز يبكيك محراب يئن ومنبر»، وقد تناول الكتيب حياة الشيخ ابن باز منذ وقت مبكر مستعرضًا المراحل المختلفة التي مرّ بها الشيخ في حياته منذ تلقيه العلم، ومرورًا بالمناصب التي تبوأها متعرضاً للنكبات التي أصابته بفقد بصره.

ثم أورد الكتيب المقالات والأشعار التي قيلت في رثاء، وكانت بأقلام: الأمير عبدالعزيز بن فهد بن عبدالعزيز، والدكتور عبدالله بن محمد آل الشيخ وزير العدل، والدكتور محمود بن محمد سفر، والأستاذ عبدالعزيز السالم، والشيخ صالح بن عبدالله بن حميد إمام وخطيب المسجد الحرام، وابنته هند بنت عبدالعزيز بن باز، والشيخ أحمد القطان، والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، والدكتور عبدالله بن حافظ الحكمي، والدكتور غازي القصيبي، والدكتور حسن الهويمل، والدكتور أنور الجبرتي، والأستاذ حمد القاضي، إضافة إلى بعض القصائد الشعرية للشعراء: عبدالرحمن العشماوي، والشيخ الشريم، وأحمد بن صالح (مسافر)، والدكتور أحمد بن عثمان التويجري، وعبدالله الصيخان، ومريم الرفاعي، وعبدالله الرشيد، والدكتور عبدالله باشراحيل.

علوان، بهاء الدين محمد/ عبدالعزيز الشناوي مؤرخًا ـ المنصورة: دار سنابل للنشر والتوزيع، ١٩١ص.



الكتاب ترجمة للمؤرخ المصري الدكتور عبدالعزيز الشناوي، ويقع في ثلاثة فصول، جاء الفصل الأول خاصًا بسيرته الذاتية، وأسرته، وتعليمه، ومؤهلاته، ووظائفه، وتقدير الدولة له، وعضويته في اللجان العلمية، ثم أخلاقه، ومنهجه.

أما الفصل الثاني فقد كان عن كتاباته، وفيه تعرض المؤلف لمؤلفاته وعدّد منها: «السخرة في حفر قناة السويس»، و«عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية»، و«وثائق ونصوص التاريخ الحديث والمعاصر»، و«أوربا في مطلع العصور الحديثة»، و«السويس»، و«الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها» (أربعة أجزاء)، و«الأزهر جامعاً وجامعة» (جزءان).

أما الفصل الثالث فقد كان خاصاً بمختارات من مؤلفاته، واستعرض فيه المؤلف بعضاً منها مثل: «دانتي اليجيري»، و«الدولة العثمانية»، و«نظام الحريم السلطاني»، ومؤلفات أخرى.

أحكام وفتاوى الزكاة والصدقات/ بيت الزكاة، دولة الكويت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٢١٧ص.



أشرفت على إعداد هذا الكتاب الهيئة الشرعية لبيت الزكاة وهي لجنة شرعية تتكون من خمسة أعضاء يرأسها في الوقت الحاضر الأستاذ الدكتور عجيل جاسم النشمي.

يحتوي الكتاب على عدد من الفتاوى عن أحكام الزكاة والصدقات شملت زكوات: النقود

والحلي، والشركات والأسهم والسندات والمستغلات، والثروة الزراعية، والأنعام، والمال العام، والمال الحرام، والضريبة.

ثم تحدث عن نقل الزكاة ومصارفها واستثمار أموال الزكاة والصدقات.

ثم تناول زكاة الفطر وفدية الإفطار في رمضان والصدقة الجارية والأموال المشبوهة واليتيم والوصية والأضحية.

ويقدم الكتاب تعريفاً لكل مورد من هذه الموارد، ويقدم أدلة وجوب زكاته من الكتاب، ثم يحدد وقت وجوبها ومقدارها.

ويجيب الكتاب أيضاً عن بعض الأسئلة التي تستفتي عن بعض الأمور المتعلقة بالزكاة والصدقات.



المخطوطات العربية في قسم الاستشراق في جامعة بطرسبورج/ تحقيق: فيرلوفا دريجنا ـ بطرسبورج: مركز استشراق، ١٩٩٧م، ٣٦٨ص.

الكتاب فهرس بالمخطوطات الموجودة في قسم الاستشراق في جامعة بطرسبورج، وقد جاء محتوياً على ١٠٤٠ مخطوطة مرقمة ترقيماً متسلسلاً وجاءت الفهرسة باللغتين العربية والروسية.

أورد المحقق في آخر الكتاب قائمة بأسماء الأعلام الواردة في المخطوطات ذاكراً اسم العلم ورقم المخطوطة التي ورد فيها، كما أورد أيضاً صوراً لبعض المخطوطات التي وردت فهرستها في الكتاب.



أندية الفتيات بالشارقة/ثقافة المرأة في الخليج ط١. ـ الشارقة: أندية الفتيات بالشارقة، ١٩٩٨م، ١٤٤ص.

يشتمل الكتاب على أوراق عمل قدمت في الملتقى الثقافي الذي نظمته رابطة أديبات الإمارات في أندية الفتيات بالشارقة تحت شعار «ثقافة المرأة في الخليج»، وقد احتوى الكتاب على ستة أوراق: كانت الورقة الأولى بعنوان «الثقافة الإسلامية ومدى تأثيرها في الفكر المعاصر»، من إعداد سمو الأميرة/ الدكتورة سارة بنت عبدالمحسن بن عبدالله بن جلوي آل سعود.

وكانت الورقة الثانية بعنوان «جدلية العلاقة بين الثقافة والتعليم في علاقتهما بالمرأة العربية في الخليج والجزيرة العربية»، أعدتها الأستاذة أنيسة أحمد فخرو (البحرين)، أما الورقة الثالثة فقد كانت تحت عنوان «القيادة النسائية في المؤسسات الثقافية في الإمارات بين المعارضة والتأييد: مقارنة سوسيولوجية»، أعدتها الدكتورة موزة عبيد غباش (الإمارات العربية المتحدة ـ دبي).

وجاءت الورقة الرابعة تحت عنوان «تثقيف الذات» للكاتبة الكويتية ليلى العثمان، أما الورقة الخامسة فقد جاءت بعنوان «العمل الاجتماعي وأثره في رفع مستوى المرأة الثقافي» من إعداد سعيدة بنت خاطر الفارسي (عمان).

وجاء في ختام الإصدار موضوع بعنوان «مدى تعرض المرأة القطرية لوسائل الإعلام وتأثيرها على الوعي الثقافي: دراسة استطلاعية» أعدتها نعيمة عبدالوهاب المطاوعة (قطر).



رسالة كلية القيادة والأركان (العدد السادس ـ سنة ١٤٢٠هـ).

صدر العدد السادس من مجلة «رسالة كلية القيادة والأركان»، وهي مجلة سنوية تختص بالدراسات الإستراتيجية والعسكرية والعلمية، تصدرها كلية القيادة والأركان بالقوات المسلحة السعودية.

وقد جاء هذا العدد حافلاً بالكثير من الموضوعات العسكرية التي تتناول العديد من فروعها ووحداتها العسكرية بأقلام كبار القادة العسكريين الذين تحدثوا عن الأساليب العسكرية والاستخبارات والإسناد الإداري وكيفية اتخاذ القرارات، ومفهوم النظام العالمي الجديد ومصداقيته، هذا بالإضافة إلى تناول عملية التقنية الحديثة في العمل العسكري مثل تكنولوجيا الإخفاء الراداري وأسلوب استخدام القوة الجوية.



بيادر، (العدد ٣٦محرم ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

تصدر هذه الدورية عن نادي أبها الأدبي، وتزامن صدور هذا العدد مع انعقاد المؤتمر الخامس عشر لرؤساء الأندية الأدبية في دورته الثانية بنادي أبها، وكان نادي أبها صاحب هذه المبادرة التي نالت موافقة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب ودعمه.

وقد جاء هذا الإصدار مختلفاً في الشكل عن الإصدارات السابقة وإن كان يحمل المضامين نفسها، وحوى كثيراً من الموضوعات في مجال الدراسات والمقالات والنقد والشعر والقصة والمسرح والفن التشكيلي.

ففي مجال الدراسات جاءت عدة عناوين: «نحو سياحة ثقافية»، و «غياب الكتاب الإبداعي»، و«الليل بعيون شاعرة»، وغير ذلك من المقالات.

وفي مجال الشعر أورد الملف كثيراً من القصائد لعدد من الشعراء مثل قصيدة «لحظات الكتابة»، و« سديم الذاكرة»، و«جرح مكابر»، وغير ذلك من القصائد.

أما القصة فقد وردت تحت عدة عناوين: «بئر الحمام»، و«الصورة الأخرى»، و«إلى حين»، وغيرها.

وعن الفنون، جاء موضوع «ميكافيللي مسرحيًا»، و«المسرح السعودي متى يكون حاضراً؟»، و«غصون»، و«الفن التشكيلي في عسير».



العقيق (مج١١، ع٣١، ٣٢، رجب ١٤١٩هـ ـ ذو الحجة ١٤١٩هـ).

العقيق، ملف ثقافي أدبي محكم نصف سنوي، يصدر عن نادي المدينة المنورة.

صدر هذا المجلد متزامناً مع الاحتفال بمرور مئة عام على توحيد المملكة العربية السعودية على يد الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ، وقد جاء حافلاً بكثير من الموضوعات، ففي مجال البحوث والدراسات والمقالات جاء فيه:

«بدايات نهضة المملكة الحضارية في عهد الملك عبدالعزيز»، و«توطين الملك عبدالعزيز للبدو ونتائجه العامة»، و«تطور الحسبة في المملكة العربية السعودية»، و«علماء الهند والملك عبدالعزيز»، و«تطور الخدمات الصحية في المملكة العربية السعودية»، و«المدن العسكرية السعودية ودورها في التنمية»، و«المملكة ومنظمة التجارة العالمية»، و«البعد الجغرافي لمؤسسات تحفيظ القرآن الكريم في المملكة العربية السعودية»، و«رحلة الرياضة والترويح عبر العهد السعودي الميمون»، و«الملك عبدالعزيز وقضية فلسطين»، إلى جانب القصائد الشعرية ومراجعات الكتب والتقارير والمسترجعات الثقافية والأدبية والعلمية.



مجلة المنهل (العدد ٥٥٩، الربيعان ١٤٢٠هـ).

حفل هذا العدد من مجلة المنهل بعدد من الموضوعات المتنوعة مبتدئاً بتحقيق مصور عن معهد المخطوطات العربية للدكتور خالد عزب، وتحدث الدكتور عبدالباسط حمودة عن القصص النبوي، وفند الدكتور محمد عمارة آراء المستشرقين في سلسلته «الاستشراق والظاهرة الإسلامية»، وكتب الدكتور أمين ساعاتي الحلقة الثانية والأخيرة من موضوع «تاريخ الصحافة في عهد الملك عبدالعزيز».

كما احتوى العدد أيضاً على «ملف خاص» لأعلام قدموا جهداً كبيراً في مختلف التخصصات العلمية منهم: محمد بن سلمة الأنصاري، وقيس بن سعد، والفقيه المحدث سفيان الثوري، والإمام أبو داود السجستاني، والإمام الطبري، والشاعر العنتري، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبوالريحان البيروني، وابن بطوطة.

مجوهرات القازاق والقرغيز والكاراكالباك تنوع الزخارف والألوان

إل جي بيريسنيقا
ترجمة : نعيم الغول

يتكلم القازاق والقرغيز والكاراكالباك اللغات التركية. إنهم وارثو الشعوب البدوية التي عاشت في أواسط آسيا وخلفاؤهم. إن أعراقهم ونسبهم معقدة إلى حد كبير، ويغطيها علم متخصص. ومن المهم ملاحظة أن العلاقة بين البيئة الطبيعية والنشاطات الاقتصادية والروابط الاقتصادية والتاريخية الوثيقة لهؤلاء الشعوب على مدى قرون كثيرة هي التي قررت تركيبة تقاليدهم وعاداتهم الثقافية والفنية. وفي أواسط آسيا كانت صناعة الحدادة والمجوهرات موحدة. فالحرفي نفسه كان يُنعل (يبيطر) الخيول ويصلح المحاريث ويصنع الخواتم الرائعة للعروس. وكان عدد صانعي الجواهر المتخصصين قليلاً.

وكان صانع الجواهر الريفي يعيش حياة روتينية مملة، ويعمل خلال محطات توقف طويلة في قرى مختلفة. وكان الحرفي يحمل طقم معداته معه، وكان ذلك الطقم يحتوي على فرن (أتون) تطريق المعادن المتنقل مع كير، وسندان صغير، وملقط، وملزمة...إلخ.

وبموجب ظروف العمل هذه فإن إمكانات الحرفي كانت محدودة، ولم يمتلك بدو أواسط آسيا إلا أجهزة فنية بسيطة، وذلك مثل قوالب الصب والسبك، وأدوات ترصيع الجواهر، وأدوات الختم والنقش والحفر البسيطة. وفي المناطق الجنوبية من قازاخستان وقرغيزيا كانت تستخدم الأساليب الفنية بالأصباغ القرمزية.

ويبلغ عدد قطع المجوهرات في هذه المجموعة من القازاق والقرغيز والكاراكالباك أكثر من ٢٥٠ قطعة، منها ١٥٩ قطعة من القازاق، و٦٠ قطعة من الكاراكالباك ونحو ٣٠ قطعة من قرغيزيا. وقد جلبت هذه القطع عن طريق حملات طافت تلك المناطق في السبعينيات والثمانينيات. أما القطع الكاراكالباكية فقد قدمت للمتحف على سبيل الهدية من مقتنيات سافتسكي المدير السابق لمتحف الفنون في كاراكالباك مع أن هذه المجموعة ليست بالمتوازنة ولا بالكاملة، ولكنها لا تزال تعطي فكرة عن النوعية العالية للمجوهرات التقليدية لأمم أواسط آسيا.

أما القطع الواردة من المناطق الجنوبية فهي تتميز بتنوع أكبر للأجهزة الفنية والزخرفية. كما أن ألوان هذه القطع أكثر تنوعًا ففيها ألوان مرجانية وقرنفلية بالإضافة إلى أحجار بألوان حمراء وخضراء وزرقاء.

إن أطقم الجواهر النسائية متماثلة بشكل كبير لدى جميع أمم أواسط آسيا مع بعض التباينات المحلية. تُشترى معظم أطقم الجواهر الكاملة والمتنوعة عند زواج الفتاة. ويعد رداء الرأس هو الأكثر زخرفة في هذا الطقم من الحليّ.

وعادة يأخذ هذا الرداء شكل القلنسوة الهرمي من مخمل أحمر أو من الجوخ المزين بأقراص فضية مخيطة في صفوف على الجبهة. إلا أن أشكال أردية الرأس تتباين حسب الأقاليم والمناطق. فهي هرمية الشكل في قرغيزيا أما في قازاخستان فهي مستوية ولولبية بينما هي بيضوية أو جرسية الشكل في كاراكالباك.

وأحيانًا تكون الأقراط(١) موصولة بسلسلة أو باثنتين نازلتين على الوجنات مشكلتين إطارًا للوجه كما هو الحال بالنسبة إلى الهالكان - سيرجا Hal-kan - Syrga من كاراكالباكيا أو ألباي - تيوما Bai-Tumr من قرغيزيا. وتستخدم هذه الزخرفة من جنوب قرغيزيا بشكل خاص في المناسبات الجادة، وتتكون من قرطين هرميين مع أسطح مزخرفة بصفوف من الأسلاك المعرجة، ويستكمل الطرف السفلي بقطع مرجانية بيضوية. والأقراط تكون موصولة



تتماثل الجواهر النسائية في أواسط آسيا



تفاصيل ونقوش لقطعة من الزجاج والفضة - كازاخستان - أواخر القرن التاسع عشر

بسلسلة طويلة مع زخرفات تزين الصدر وإلى علبة تعويذات مثلثة، ويشمل رداء الرأس أيضاً ضفائر (جدائل) للبنت من نوع شاس - بو Shash - bou مكونة من تفاصيل ممهورة، وأوراق شجر فضية وكرات وزينات على شكل وردات مصفوفة على سلك حريري أسود.

أما زخرفة الصدر فقد أفردت لمعالجات خاصة، فبصرف النظر عن الخرز والقلائد وعلب التعويذات فإن لوحة صدرية خاصة تسمى أونيرشي Onyrshe تخاط من الجوخ الناعم ومطرزة بشكل كبير كانت جزءاً من الملابس الاحتفالية.

وهنالك عدة أغراض لمثل تلك اللوحة. فقد كانت تغطي ملابس الأنثى، وتحمي الأم المرضع من الحسد، وتحمي الملابس من البلى والاهتراء والأوساخ، كما كانت نوعاً خاصاً من العرض والتباهي لمجوهرات الزواج والاحتفالات. وهنالك زخارف أخرى مثل الـ أكيكل Akykl والـ يوكي أياك Uki Ayak وهي على شكل أقراط وقلائد وأزرار. كما كانت قطع العملة الذهبية تخاط في صفوف، كما كان الكاراكالباك يخيطون زخارف تسمى عندهم شارتايم Shartime مع أقراط وقلائد وأجراس على الجزء السفلي من تلك اللوحة. وكان هذا الشلال الفضي يستكمل بجرس يسمى أونجير مونشاك Ongirmonshak بحلي متدلية تحدث ضجيجاً، وكانت توصل بلوحة الصدر بوصلة خاصة تشبه رقم ٨ ويوجد في وسطها حلية على شكل وردة.

وكل هذه الزخارف كانت تغطى بطلاء ذهبي وبالعقيق وبقطع زينة محفورة ومقطعة ومنقوشة مما يعطي جواً احتفالياً رصيناً في الوقت نفسه لملابس العروس أو الفتاة الشابة.

إن أكثر مجموعة المجوهرات عدداً وتنوعاً هي الأقراط والقلائد والخواتم.

الهوامش:



سلسلة تزين الصدر

---

* **مترجمة بإذن من مجلة** Arts and the Islamic World
عدد خاص رقم (٣٣) بعنوان: Treasures from Central Asia
Islamic Art object in the State Museum of Oriental Art, Moscow

١- Pendants **تعني قلائد أو أقراطاً أو حلياً متدلية.**

